١٩٢١

مكتبة نوبل

أناتول فرانس

الزنبقة الحمراء





...وي محمد

الزنبقة الحمراء

١٩٢١

مكتبة نوبل

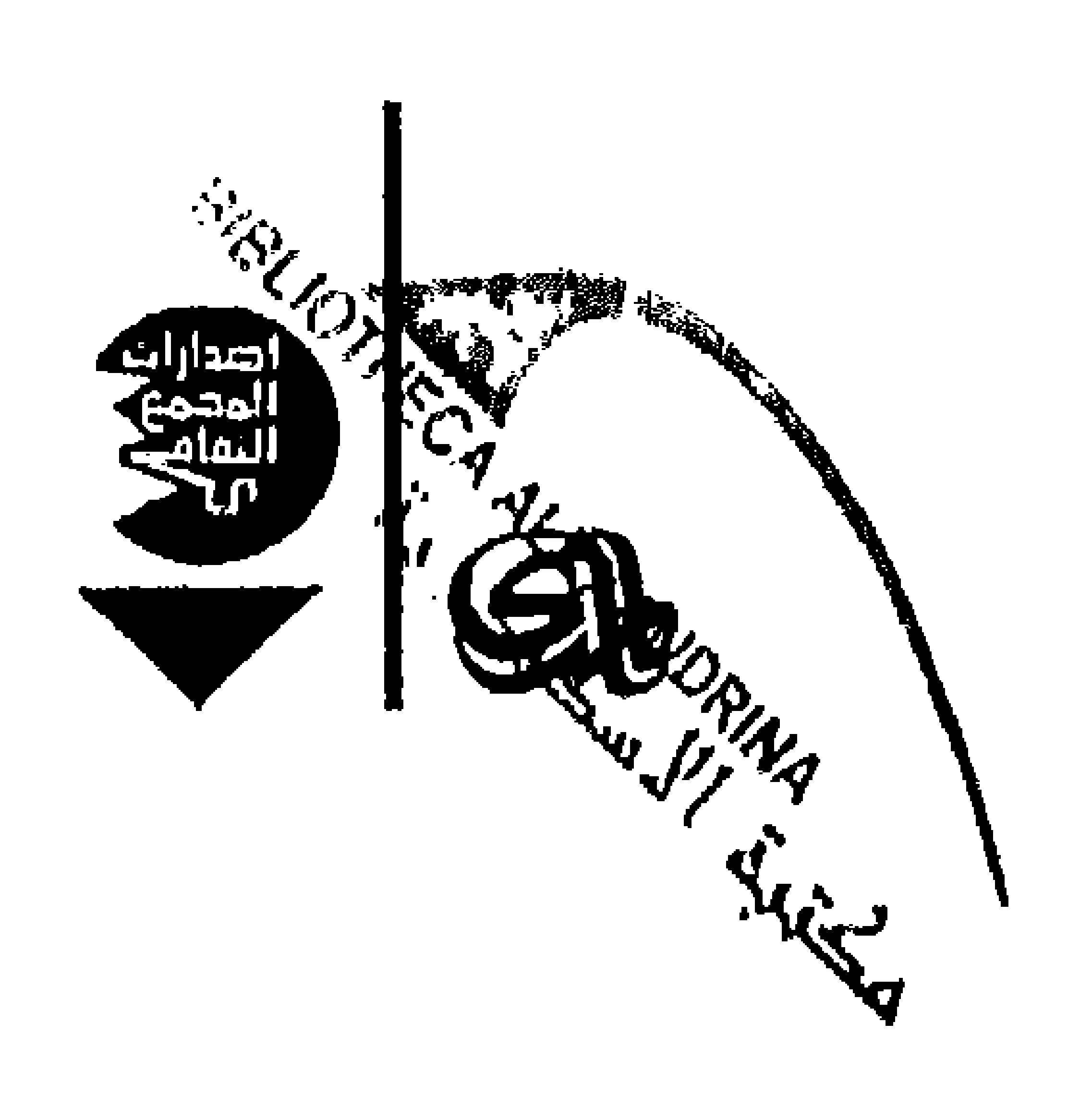
١٨٤٤-١٩٢٤

أناتول فرانس

الزنبقة الحمراء

ترجمة

أحمد الصاوي محمد



مكتبة نوبل



اسم المــؤلف : أناتول فرانس	Author: Anatole France
عنوان الكتـاب : الزنبقة الحمراء	Title : Le Lys rouge
ترجـمـة : أحمد الصاوي	Translator: Ahmad Al-Sawi
النـاشـر : دار المدى للثقافة والنشر	Al- Mada : P. C.
المجمع الثقافي/ أبو ظبي	Cultural Foundation
الطبـعـة الأولى : ١٩٩٨	First Edition 1998
الحقوق محفوظة	Copyright ©

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦

تلفون : ٧٧٧٢٠١٩ - ٧٧٧٦٨٦٤ - فاكس : ٧٧٧٣٩٩٢

بيروت - لبنان صندوق بريد : ٣١٨١ - ١١

فاكس : ٤٢٦٢٥٢ - ٩٦١١

المجمع الثقافي

الامارات العربية المتحدة - أبو ظبي

ص.ب : ٢٣٨٠

تلفون : ٢١٥٣٠٠

Al Mada : Publishing Company F.K.A.

Nicosia - Cyprus , P.O.Box . : 7025

Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or

7366 . Tel: 7776864 , Fax: 7773992

P.O. Box : 11 - 3181 , Beirut - Lebanon,

Fax : 9611- 426252

Cultural Foundation

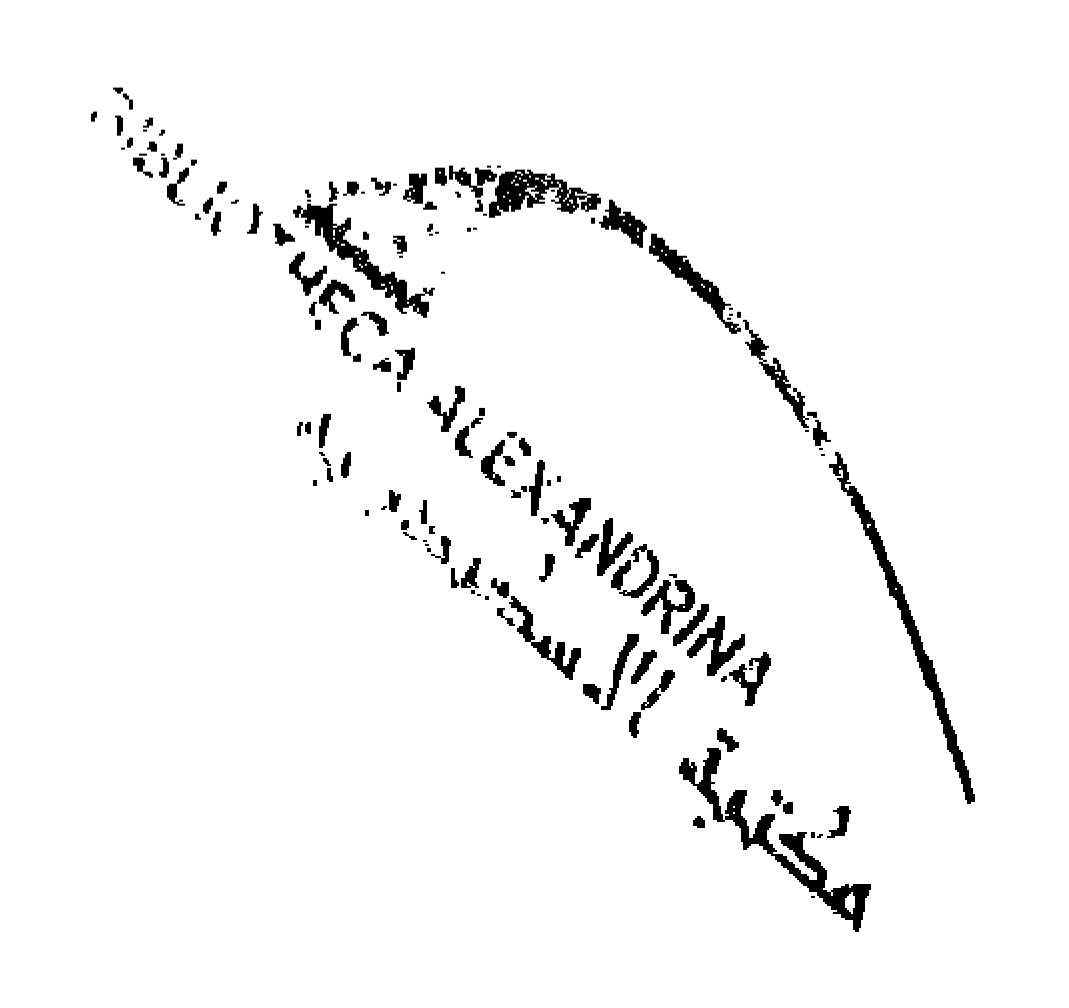
U.A.E. Abu Dhabi

P.O.Box: 2380

Tel. 215300

«وما هذه القصة التي أريد أن أحدثك عنها فلا أكاد لأنني لا أستطيع الانصراف عن الكتاب ؟ إنك لتقرؤها فتجد فيها لذة الهية لا تظفر بمثلها إلا حين تقرأ آثار صاحبه أفلاطون . إنك لتقرؤها فتجد فيها ابتساماً حُلواً وعبوساً مرّاً . انك لتقرؤها فتجد فيها جداً ومزلاً . إنك لتقرؤها فتجد فيها شكاً ويقيناً ، وإنك لتقرؤها فتجد فيها إلحاداً وديناً ، وإنك لتجد أثناء قراءتها من اللذة القوية الدقيقة ما يسحرك عن نفسك ويملك عليك هواك وينسيك أن للكتاب فكرة بعينها وغرضاً واضحاً يسعى إليه ، وانك لتفرغ من قراءتها فتسأل نفسك ، أكنتَ في حلم أم يقظة ؟!» .

طه حسين



أناتول فرانس

كلمة المترجم يوم وفاته*

كأني بعبقرية أناتول فرانس قد ولدت شاكية السلاح مثل «أتينا» الهة الحكمة عند الاغريق!
ماسون

كنت خارجاً بعد الظهر من مكتبي ذاهباً الى «المطبعة العصرية» حاملاً أصول «الزنبقة الحمراء» «Le Lys Rouge» الذي نقلته الى العربية بعد «تاييس» .

فإذا بي أروّع وأفاجأ في منتصف الطريق بالنبأ الفاجع الأليم ، نبأ وفاة أناتول العزيز العظيم!

مات أناتول فرانس! ذلك الذي عشت وعاش الألوف معي وقبلي وسيعيشون بعدي على استنشاق روحه كما يعيش النحل على طعام الزهور! مات! فكيف مات ؟! ولماذا يموت ؟ ؟!

سنّة الله...

مات ولا يزال القتلة المجرمون الذين يملأون السجون في شرق الدنيا وغربها يعيشون! مات أناتول ولا يزال على قيد الحياة المجاذيب الذين يملأون في طول الأرض وعرضها مستشفيات المجانين! مات أناتول فرانس وامحى من الدنيا التي فيها الدهماء والسفهاء والسخفاء أحياء يرزقون!!!

---

* نشرتها جريدة «الاهرام» بعددها الصادر في ١٤ اكتوبر ١٩٢٤ .

نعم! ماتت «الفكرة» و«الحكمة» و«الابتسامة»! ماتت الفكرة التي أودعها الغيب رأسه! زالت البسمة التي كانت دائماً مطبوعة على ثغره! البسمة التي كانت خير ما يجمّل فنه وأدبه . فقد كان أبداً بسّاماً ساخراً . وكان يهزأ من الشيء ويعزه! وكان يسخر من الانسان ويحبه! فأما أن يسخر منه فلضعفه وقوته ، ولجهله وعلمه . وأما أنه كان يحبه فلاجتماع هذه الأشياء فيه كلها! كان أناتول ابن الحياة ، بل أبر أبناء الحياة ، بل كان الحياة نفسها!

وقد استكشف له «جورج براندس» الناقد الدانيمركي المشهور الجملة الآتية ، وقال إن رجلاً واحداً هو الذي يستطيع أن يكتب هذه الجملة ، وهو أناتول فرانس : «لن نحب الطبيعة لأنها غير جديرة بالحب ، لكننا كذلك لن نبغضها لأنها لا تستحق البغض . فهي كل شيء . وما أصعب أن تكون كل شيء!» .

وثمة شيئان يبغضهما أناتول فرانس ، شيئان يمحوان بسمته الخالدة ويحيلانها غضبة ثائرة ، هما الظلم والفقر . فهو نصير الطبقات الفقيرة الشقية ، كما هو عدو الحكام القساة الطغاة . فهو من هذه الوجهة ابن الانسانية ، بل أبر أبناء الانسانية ، بل الانسانية نفسها!

وكذلك كان يكره الألم أمرّ الكره . ويقول انه يرضى من الله بكل شيء إلا الألم[1]! .

وقد عُرف عن أناتول فرانس منذ ترك وظيفته ، التي كانت تقيده ، ليتمكن من الدفاع عن دريفوس صاحب القضية المشهورة ، أنه من أكبر أنصار حرية الرأي وأهل الفكر الحر .

ولد في باريس في ١٦ ابريل عام ١٨٤٤ ، عام الإحسان ، فهو يموت الآن في الحادية والثمانين من عمره ، في عام ١٩٢٤ ، عام الاساءة!

---

(١) باريس في ١٣ اكتوبر سنة ١٩٢٤ ـ كان اناتول فرانس قد فقد رشده كله تقريباً منذ يوم الجمعة فلم يكن يسترد صوابه مؤقتاً إلا ليدعو أمه قائلاً . «أماه!... أماه!... إني أموت...»
وقد دخل في دور النزع الأخير في الساعة السادسة صباحاً وكان نزاعه مؤلماً جداً... وأسلم الروح في الساعة ١١ والدقيقة ٢٦ تماماً .

«هافاس»

وكان أبوه بائع كتب ، فتكوّن ذهنه في جو من عقول القدماء والمحدثين من الكتاب والحكماء .

ولفت إليه الأنظار بقصته الجميلة (جرمية سيلفستر بونار) فتوّجها المجمع العلمي الفرنسي وذاع صيتها ، وكانت بداءة شهرته التي لن تطفىء الأيام من نورها إلاّ بقدر ما يطفىء النسيم من نور الشمس!... ومنح وسام اللجيون دونور في ٣١ ديسمبر سنة ١٨٨٤ . وانتخب عضواً في الأكاديمية الفرنسية ، كرسي «فرديناند دي لسبس» في عام ١٨٩٦ . ونال جائزة «نوبل» في الآداب لعام ١٩٢٠ ، وتقدر بنحو خمسة عشر الف جنيه ، تبرع بها كلها لأهل روسيا أيام المجاعة... فتأمل! .

أما منتقدوه فكثيرون . لكن ـ كما يقول أرمان ماسون ـ «حتى هؤلاء الذين يرفضون استحسان درس التسامح الذي يلقيه الأستاذ علينا ، ومجهوده في سبيل تحرير الانسان من ربقة الافكار المزيفة الباطلة والعواطف الخطرة الخاطئة ، حتى هؤلاء نجدهم مضطرين الى الاذعان بأنهم يجدون في كتابات أناتول فرانس ـ على أقل تقدير ـ أجمل مدرسة للفكر في زمننا هذا»

والآن...

في ذمة الله يا أستاذي العظيم .

يا صاحب الكلمات المختارات من صندوق حلي الملائكة المملوء بجوهر الجمال ولؤلؤ النور وزمرد الحكمة!... أنت! ... يا من تحكي بأسلوبك الهادىء الوديع سير الطاووس المتخطر في المساء ، في ضوء القمر ، في فصل الربيع ، على شاطىء البحيرة ، على نغم الموسيقى ، في دار الفردوس المفقود!...

احمد الصاوي محمد

١

ألقيت نظرةً على المقاعد المتراصّة أمام المصطلى ، ومنضدة الشاي التي تضيء في الظلام ، والطاقات الكبيرة من الزهر الشاحب المنبثق من أصص صينية . فأدخلت يدها بين الأغصان المزهرة عابثة بأكمامها الفضية ، ثم بدا لها فالتفتت إلى المرآة باهتمام ، على ما بينها وبينها من البعد ، وقد لصق خدها بكتفها ، فتتبعت تموّج قوامها الرشيق في الثوب الحريري الأسود المغطّى بنسيج شفاف مطرز بلآلىء تضيء وتتلاعب بنور اللهيب...

فاقتربت من المرآة مدفوعة بالرغبة في تَعَرُّف ما كان عليه محيّاها في ذلك النهار ، فالفت نفسها بحيث استردت نظرتها الهادئة كأنما كانت تلك المرأة الفاتنة التي تأملتها في المرآة تعيش بنجوة من الأفراح البالغة والأحزان المبرّحة .

وكانت جُدرُ الثَّويّ (الصالون) الكبير مزدانة بالسجاجيد القاتمة ذات النقوش العتيقة المكفهرّة على الحيطان اكفهراراً لا حَد لروعته ، وكذلك التماثيل الخزفية الصغيرة الموضوعة فوق عُمُد قصيرة ، ومجموعات الصيني السكسوني القديم ، ومصوَّرات «سيفر» المرصوصة على رفوف الخُزن البلَّورية ، كانت هذه كلها كأنها تتحدث عن التاريخ الغابر .

وكان على قاعدة محلاة بالبرنز الثمين تمثال نصفي من المرمر لأميرة

متنكرة في زي «ديانا»(١) ذات محيا ذابل وصدر بارز قد انشق عنه دثارها، على حين كان سقف الصالون مزداناً بصورة «الليل» في شكل «مركيزة» محوط بصور عدّة لإله الحب، تنثر حواليه الزهور. وكان كل شيء في همود وهجود، ولم يكن يُسمع غير زفير النيران وهي تتلظّى في جوف المصطلى.

ولما تحولت عن المرآة، ذهبت إلى النافذة، فرفعت طرف الستار، ونظرت إلى مياه نهر السين الصفراء، من خلال أشجار الميناء التي تبدو في الشفق سوداء، فانعكس في عينيها الزرقاوين صفاءُ الماء وصفاءُ السماء.

ومرَّ في أثناء ذلك زورق مقلع من إحدى قناطر جسر «لالما» حامل فقراء المسافرين الى «جرنل» و«بيانكور». فأتبعته نظرها وهو يتحوّل مع التيّار الكدر، ثمّ أرخت الستار وأخذت مجلسها المعهود من ركن (الكنبه)، تحت أصص الزهر، تنتظر زائريها، فتناولت كتاباً قريباً منها على المنضدة، وكان على غلافه المتّخذ من نسيج من لون القش، اسمه مموّهاً بالذهب:

عيسول الشقراء

بقلم: فيفيان بل

Yseult la Blonde, Par Vivian Bell

وهو مجموعة أشعار فرنسية من نظم سيدة انكليزية، طبعت في لندرة. وقرأت إتّفاقاً:

إذا دقّ الناقوس في الجوّ المهتزّ طرباً
دقة «السلام عليك يا مريم»
كأنه متعبّد يغنّي ويصلّي...

---

(١) Diane آلهة الصيد والقنص عند القدماء.

ارتعدت العذراءُ خوفاً وفرقاً
وهي في البستان بين أشجار التفّاح
إذ ترى الرسول مقبلاً
يقدّم اليها «الزنبقة الحمراء»
التي يحبّ الموت بعض الحب من يشمّ شذاها!
وفي طراءة المساء بين أسوار الروضة الغنّاء
تستشعر العذراء النفس الصاعدة على الشفتين
فيخيّل إليها أن روحها يفيض من صدرها الناصع
كالغدير الذي يفيض من الزلال الصافي...

فظلّت تقرأ ذاهلة غير مكترثة ، تفكّر في الشاعرة «مس بل» أكثر مما تفكّر في شعرها . ولعلّ هذه الشاعرة كانت ألطف صواحبها جميعاً ،إن كانت قليلاً ماتراها .

وقد حدث مرة من مرّات لقائهما النادر أن عانقتها «مس بل» هذه ونقرتها بشدة في خدّها وهي تقبّلها!... ودعتها : «عزيزة»!! واندفعت في حديث كمناغاة الأطفال ، وكانت غير جميلة الصورة ولكنها كانت خفيفة الظل ، ولطيفة خالصة اللطف .

وكانت تعيش في «فييزول» عيشة فلسفية حينما ذهب سمعها في بلادها بأنها شاعرة انجلترا المحبوبة ، وقد هامت هيام «ماري روبنسون» و «فرنون لي» بحب الحياة «التكسانية» والفن «التسكاني» ، وأخذت تعبّر عن خواطر الطليان بالشعر الفرنسي .

وها هي ذي قد أرسلت ديوانها «عيسول الشقراء» الى «عزيزة» مع دعوة الى تمضية شهر في بيتها بمحلّة «فييزول» ، وكتبت اليها تقول :

«هلّمي اشهدي أجمل ما في الدنيا يزدد بك جمالاً!» .

وكانت عزيزة تقول في نفسها أنها لن تذهب ، وإنها محجور عليها في

باريس ، ولكنها كانت تميل الى مشاهدة «مس بل» وايطاليا مرة أخرى .
وبينما هي تقلّب صفحات الكتاب إذ رأت هذا الشطر اتّفاقاً :
الحب والقلق الشفيقُ سواءُ
فتساءلت في تهكّم رقيق :
«ترى أذاقت مس بل للحب طعماً! وماذا عسى أن يكون حديث غرامها ؟!»
وكان للشاعرة رجل معجب بها ملازم لها بفيييزول وهو الأمير «البر تنلّي» ، وكان على جماله الساحر عادياً مبتذلاً غير جدير أن يكون ملء نفس شاعرة تعرف كيف تمايز بين صفوف الحسن ، وفيلسوفة ترى في الحب نوعاً من الإشراق الذي يوصل الانسان الى الله .

●

ـ نعمت صباحاً ياتريز! كيف أنت ؟ أمّا أنا فقد عييت وضقت ذرعاً...
وكانت المتكلّمة تدعى الأميرة «سنيافين» وهي امرأة جميلة الشكل في فرائها التي كان يصعب تفريقها عن لون بشرتها البضّة السمراء .
فجلست وقالت بصوت أجش يمازجه الحنان ، كأنه خليط من صوت الرجل وزقزقة العصفور :
ـ قطعت الغابة هذا الصباح سيراً على القدمين بصحبة «الجنرال لاريفيير» ، وكنت قد لقيته في طريق «دي بوتان» فصحبته الى جسر «ارجنتاي» ، حيث أصرّ على شراء عقعق متعلّم فصيح من حارس الغابة ليهديه إليّ ، حتّى توعّك مزاجي وتضايقت!
ـ لكنْ ، ليت شعري ، مادعاك الى اصطحاب «الجنرال» حتّى جسر «ارجنتاي» ؟
ـ إنّ إصبع قدمه الكبير مصاب بالنقرس!
ـ إنّك تسرفين في خباثتك . أنت رعناء!

ـ وأنت يا عزيزتي أتريدينني على أن أوفر شفقتي وأدّخر خباثتي لتوظيفهما بالربا في صفقة أخرى مهمّة ؟

وهنا دخل «الجنرال لاريفيير» متثاقلاً ، يتقدّمه صوت تنفّسه المرتفع ، فقبّل يدي السيّدتين ، ثمّ جلس بينهما ، وعليه سيماء النشاط والارتياح ، يغمز بعينه ، ويضحك حتّى تبدو نواجذه ، وقال :

ـ كيف حال الكونت «مارتن بليم» ؟ ألا يزال منهمكاً في عمله . مشغولاً كدأبه ؟

فقالت «تريز» إنها تظنّه الآن في البرلمان ، وتظنّه فوق ذلك يخطب!...

فسألتها الأميرة «سينافين» عمّا أخرها عن الحضور ليلة أمس الى دار «مدام ملان» حيث مُثّلت مهزلة .

فقالت لها الكونتس : «وهل أجادوا تمثيلها ؟»

فأجابت :

نعم ، أو بالحري لا أدري! فقد كنت جالسة في الثّوي الصغير الأخضر لون فراشه ، تحت صورة «دوق أورليان» فدخل مسيو «لومنيل» وقدّم لي خدمة من تلك الخدم التي لاتنسى ، إذ أنقذني من مسيو «جران»...

ولمّا كان الجنرال «لاريفيير» من قرّاء «دليل الأسماء» ويختزن في رأسه الكبير أنواع المعارف المفيدة ، أرهف سمعه عند سماع هذا الاسم ، وسألها :

ـ «جران» ؟ أليس هو أحد رجال الوزارة التي كانت في دست الحكم حين كان الأمير قرينك في المنفى ؟

ـ هو بعينه ، وقد رقته كثيراً فجعل يبثّني لواعج شوقه ، ويحدّثني عن حاجات قلبه ، ويحدّق النظر اليّ بحنان فاجع ، وينظر من وقت لآخر الى صورة «دوق أورليان» ويتنهّد...

فقلت له : «أنت تخلط يا مسيو «لومنيل» وأخذني الى المقصف ، وهنّأني بجيادي ، وقال لي إنه ليس في «الغابة» هذا الشتاء أكرم منها

أصلاً ، وحدّثني عن الذئاب وجرائها ، فكان حديثه منعشاً طليّاً .

فقال الجنرال ، وكان لايحبّ الشبّان ، إنه قابل «لومنيل» مساءً في الغابة وهو يعدو بفرسه خطف البرق ، وقال أيضاً إن الفرسان القدماء هم وحدهم الذين يحافظون على تقاليد الرّكْبَة الحسنة . وإنّ شبّان اليوم يخطئون بركوبهم ركبة الأجراء في حلبة السباق...

فقاطعته الأميرة «سنيافين» بقولها :

ـ انظر ياجنرال ماأبدع «الكونتس مارتن»! إنها فتّانة على الدوام وإن كانت الآن أشد فتنة منها من قبل ، وماذلك إلاّ لأنّها متضجّرة ، وليس مثل الضجر يبلغها غاية الفتنة وأمد الجمال ، وقد أثقلنا عليها وضايقناها مذ جئناها ، انظر الى جبينها القاتم ونظرتها المبهمة وثغرها الحزين . إنها ضحية!

ثمّ قفزت فطبعت على خد «تريز» قبلة حارة ، وعدت تاركة الجنرال ذاهلاً .

فرجت منه «الكونتس مارتن» ألا يكترث لتلك المجنونة ، فهدأ وسألها :

ـ وكيف حال شعرائك يا سيّدتي ؟

وكان الجنرال يتحرّج أن يغفر للكونتس تعلقها بالكتّاب الذين من غير طبقتها... فعاد يقول :

ـ نعم . شعراؤك! ماذا جرى لذلك «المسيو شولت» الذي يأتي لزيارتك لابساً كوفية حمراء ؟!

ـ إنّ شعرائي ينسونني ويتخلّون عنّي ، وليس ثمّة إنسان حقيق بأن يعتمدُ عليه أو يركن اليه ، وما الحياة الا سلسلة خيانات متّصلة الحلقات... وليس غير تلك المسكينة «مس بل» التي لاتنساني ، فقد كتبت اليّ من «فلورنسا» وأرسلت اليّ ديوانها .

ـ «مس بل» ؟ أليست هي تلك الشابة التي تشبه بشعرها المجعّد الأشقر الكلب البيتي الصغير ؟

ثمّ قدّر في ذهنه تقديرات انتهى منها الى القول بأنها الآن لابد أن تكون في سن الثلاثين .

ثمّ دخلت القاعة سيدة عجوز بيضاء الشعر حسنة البزّة محتشمة الهيئة ، يتبعها رجل نشيط الحركة حديد البصر ، وهما « مدام مارميه » والمسيو « بول فانس » .

ثمّ ظهر رجل صليب القامة كثير التكلّف واضع عوينة واحدة من البلّور (مونوكل) على إحدى عينيه ، وهو المسيو « دانيل سالمون » حُجّةُ الأزياء .

فانسحب الجنرال .

وأخذوا في الكلام عن رواية الأسبوع . وكانت « مدام مارميه » قد تعشّت مع مؤلّفها غير مرّة فوجدت منه فتى جذّاباً . وقال « بول فانس » إنه وجد الكتاب مملاً .

فتنهّدت « الكونتس مارتن » قائلة :

ـ إن الكتب كلّها مملّة! لكنّ الرجال أشد من الكتب إملالاً ، وأكثر مطالب وأطماعاً!

ثمّ التفتت الى « مسيو دانيل سالمون » وسألته رأيه في بعض أوانيها الخزفية ، قائلة :

ـ إنها من « سان كلو » . فقل لي هل تروقك ؟ وأنت أيضاً يا « مسيو فانس » يجب أن تبدي رأيك ، إلا إذا كنت تزدري مثل هذه التوافه .

فحدّق المسيو « سالمون » الى « بول فانس » من وراء عويناته بغطرسة عابسة . ودار « فانس » ببصره حول الثّوي وقال :

ـ عندك ياسيّدتي أشياء جميلة . وهذا في نفسه لايعد ذا شأن . ولكن ليس عندك إلا كل ماهو جميل ولائق بك .

فلم تخف امتنانها لسماع هذا القول ، وكانت تعد « بول فانس » الرجل الوحيد الذكي الفؤاد من بين أصدقائها الذين يختلفون اليها ، وقد عرفت قدره حق المعرفة قبلما تشهره كتبه ويذيع صيته ، وكان ضعف بنيته

واضمحلال صحّته واكتئابه ووفرة أعماله قد باعدت بينه وبين الناس ، وقليلاً ماكان هذا الرجل الصفراوي المزاج الضئيل الجسم لطيفاً مستحبّاً ، ومع ذلك قد اجتذبها واستمالها وكانت تعجب بتهكّمه البليغ وكبريائه القاسي وتقدّر مواهبه التي أنضجتها الوحدة حق قدرها ، وكان إعجابها به صحيحاً لأنها كانت تراه كاتباً قديراً بديعاً كل مايكتبه من الفنون والأخلاق .

وحفل الثّوي شيئاً فشيئاً بجماعة متخيّرة من السيدات والسادة . وكانت إذ ذاك دائرة المقاعد الكبيرة قد احتوت «مدام دي فرسون» التي أثّرت عنها حكايات جدّ مرعبة ، وهي التي سلخت عشرين سنة في فضائح لم يقض عليها بعد ، ولاتزال على ذلك وعيناها عينا طفل ووجنتاها وجنتا عذراء...

وكان فيمن هناك «مدام مورلين» العجوز ، الخفيفة الممراح ، الموزّعة الفكر ، الولهى ، تجيء بنكات بائخة في صيحات صارخة ، بينا تهزّ شكلها الهائل العجب كأنها سابحة محوطة بنطق النجاة!...

وكذلك كان فيمن هناك «مدام رايمون» زوج أحد أعضاء الأكاديمية ، ومدام «جران» زوج أحد الوزراء السابقين ، وثلاث نساء أخريات . وكنت ترى بينهم مسيو «برتييه ديزل» محرّر جريدة الديبا Le Journal des Debats وعضو مجلس النوّاب ، واقفاً يصلّي ، ويمرّ يده على عارضيه الأبيضين ، منثنياً متخايلاً ، في حين صاحت به «مدام مورلين» قائلة :

ـ إنّ مقالك في «مذهب المعدنين» درّة ، إنه جوهرة! أمّا الخاتمة ، بخاصة ، فكانت فتحاً وإلهاماً!

ووقف في آخر القاعة بضعة شبّان من أعضاء الأندية يتشدّقون فيما بينهم بمثل قولهم :

ـ ما الذي فعله حتّى نال جائزة الصيد التي وضعها الأمير ؟...

ـ لم يفعل شيئاً وفعلت امرأته كل شيء!

وكان لهؤلاء الشبّان في الحياة فلسفتهم . وكان منهم من لايثق بالوعود فقال :

ـ في الناس صنف لا أطمئن اليه ولا أرجو خيراً على يديه ، وهو من تجد قلبه طوع يده وفمه . يسألك : « أأنت مرشح للانتخاب ؟ فأعدك أن أصوت لك » وعندما يجيء الانتخاب تنقلب الكرة البيضاء سوداء ويصوت لغيرك ، خديعة وخبّا! وما الحياة إلا شيئاً غثّاً إذا ماأمعنت النظر فيها .

فقال ثالثهم :

ـ لا تمعن النظر فيها إذاً!

ودخل في غمارهم « دانيل سالمون » فجعل يهمس في آذانهم بصوته الطاهر... بأسرار الخدور ، وبعد إفشاء كل سرّ غريب مفترى على « مدام رايمون » زوج عضو الاكاديمي ، أو مدام « برتييه ديزل » أو « الأميرة سنيافين » ، يضيف بلا مبالاة قوله :

ـ كلّ الناس يعرفون ذلك!

ثمّ أخذت السهرة تنفض والزائرون ينصرفون ، حتّى لم يبق غير « مدام مارييه » و « وبول فانس » ، فذهب الأخير الى « الكونتس مارتن » ربّة البيت فسألها :

ـ متى تريدين أن أقدّم اليك « دي شارتر » ؟

وكانت هذه هي المرة الثانية التي سألها في هذا ، ولم تكن مولعة برؤية سحن جديدة فقالت ، بلا أدنى اكتراث :

ـ صاحبك المثّال ؟ متى شئت . فقد رأيت في « شان دي مارس » تماثيل من صنعه لابأس بها . لكنه قليل الانتاج . إنه من الهواة ، أليس كذلك ؟

ـ إنه رقيق المزاج . وليس في حاجة لأن يتكسّب بفنّه ، وهو يدلل صوره ويصنع تماثيله بأناة العاشق لها المغرم بها ، لكن ثقي يا سيّدتي أنه يدرك ويشعر ، ولولا أنه يعيش وحده لصار أستاذاً ، وقد عرفته منذ كان طفلاً . يحسبه الناس قليل الاكتراث دائم الكآبة ، والواقع أنه خجول سريع التأثر ، والذي ينقصه وسيظل ينقصه ليصل الى أعلى درجات فنّه هو صفاء

العقل وخلو البال ، فهو دائماً قلق متلهّف مضطرب ، وبذلك يتلف أبدع تصوراته وأفتن تأثيراته ، وعندي أنه يصلح للفلسفة والشعر أكثر مما يصلح لصنع التماثيل والحفر ، وهو غزير المعرفة ، وستدهشك خصوبة ذهنه وغزارة علمه .

فأقرّت ذلك «مدام مارميه» الخيّرة . ذلك أنها تُرضي الناس بظهورها مظهر الراضية عنهم ، تراها كثيراً ماتسمع وقليلاً ماتتكلّم . ولأنها مجاملة ، تجعل ثمن مجاملتها التؤدة في محنتها . وسواء أكانت «الكونتس مارتن» تعجبها حقّاً أم أنها كان في مقدورها الظهور في كلّ بيت بمظهر المؤثّرة لهذا البيت ، كانت تجلس مسرورة كالجدّة ، تصلّي في ركن المصلى المصنوع على طراز «لويس السادس عشر» ، الذي كان يتناسب وجمال سيدة عجوز سمحة مثلها . ولم يكن ينقصها في مجلسها إلا كلبها الصغير... .

فسألتها الكونتس مارتن :

ــ وكيف حال «توبي» ؟ ألا تعرف «توبي» يا مسيو «فانس» ؟ إنّ له شعراً حريرياً طويلاً وأنفاً صغيراً أسود جميلاً!

وبينما كانت «مدام مارميه» تستمتع بسماع الثناءعلى كلبها «توبي» إذ دخل شيخ مورّد الخدّين ، مجعّد الشعر أشقره ، قصير النظر يكاد يكون كفيفه ، يلبس عوينات ذهبية . وكان قصير الساقين فاصطدم بالأثاث ، وحيّا المقاعد الخالية ، وجرى نحو المرايا ، وكان الرجل يدعى «مسيو شمُلْ» وهو عضو المجمّع الأثري ، وكان لغوياً عظيماً وعضواً بالمجمّع العلمي الفرنسي لأنه يعرف جميع اللغات ماعدا الفرنسية !! وكانت «الكونتس مارتن» تنزّه خاطرها بتلطّفاته وتسلّي نفسها بتغزّلاته التي كانت من الثقل كقطع الحديد القديم الصدئة التي يعرضها بائعو الفلزّات «الخُردة» .

وكان «مسيو شمل» من عشّاق الشعراء ، والنساء ، وكان فَهِماً! فتجاهلته «مدام مارييه» ، ثمّ خرجت ولم تردّ عليه تحيّته .

ولمّا أفرغ «مسيو شمل» جعبة غزله ، غشيه الحزن وصار بحيث يرثى

له ، فأخذ يردّد النواح والأنين والشكوى المرّة ، فقال أنه لم يمنح الكفاية من النعمى ، ولا زوّد الكفاف من العيش ، ولا هيئ له ولا لزوجه ولا لبناتهما الخمس المسكن اللائق بهمم على نفقة الحكومة ، وكان في بثّه ونواحه شيء من العظمة والجلال... كأنّ فيه من روح أرميا وحزقيال...!!

ولنكد الطالع ، نظر الى سطح المنضدة بعويناته الذهبية فاستكشف كتاب «فيفيان بل» فصاح بحرقة :

ـ آه! «عيسول الشقراء» ؟! أهذا الكتاب الذي تقرأينه ياسيّدتي ؟ ألا فاعلمي أن «مس فيفيان بل» قد سرقت منّي سطوراً! وزادت الطين بلّة بأن حرّفت معناها بنظمها في قصيد! وستجدينها في هذا الكتاب في الصفحة ١٠٩ :

«أيا من أحبّ لا تبك!
«فما لم يعد كائناً ، لم يكن قط .
«دع حزني الكظيم يسيل
«فقد يبكي الطيف من أجل طيف!»

أسامعة أنت يا سيّدتي ؟ أيمكن طيف الخيال أن يبكي طيفاً! نعم! هذه الكلمات مترجمة حرفيّاً عن كتابة خاصة بالجنائز كنتُ أنا أوّل من نشرها وشرحها ، وفي العام الماضي لمّا كنت أتناول طعام العشاء في منزلك وألقيت نفسي بجانب «مس بل» على المائدة استشهدت بتلك الجملة التي راقتها كثيراً ، وفي اليوم التالي ترجمت القطعة كلها الى الفرنسية إجابة لملتمسها وأرسلتها اليها ، وهاأنذا أجدها الآن مشوّهة مقطّعة الأوصال محرّفة في هذا الديوان تحت عنوان «على الطريق المقدّس!» وما الطريق إلاّ أنا!

وكرّر بمزاجه العكر المضحك :

ـ نعم ، أنا ياسيّدتي ذلك الطريق المقدّس!

وقد ساءه بخاصة أنّ الشاعرة لم تذكره في صدر تلك القطعة ، وكان يود لو يرى اسمه في رأس القصيدة ، وفي السطور ، وفي القافية! وكان يريد

على الدوام أن يرى اسمه في كل مكان ، وكان يبحث عنه دوماً في الصحف التي كانت جيوبه محشوّة بها ، لكنه لم يكن حاقداً ، ولم يحمل « للأنسة بل » أية موجدة ، فقد وافق راضياً على أنها امرأة ممتازة نابهة ، وإنها الآن أشهر شاعرة تشرّف الانجليز .

فلمّا انصرف سألت « الكونتس مارتن » « المسيوبول فانس » ، بكل بساطة ، أيعرف لماذا جابهت السيدة « مارميه » ، وهي عادة طيّبة رحيمة خيّرة ، بمثل ذلك الغضب والصمت ، المسيو « شمل » عند دخوله ؟

فبُهت وقال لها :

- إنّ النزاع بين « جوزيف شمل » و « لويس مارميه » الذي ظلّ دويه في المجتمع أمداً طويلاً قد شاع وذاع ولايزال ملء الأسماع ، ولم ينته إلا بوفاة « مارميه » بل أن زميله « شمل » الذي لايبرأ من غلّه وسخيمته قد تبعه الى مقبرة « بيرلاشيز »! ففي اليوم الذي دفن فيه « مارميه » المسكين كان البَرَدُ يتساقط مدراراً ، فابتلّت أجسامنا وتثلّجت حتّى عظامنا ، وهناك ، بجانب الحفرة ، في الضباب ، وفي العاصفة ، وفي الوحل ، تلا « شمل » وهو تحت مظلّة ، خطبة ملؤها الفرح والسخرية والشماتة . ثمّ حملها من فوره الى الجرائد في عربة من عربات الجنازة ، وحدث أن صديقاً أخرق أراها « لمدام مارميه » الطيبة القلب فسقطت مغشياً عليها ، أفيمكن ياسيّدتي أنّك لم تسمعي قط بنبأ تلك المشادّة العلمية الوحشية ؟!

وكانت اللغة « الاتروكسية » هي السبب وكان « مارميه » وقف حياته على دراستها حتّى قد لقّب بـ « مارميه الاتروسكي » ولم يكن هو ولا سواه يعلم كلمة واحدة من تلك اللغة التي عَفَت آثارها ، وكان « شمل » يقول له دائماً : « أي زميلي العزيز! أنت تعرف أنّك لاتعرف اللغة الاتروسكية ، وهذا الإدّعاء هو سبب عدّك من العلماء وأهل الذكاء! » . فاعتزم « مارميه » وقد هاجه وغاظه هذا المديح الهازىء أن يعرف شيئاً من اللغة الاتروسكية . فتلا على زملائه أعضاء المجمّع مذكّرة في : « مكانة علم الصرْف من لغة التسكانيين القدماء » .

فاستفهمت « الكونتس مارتن » عن معنى « الصرْف » فقال « بول فانس » :

ـ عفواً سيّدتي! إنّي إذا أعطيتك إيضاحات وقعت وإيّاك في حيص بيصْ وضاع منّا جوهر الموضوع ، فاقنعي بمعرفة أنّ « مارميه » المسكين قد استشهد في تلك المذكّرة بمتون لاتينية ، فجاء اقتباسه لها عكسيّاً بحتاً ، ولمّا كان « شمل » عالماً بارعاً في اللاتينية عتب على زميله الصغير (كان « مارميه » دون الخمسين من عمره) إنه يعرف الشيء الكثير جداً من الاتروسكية والقليل جداً من اللاتينية . ومنذ ذاك الحين لم يدع « شمل » « مارميه » يذوق للراحة طعماً ، وكان في كلّ إجتماع يتهكّم عليه بشراسة وتحقير وغبطة الى حد أن ضاق صدر « مارميه » بالرغم من دماثة خلقه ووفرة حلمه .

وحدث يوماً أنّ « شمل » كان صاعداً سلّم المجمّع مع « رينان » و« أوبير » فالتقى « بمارميه » فمدّ له يده ، فرفض « مارميه » مصافحته قائلاً : « أعرفك! » فأجابه « شمل » بقوله : « هل تحسبني كتابة لاتينية ؟ » .

فكانت تلك الكلمة من الأسباب التي عجّلت وفاة « مارميه » المسكين .

والآن وقد علمت السبب الذي يدعو أرملته التي تقدّس ذكراه تتميّز غيظاً لمرأى عدوّه .

فقالت « الكونتس مارتن » :

ـ يا ويحي! كيف أدعو هذين الضدّين الى الغداء معاً لأجلسهما جنباً الى جنب! ؟

فقال « بول فانس » :

ـ لم يكن هذا ياسيّدتي عملاً شائناً . لا! وإنّما كان قاسياً...

ـ قد أدهشك ياسيّدي العزيز... لكن إذا لم يكن بدّ من الإختيار ، فإنّي أوثر أن آتي عملاً شائناً على أن أقترف عملاً قاسياً!

وعندئذ دخل شاب طويل القامة ، نحيف الجسم ، أسمر اللون ، مفتول الشارب ، وحيّا « الكونتس مارتن » . فقالت :

« مسيو فانس »! لعلّك تعرف « مسيو لومنيل » ؟

أجل ، فإنهما كانا قد التقيا من قبل بدار «الكونتس» ، باستمرار ، وكانا أيضاً قد التقيا في السهرة الماضية في بيت «مدام مللان» . فقال «بول فانس» :

ـ إنّ بيت «مدام ملآن» مصدر مضايقة للإنسان .

فقال «لومنيل» :

ـ ومع ذلك فهي تستقبل فيه أعضاء الأكاديمي . نعم ، لست أبالغ في أقدارهم ، لكنّ الحاصل أنّم هم المختارون .

فابتسمت «الكونتس» وقالت :

ـ إنّا نعلم يا «مسيو لومنيل» أنّك في دار «مدام ملآن» أكثر اشتغالاً بالحسان منك بأعضاء الأكاديمي... فقد أخذت الأميرة «سنيافين» الى المقصف وحدّثتها عن ذئاب .

ـ كيف ؟ عن ذئاب ؟

ـ عن ذئاب وذئبات وجراء ، وعن غابات جرّدها الشتاء...! ومن رأينا أنّ أحاديثك هذه مع مثل تلك السيدة الفاتنة كانت أحاديث جافة جافية .

فنهض «بول فانس» قائلاً :

ـ على ذلك ، إذا أذنت لي ياسيّدتي ، أتيتك بصديقي «دي شارتر» ، فهو شديد الرغبة في التعرّف بك ، وأرجو أن يروقك ولا ينبو عنه ذوقك ، فإنّ له عقلاً ذكيّاً وفؤاداً حيّاً ، كما أن له خيالاً سامياً ورأياً ناصحاً ورأساً مليئاً بالفِكَر...

فقاطعته «الكونتس مارتن» بقولها :

ـ على رسلك! إنني لاأطلب هذا كله ، فالمطبوعون الذين هم على سجيّتهم ويبدون كحقيقتهم وكما تنبّىء عنهم ظواهرهم قلّما يضايقونني ، بل أجد فيهم سلواي أحياناً .

ولمّا انصرف «بول فانس» ، أصغى «لومنيل» الى وقع أقدامه المتضائل في الردهة ، والى صوت الباب الخارجي وهو يغلق ، ثمّ اقترب منها قائلاً :

ـ غداً ، في الساعة الثالثة ، في بيتنا ، أليس كذلك ؟

ـ أوَلا تزل تهوائي ؟

فاستعجلها الرد في وحدتهما ، فأجابته وهي تحاوره ، لكيما تعذّبه ، أن الوقت متأخر ، ولم تعد تتوقّع زوّاراً آخرين ، ولم يبق سوى زوجها الذي لايلبث أن يدخل!...

فتوسّل اليها فلم تمض في عنادها ، وتجعله يزيد في رجائها ، وقالت :

ـ أتريد ؟ إذن اليك ، غداً سأكون حرّة سحابة النهار . فانتظرني في الساعة الثالثة بشارع «سبونتيني» . وبعد ذلك... نخرج للتنزه .

فشكرها بنظرة ، وعاد فاتّخذ مجلسه قبالتها ، الى الجانب الآخر من المصطلى ، وسألها عن «دي شارتر» هذا الذي كانت تطلب أن يقدّم لها . فقالت :

ـ إنّي لم أطلب التعرّف به ، بل سُئلت أن يقدّم اليّ . وهو مثّال .

فشكا من أنها تريد دوماً رؤية وجوه جديدة وقال :

ـ مثّال! ؟ إنّ أولئك المثّالين عامة ذوو فظاظة!...

ـ أوه!إنّ ذاك قليل الصناعة ، فهومثّال أو بعض مثّال . ومع ذلك إذا كنت غير راضٍ عن استقبالي له فلن أفعل .

ـ سأكون غير راضٍ مطلقاً إذا أخذ الناس أي جزء من الوقت الذي تخصّينني به .

ـ ليس لك ياصديقي أن تشكو من منحي الناس كثيراً من وقتي ، على أنّي لم أذهب بالأمس الى بيت «مدام ملآن» .

ـ أنت على صواب في الإقلال من ذهابك اليه ماأمكن ، فليس بالبيت الذي يليق بك الاختلاف اليه .

وأفصح عمّا في نفسه قائلاً ، إنّ كل النساء اللواتي يزرنه لهنّ تاريخ معروف ، يتحدّث به ، فضلاً عمّا اشتهرت به «مدام ملآن» من أنّها دسّاسة ، وعزّز قوله ببعض الأمثلة .

وفي تلك الأثناء كانت قد وضعت يديها على ذراعي مقعدها بهيئة اضطجاع للراحة أخّاذة بالألباب ، ومالت برأسها جانباً ، وأخذت تحدّق الى النار الخامدة... وقد سلبت أفكارها ولم يبق لها منها أثر سواء في محياها الذي عليه مسحة من الكدر أو في جلستها الكليلة المتراخية... وكانت راغبة ، أكثر منها في أي وقت مضى ، في تلك الغفوة التي كانت فيها روحها ، ولبثت باقية حيناً في ذلك السكون العميق الذي زاد جمال الفن والصناعة على جاذبية جمالها الطبيعي .

فسألها فيمّ تفكّر . فأوشكت أن تتخلّص من سحر النار والرماد الكئيب ، وقالت :

ـ ستذهب غداً إذا شئت الى أحياء المدينة البعيدة ، الى تلك الأحياء الغريبة حيث نستطيع رؤية معيشة الفقراء ، فإنّي أحب الشوارع العتيقة التي أنحى عليها الشقاء...

فوعدها أن يجيب سؤالها ويتابع ميلها ، وإن لم يخفِ أنه يراه منها ذوقاً شاذاً وخيالاً ضالاً ، وكانت هذه الجولات التي جعلته يصحبها فيها تضايقه أحياناً ، وكان يعدّها خطرة إذ يمكن أن يراهما أحد فقال :

ـ وقد نجحنا الى الآن في تجنّب كلام الناس عنّا .

فهزّت رأسها قائلة :

ـ أيخيّل اليك أنه لم يتكلّم أحد عنّا ؟ إن الناس يتكلمون سواء أكانوا يعلمون أم لايعلمون . وليس كل شيء يعرف ، ولكن كل شيء يقال .

وعادت الى أحلامها فظنّها غير قانعة ولا راضية ، ومتكدّرة من شيء تخفيه عنه ، فمال نحوها محدّقاً في عينيها الجميلتين الحالمتين اللتين كان ينعكس فيهما ضياءُ نار المصطلى . لكنّها هدأت من روعه بقولها :

لست أدري أيتكلّم الناس عنّي أم لا ، على أنه ماذا يعنيني من ذلك ؟ لاشيء!

فغادرها وكان ذاهباً لتناول طعام العشاء في النادي حيث كان ينتظره صديق له مارّ بباريس .

فأتبعته نظرة عطف هادئة ثمّ عادت تطالع الرماد...

وذكرت أيام طفولتها ، والقصر الذي اعتادت أن تمضي فيه فصول الصيف الطويلة الحزينة ، والغابات المونقة ، والحديقة النديّة المظلمة ، والبركة الخضرة الراكدة ، والتماثيل المرمرية تحت أشجار الكستناء ، والمقعد الذي بكت فيه وتمنّت الموت ، والى هذا اليوم كانت تجهل أسباب ذلك القنوط البالغ عندما كانت يقظة مخيلتهافي أشدّها وكان التحوّل الذي يدب في جسمها كلاهما يجد له ضرباً من التهيّج هو مزيج من المخاوف والأهواء .

وفي طفولتها ، جعلتها الحياة ترغب وترهب ، فقد عرفت الآن أن الحياة لاتستحق مثل هذا الأمل أو القلق ، وإنها ليست سوى شيء عادي ، وكان ينبغي لها أن تتوقّع ذلك ، فكيف لم تدركه من قبل ؟

ومضت في حلمها تقول لنفسها :

ـ كانت « ماما » نصب عينيّ ، سيدة موفورة الحظ من الصلاح ، ضئيلة من السعادة . فأمّلت نصيباً من العيش يختلف كل الاختلاف عن نصيبها . فلم هذا ؟ لقد كنت أتذوّق طعم الحياة تَفِهاً في تلك البيئة ، فنظرت مستقبلاً فيه من مرارة الحياة وحلاوتها . فتُرى لم هذا ؟ ما الذي كنت أريده وأتوقّعه ؟ أفلم يكن لي من كآبة كل شيء نذير كاف ؟ ؟

●

ولدتُ غنيّة ، محوطة بأبّهة من الثروة الطريفة ، وكانت ابنة ذلك الرجل « مونتسوي » الذي لم يكن بادئاً إلا كاتباً في مصرف باريسي ، فأسّس بيتين كبيرين من بيوتات المال وأدارهما ، وقد استطاع أن يجتاز بهما أزمات شداداً ، وتعامل مع الحكومة على قدم المساواة وذلك بما أوتي من حذاقة ولباقة ومتانة خلق وبعد نظر .

فنمت فتاتنا وترعرعت في قصر « جوانفيل » التاريخي الذي اشتراه

أبوها ورمّمه وفرشه بأفخر الأثاث ، فصار في ستّ سنوات بحديقته الغنّاء وبحيراته الجميلة يضارع «فولوفيكونت» وجاهةً ، وتمتّع «مونتسوي» بكل مايمكن أن تمنحه الحياة من لذّات ، ولمّا كان بفطرته ملحداً وجبّاراً فقد اعتزم أن يغتنم كل ماتطوله يده من لذاذة ونعيم ، فجمع في قاعات استقبال قصر «جوانفيل» وساحاته صور كبار الفنّانين ونصب المرمر الثمين ، وكان وهو في سنّ الخمسين يؤدّي لأجمل الممثلات والغانيات نفقات زينتهن وترفهن ، واستمتع بكل مافي المجتمع من متع بكل بهيمية طبيعية ، وحدّة ذكائه وفطنته ، في حين كانت «مدام مونتسوي» زوجه المسكينة قابعة في «جوانفيل» عليلة ذليلة ، تبدو بحرصها واقتصادها حقيرة فقيرة . وهناك ، في ذات مساء ، على سرير صغير من حديد منزوٍ عند قوائم سرير العرس ، ماتت من الحزن والضعف ، ولم تكن تحبّ في الدنيا سوى اثنين : زوجها وثويّها المفروش بالحرير الأحمر المشجّر في بيت شارع موبيج!...

فلم تكن ثمّة ألفةأصلاً بين الأم وابنتها إذ كانت الأم تشعر بالطبع أنّ «تريز» بعيدة كل البعد عنها في غرائزها ونزعاتها . لأنّ البنت كانت موفورة الحجى والنهي ، ذات جنان ثابت وإرادة قوية ، وكان يجري في عروق «تريز» هذه دم «مونتسوي» الحار القوي . وكانت الى ذلك طيبة القلب لطيفة الطبع ، وكان «لتيريز» ما لأبيها من حرارة النفس ونشاط الجسم اللذين سبّبا للأم أمرَّ الألم ، وكان يهون عليها أن تغفرهما لزوجها أكثر مما يهون عليها غفرانهما لابنتها ، بيد أنّ «مونتسوي» عرف قدر ابنته ورأى نفسه فيها ، فأحبّها ، وكانت له ساعات أنسه وانشراحه كأهل المسرّات أجمعين ، فمع أنه يقضي معظم أوقاته خارج البيت قد تعوّد أن يتناول الغداء معها كل يوم تقريباً ، فكان يأخذها أحياناً للتنزّه . وكان خبيراً بالزي والحلي فيلحظ بنظرة منه مافي زينة ابنته من غلطات سببها ذوق أمها السقيم ، فيصلحه . وكان يعلّم بنيّته «تريز» ويرشدها ، وكان خشن الطبع لكنه حلو الفكاهة ، فسرّها ونال حبّها واجتذبها ، وكان ـ حتّى معها وفي معاملتها ـ

مدفوعاً بغريزته وهي الكلف بالغلبة والظفر ، وإذ كان يحب أن يربح دوماً فقد ربح حتى ابنته ، فاغتصبها من أمّها ، فراحت به معجبة مولعة .

وعادت ، وهي سابحة في أفق من أحلامها وأخيلتها ، فرأته في أعماق الماضي مسرّة طفولتها الوحيدة . وكانت لاتزال مقتنعة بأنه ليس في الدنيا من يضارع أباها لطفاً .

ولمّا دخلت معترك الحياة لم تلبث أن يئست من العثور على مثال تلك الصفات الطبيعية ، وذلك الكمال في قوى الجسم والفكر ، وظلّ هذا اليأس ملازمها عندما أتت لاختيار قرينها ، وربّما بعد ذلك أيضاً حين آن لها أن تختار في خفية عن الناس رفيقاً لها...

وفي الحق أنها لم تختر زوجاً أصلاً ، بل كانت لاتكاد تعرفه ، إذ تركت قرانها يتم بوساطة أبيها ، ولمّا كان الرجل أرمل مرتبكاً مثقلاً بعبء من واجبه حيال ابنته في وسط الحياة المضطربة ذات المشاغل الكثيرة ، لذلك أراد أن يتصرّف في الأمر بسرعة وإتقان كما هو شأنه ، فلم يفكّر إلا في المظاهر الإجتماعية ، وقدّر قيمة الثمانين عاماً من النبل الملكي التي قدّمها «الكونت مارتن» والإرث المجيد الذي صار الى هذا الكونت من أسرة كان من أفرادها أعضاء في حكومة يوليو والامبراطورية الحرّة .

أمّا فكرة أن تجد ابنته الحبّ في الزواج فلم تكن تخطر له على بال . بل منّى نفسه بأنها ستجد في الزواج غنيتها من ذلك الهوى بالوجاهة الذي كان يدّعيه لها ، كما تجد هناء الغنى والظهور ، فترضي تلك الأبّهة العامة القوية وذلك الكبرياء الشائع الخسس والتحكّم المادّي ـ وذلك في نظره جوهر الحياة .

وبغضّ النظر عن هذا كله ، لم تكن له آراء صريحة عن سعادة المرأة الفاضلة في المجتمع ، لكنه كان واثقاً كل الثقة من أنّ ابنته ستبقى من فضليّات النساء . وتلك مسألة يقين فطري فيه لم يحاول قط أن يثيرها .

ولمّا تأمّلت «تريز» في تلك الثقة الحمقاء ، والثقة الطبيعية أيضاً ، التي كانت على النقيض من تجاريب أبيها الشخصية وآرائه في النساء افترّ ثغرها

عن بسمة تهكّم حزينة ، وزادها اعجاباً بأبيها أنه من سعة الحكمة بحيث لا يقع منه ما تضيق به ذرعاً .

ومع هذا كلّه ، لم يزوجها زواجاً دون مستوى المزاوجات في طبقة الفرّاغ . فقد كان زوجها كأي من أفراد تلك الطبقة ، العاطل أفرادها إلا من موروث الألقاب ، ثمّ مالبث هذا الزوج أن صار محتملاً . ومن كلّ التذكارات التي أوحاها اليها الرماد الذي تطالعه على ضوء المصابيح المحجّبة ، لم يكن أشد ضآلة في مخيّلتها من تذكار حياتهما الزوجية المشتركة التي كانت بعيدة عن نظائرها في المجتمع .

فرأت في الرماد بعد حوادثها العرضية المتباعدة التي تجلّت لها تجلّياً مؤلماً ، كما رأت بعض صورها السخيفة ذات التأثير الغامض المضايق ، على أن عهدها بها لم يطل فسرعان مامضى ولم يترك أثراً ما...

والآن ، وقد مضت ستّ سنوات ، لم تكد تذكر كيف استردّت حرّيتها . وكان فوزها سهلاً سريعاً على ذلك الزوج البارد السقيم الأناني المؤدّب... على ذلك الرجل المجتهد الطموح الخامل الذي عاد من انهماكه في الأشغال والسياسة نحيل البدن يابسه أصفر الوجه شاحبه .

ولم يكن حبّه النساء الاتظاهراً ومباهاة ، فلم يحبّ زوجته قط . وكان انفصالهما تامّاً صريحاً ، ذاك الانفصال الذي جعل كلاً منهما غريباً عن صاحبه ، وجعلهما راضيين عن خلاصهما المتبادل . وكادت تعده صديقاً لو لم تجده ماكراً مرائياً كثير الدهاء في الحصول على إمضائها عند حاجته الى نقود يستخدمها في أعمال قائمة على حب الظهور أكثر مما هي قائمة على الطمع . وفيما خلا ذلك لم يكن للرجل الذي يؤاكلها ويسافر معها ويتحدّث كل يوم اليها أي نصيب أو شأن في حياتها .

وكانت مستغرقة في أفكارها ، منقبضة في مجلسها ، مسندة خدّها الى يدها ، وهي أمام النار الخامدة ، كراغبة في استقصاء أمر ، أو مستعلمة تستنبئ عرّافة ساحرة .

وبينا كانت تعرض تلك السنين الموحشة ، سني الوحدة ، رأت وجه « المركيز دي ريو » وبدا لها بوضوح ودقة أدهشاها ، وكان أبوها قد قدّمه اليها ذات يوم فخوراً بهذا التعرّف ، فرأت في المركيز رجلاً طويل القامة فاتن المحيا ، تزيّنه انتصارات خاصة وأمجاد عامة أحرزها في مدى ثلاثين عاماً ، فكلّل النجاح هامته ، وجعلته حوادثه قبلة الأنظار وعقلة الإبصار ، وكان قد أغوى ثلاث ذرّيات من النساء طبع على قلب كلّ من أحبها منهن ذكرى لاتمحى! ومدّ حبل شبابه الى ماوراء الحد العادي ماأوتيه من لطف رجولي وملاحة مصفّاة وحسن قبول . وقد ميّز بخاصة « الكونتس مارتن » وسرّها تقدير هذا الخبير لها ، والى هذه اللحظة ماتزال ذكرى ذلك التقدير تبهجها ، وكانت له قدرة عجيبة على التحدّث ، ووجدت فيه « تريز » ملهاة وسلوى ، ولم تكتمه ذلك . فآلى على نفسه منذ ذلك الحين ، وهو البطل الطائش المتهوّر ، أن يجعل مسك ختام حياته البهيجة حظوته بتلك المرأة الشابة التي ظفرت أكثر من أية امرأة أخرى بإعجابه ، والتي مالت اليه ميلاً واضح الدلالة . فلكي يوقعها في شرك الغواية نصب لها كل فخاخ الدهاء والخديعة ، بيد أنها أفلتت منها بغير عناء .

وبعد عامين ، أصبحت خليلة « روبير لومنيل » الذي كان قد أسرّ بكل مافي شبابه من حرارة وكل مافي قلبه من بساطة على احرازها . فقالت لنفسها : « لقد منحته نفسي لأنه منحني قلبه » . وكان ذلك حقاً ، وكان كذلك حقاً أن ميلاً طبعياً قوياً خفياً قد حرّضها ، فأطاعت قوى طبيعتها المبهمة . فتقبّلت حبّه اعتقاداً منها أنه عاطفة صادقة مستمدّة من وحي الاخلاص الذي كانت تنشده دواماً . واستسلمت وسلّمت حالما رأت أنه قد هام بها الى حد أن شغفته حبّاً . ووهبت نفسها بسرعة وسهولة ، فزعم أنها وهبتها بطيش وخفّة ، وكان مخطئاً . وشعرت « تريز » بالضعف يشملها والكدر يغمرها أمام فعلتها التي يتعذّر إصلاحها ، كما شعرت بذلك الخزي الذي يلحق بمن يفاجأ بشيء يجب إخفاؤه ، وكان مايتبادل أمامها من همس عن النساء المعشوقات يطنّ في اذنيها الملتهبتين طنيناً... لكنّها ، في كبرياء

وصدق شعور وسلامة ذوق ، كانت حريصة على إخفاء قيمة النعمة التي أنعمت بها ، وعلى ألا تقول شيئاً يحتمل أن يدفع بحبيبها الى أبعد مما تحتمله مشاعره ، فلم يشتبه قط في ذلك الألم الأدبي الذي على ذلك لم يلابس نفسها إلا بضعة أيّام أعقبتها سكينة تامة ، وبعد مضي أعوام ثلاثة ، استصوبت تصرّفها وعدّت سلوكها طبيعياً بريئاً لاغبار عليه... ولم تشعر بأي أسف إذ كانت لم تسئ الى أحد ما ، فكانت مغتبطة راضية ، وكانت تلك العلاقة لاتزال نعمة حياتها الكبرى وصفقتها الرابحة ، أحبّت وكأنها محبوبة ، وفي الحق أنها لم تشعر قط بنشوة الوجد التي حلمت بها ، ولكن هل شعر بها أحد يوماً من الأيّام ؟!

وكانت خليلة شاب طيّب القلب له عند النساء حظوة وهو معروف في المجتمع محبوب من الناس الذين يعدّونه متكبّراً أنوفاً ، وقد أحبها فأخلص في حبّها ، وكانت اللذة التي تمنحه إيّاها ، والغبطة بأن تكون جميلة في عينه ، هما الرابطتان اللتان ربطتاهما به... وإذا لم يكن قد جعل حياتها دائمة اللذة فائقتها فقد جعلها محتملة جداً ، مقبولة بل جعلها مستطابة ، وكان مالم تحرزه في وحدتها برغم تحذير الهواجس المبهمة وتنبيه الكآبات التي لاسبب لها هو طبيعتها الداخلية ، مزاجها ، ميلها الحقيقي ، فكشف لها عنه ، فعرفت بمعرفته نفسها ، فأنشأ لها ذلك دهشاً تمازجه المسرّة ، ولم تكن عواطفهما المتبادلة صادرة عن العقل أو القلب ، وإنّما كانت تشعر نحوه بميل محدود عادي ، وفي تلك الآونة نفسها شعرت بارتياح لما عنّ لها من أنها ستلقاه في الغداة بذلك المسكين الصغير ، مسكن شارع « سبونتيني » حيث تلقّاه منذ ثلاث سنين . فإذا بها تحسّ في رأسها وعطفيها هزّة عنيفة لم يكن ينتظر صدورها من حسناء غيداء مثلها ، وكان ذلك منها وهي منفردة في زاوية المصطلى ، أمام النار الخامدة ، إذ ناجت نفسها بقولها :

«هو ذا! إنّ ما تظمأ إليه نفسي إنّما هو الحب! » .

٢

كان النهار قد ولّى وذهب حينما خرجا من ذلك المسكن الصغير بشارع «بسونتيني» فاستوقف «روبير لومنيل» عربة مقفلة كانت مارّة بهما ، ونظر بعين القلق الى السائق وحصانه ، ثمّ استقل وصحبته العربة ، والتصق كل منهما بالآخر ، بينما كانت العربة تشقّ بهما عباب الظلال التي تقطعها الأنوار المفاجئة من المدينة ، ولم يكن يعلق بنفسيهما سوى تأثيرات حلوة أخذت الآن تمحى بسرعة الأضواء التي كانت تسطع على بلّور نوافذ العربة المغطّى بالبخار . وكان كل مافي الخارج يبدو لهما مضطرباً هارباً . وكانا يشعران بالراحة العذبة المستطابة .

ووقفت العربة بقرب «بونت نيف» على رصيف «أوجستان» . فنزلا . وقد أنعشت برودة جافة جو شهر يناير المعتّم . فجعلت «تريز» تستنشق بفرح ، من وراء نقابها الشفّاف ، نفحات الريح التي عبرت النهر وجرفت الى الأرض الصلبة العشيرّ الذي هو كالملح حدة طعم ونقاء لون . ولقد لذّها أن تسير طليقة بين المشاهد الغريبة . وكانت تحب أن تحدّق في الأصقاع الحجرية التي يغشاها ضوء الجوّ المكفهرّ ، وتسير بخفّة وثبات على مدى رصيف النهر حيث نشرت الأشجار على وجه الأفق نسيج أغصانها الأسود الرقيق الذي صبغه دخّان المدينة بالحمرة ، كما كانت تحب أن تستند الى السور ثمّ تشرف على خور نهر السين الضيّق وهو يطوي مياهه الكدرة ،

وتمتص كآبة النهر بين ضفّتيه المنخفضتين المجرّدتين من أشجار الصفصاف والزان .

وكانت الكواكب قد أخذت إذ ذاك تتألّق في قبّة السماء ، فقالت :

- يقولون إنها تبدو كأنّما الرياح على وشك أن تطفئها!

فقال إنها تستطيع ببهاء ، فلا يرى في ذلك مايؤذّن بهطول المطر ، خلافاً لما يزعمه الفلاحون ، وعلى الضدّ من ذلك فقد لاحظ في تسع مرّات من عشر أنّ تلألؤ النجوم بشرى بين يدي جو جميل .

وحين اقتربنا من «بتي بون» وجدت الى يمينها محال بائعي الحديد العتيق (الخردة) . تضيئها مصابيح يتصاعد من ذبالاتها الدخّان . فخفّت اليها تحدّق في تراب المعروضات وصدئها وقد تنبّه فيها ميلها الفطري الى الاستطلاع ، ودارت حول زاوية الطريق وتقدّمت الى محل منها مائل السقف معلّق على روافده القوية خرق قاتمة اللون ووراء زجاج النوافذ القذر كانت ترى على ضوء شمعة أوان وأوعية من خزف ، وصفارة ، وإكليل عروس ، وغير ذلك .

فلم يفهم معنى لتلذّذها بالنظر الى تلك الأشياء وحذّرها بقوله :

- ستغشاك الهوام والديدان ، فماذا عسى أن يلذّك هنا ؟

فأجابته :

- يلذّني كلّ شيء! إنّي أفكّر في العروس المسكينة التي هناك إكليلها ، فيخيّل اليّ كأنّ مأدبة العرس كانت في «بورت مايّو» وإنه كان يسير في موكبها أحد حرّاس الجمهورية الذين يكادون يوجدون دوماً في الأفراح التي يراها الانسان يوم السبت في الغابة ، أفلا تعجب ياصديقي بتلك الخلائق الشقيّة المحقّرة التي تندمج بدورها في جلال القدم! ؟

وعثرت بين الفناجين المشقّقة على مدية صغيرة ذات يد من عاج منقوش على شكل امرأة طويلة نحيلة معقوصة الشعر فاشترتها بثمن بخس ، وكان أخصّ ماأعجبها من هذه المدية أن عندها «الشوكة» التي تماثلها ،

فاعترف لومنيل أنه لايفهم لجمع التحف معنى بالرغم من أنّ عمته «السيدة ديلانوا» كانت خبيرة بها وكانت موضع أحاديث بائعي العاديات بمدينة «كان» . وقد رمّت وأسّست قصرها على الطراز القديم . وكان أخوها قد جمع فيها كتباً نادرة فأرادت العمّة «ديلانوا» أن ترتّبها ، بيد أنّها وجدت بعضها زهيد القيمة وفيه صور مستهجنة فأحرقتها .

فقالت «تريز» لابدّ إذاً من أن تكون عمّتك هذه مغفّلة!

وكانت قد سئمت منذ بعيد حكايته عن «مدام ديلانوا» عمّته تلك . وكانت لصاحبها أمّ وأخوات وعمّات وأسرة كبيرة تقطن الريف تغتاظ منها وإن كانت لاتعرفها ، وتعوّد هو أن يتحدّث عن أسرته هذه وكان ذلك ممّا يضجرها ويكدّرها ، وكاد ينفد صبرها من تعدّد زياراته لأسرته التي كان يرجع من عندها ـ وكان كما خيّل إليها ـ ذا رائحة عفنة وأفكار ضيّقة ومشاعر تجرحها ، وكان من جهته يدهش بسذاجة ويتألّم من تلك الكراهية .

فلزم الصمت وإذا به يرى حانة يشتعل زجاج نوافذها من خلال قضبانها ، فتذكّر الشاعر «شولت» الذي يعدّ من أهل الكاس والطاس . فسأل «تريز» بشيء من الموجدة ألا تزال تلقى «شولت» هذا الذي كان من عادته أن يزورها وهو ملتفّ بمعطفه «ذي الحرملة وعلى أذنيه كوفته الحمراء»! ؟

فأثار غضبها كلامه عن الشاعر على طريقة الجنرال «لايفيير» ولم تعترف له بأنّها لم تره من الخريف ، فقد أهملها غير مبالٍ شأن الرجل الكثير الأعمال المتقلّب الأهواء الذي ليس من بيئتها . فقالت : إنه فطن غريب الطباع ، مبتكرٌ حلو الفكاهة ، وتالله إنه ليعجبني! فلمّا لامها على أن يكون لها مثل هذا الذوق الشاذ ، ردّت عليه محتدّة قائلة :

ليس لي ذوق وإنّما لي أذواق! ولست تلومها أو تذمّها كلّها... على ماأعتقد!... فقال ، إنه ليس ثمة ملامة أو مذمّة . وكل ماهنالك أنه يخشى أن

تسيء الى نفسها باستقبالها في دارها نورياً في الخمسين من عمره ليست له منزلة في أي بيت كريم . فصاحت عجباً :

ـ من تعني ؟ أليست «لشولت» مكانة في أي بيت كريم ؟ فأنت إذن تجهل أنه يمضي من كل عام شهراً في ضيافة المركيزة «ديريو» ... بلى! المركيزة «ديريو» الكاثوليكية الملكية ، أو كما تدعو نفسها «العجوز العضو في حزب الملك»!

أمّا و«شولت» يهمّك فاسمع آخر أنبائه . وسأرويها لك كما رواها لي «بولفانس» بنصّها ، فإنّ فهمي لها يزيد في هذا الشارع الذي توجد بنوافذة القمصان المنشّرة وأصص الورد المرصّصة! في ليلة ماطرة من ليالي هذا الشتاء ، دخل «شولت» حانة في شارع غاب عنّي اسمه ، وإن كان لابد أن يشبه هذا الشارع في بؤسه . فلقى فتاة شقيّة يطاردها غلمان الحانة ، فهام بهاً حبّاً لإنكسارها «وكانت تدعى ماريّا» وكانت من الفاقة بحيث لم تملك حتّى اسمها ، فقد وجدته مكتوباً على باب الغرفة التي سكنتها في سطح بيت فتسمّت به! فتأثّر «شولت» من فقرها المدقع وعارها الفاضح ، فدعاها أخته وجعل يقبّل يديها ، ومنذ ذلك الحين لم يفارقها قط ، وكان يأخذها معه حاسرة وعلى كتفيها شال ، الى قهوات «الحي اللاتيني» حيث يطالع أغنياء الطلبة المجلاّت ، ويظلّ يناجيها بأرق الأحاديث وأعذبها ، ويبكي فتبكي ، ثمّ يشربان... فإذا سكرا تشاجرا . ، وهو يهواها ويدعوها «الفضلى» ، ويقول أنها صليبه وسلامه وخلاصه ، وكانت عارية القدمين فأعطاها شيئاً من الصوف الثخين وإبرة لتحيك لنفسها جوارب ، وأصلح بنفسه حذاء البنيّة المسكينة بالمآبر الكبيرة ، وأخذ يعلّمها الشعر الذي يسهل عليها تناوله ، وكان يخشى أن يشوّه جماله الأدبي بإبعادها عن العار الذي تعيش فيه ببساطة تامة وفاقة جديرة بالإعجاب .

فهزّ «لومنيل» كتفيه قائلاً :

ـ لكنّ «شولت» هذا رجل معتوه ، وإنّها لحكايات بديعة تلك التي

يقصّها عليك ذلك المسيو «بول فانس»! نعم إنّي لست من المحافظين أو المتنسّكين ، ولكن هناك بذاءات أعافها وأشمئز منها .

وكان يسيران اعتسافاً . وهي مستغرقة في تأمّلاتها ، فقالت :

ـ أجل! إنّي أعرف الخلق والواجب . ولكن ماأصعب تعرّف ماهية الواجب! .أؤكّد لك أنني في الغالب لاأعرف أين الواجب حقّاً . فهو مثل قنفذ مربيتنا الانكليزية في «جوانفيل» .

كنّا نمضي سواد الليل في البحث عنه تحت الأثاث ، فإذا ظفرنا به كان وقت النوم قد حان!...

وكان يرى في هذا القول من الصواب أكثر مما ترى ، وطالما فكّر في ذلك على حدة ، فقال لها :

ـ ولهذا أتأسّف أحياناً على أن غادرت الجيش . إنني أعي ما تريدين أن تقولي . تريدين أن تقولي إن الإنسان ينحط في الجندية ، وهذا لاشك فيه ، ولكنه يعرف مايجب عليه عمله ، وهذا كثير في الحياة .

ثمّ طفق يحدّثها عن عمّها الجنرال «لابريش» ، وعن مجده وشرفه ، ورفاهية عيشه و . و...

فكفّت عن الإصغاء له ، وتوجّهت ببصرها الى زاوية شارع «جاولون» حيث كانت امرأة تبيع بطاطساً مقليّاً وهي معتزلة وراء لوح من الزجاج ، وقد أحيط وجهها بالظل وسطع عليه وهج النار ، وكانت تغمس مغرفتها فيما تقليه وتخرج مما تعدّه مثل الأهلة الذهبية تملأ بها قرطاساً من ورق أصفر ، على حين كانت فتاة خمرية اللون ترقبها عن كثب بانتباه ، وقد مدّت لها يدها الحمراء بقطعة من النقد . فلمّا انصرفت الفتاة حاملة قرطاسها تحرّكت شهية «تريز» وشعرت بالجوع وأصرّت على أن تتذوّق البطاطس المقلي ، فاعترض بادئاً بقوله :

ـ إنّا لا نعرف بماذا يُقلى .

لكنه التزم آخراً أن يطلب من البائعة قرطاساً ويسألها أن تذرّ عليه من

الملح شيئاً . وجعل يسير بها في الأزقّة المهملة المظلمة وهي تأكل الأهلة الصفراء رافعة نقابها ، حتّى ألفيا نفسيهما مرة ثانية على الرصيف ، ورأيا كتلة «الكتدرائية» السوداء قائمة وراء ساعد النهر الضيّق . وكان القمر عالياً فوق الكنيسة ، وقد غمر سقفها المائل بأشعّته الفضّية ، فقالت :

ـ «نوتردام»! انظر اليها! إنها ثقيلة كالفيل ، دقيقة كالدويبة! تتسلّق أشعة القمر عليها ناظرة بخباثة النسناس اليها! تلك الأشعة التي ليست كأشعة القمر الريفية بجوانفيل . وإنّ لي في جوانفيل طريقي المنبسط الممهود الذي تقع أشعة القمر على نهايته . وهي ليست هناك كل مساء . لكنها تعود بإخلاص ومودّة واستئناس ومحبة ، وقد زهت وأبدرت واحمرّت وتعسجدت . إنها جارة ريفية وسيدة من سيدات الناحية! وإنّي لأذهب للقائها متأدّبة متهيّبة شاعرة بالصداقة . لكنّي لا أريد التعرّف بهذه الأشعة القمرية الباريسية ولا مخالطتها ولا الاختلاف اليها ، فليست بالتي تليق صحبتها أو تشرّف مودّتها . تُرى... ماذا عساها رأت في كل هذا الزمن الذي كانت تحتك فيه بالسطوح وتشرف على ماتحت السقوف!...

فابتسم ابتسامة رقيقة ،وقال :

ـ آهٍ لذلك الممشى الصغير ، ممشاك الذي اعتدت السير فيه وحدك ، والذي قلت أنّك تحبّينه ، إنّي أراه الآن كما لو كنت هناك...

وكان أبوها «مونتسوي» قد دعاه الى الصيد في قصر «جوانفيل» ، فرآها إذ ذاك لأوّل مرّة فأحبّها لأوّل نظرة ، ومالبث أن تشهّاها...وكان ذلك في ذات مساء ، في طرف الغابة الصغيرة ، فقد باح لها بهواه ، فصغت اليه ساكنه صامتة ، حزينة البسمة ، حائرة النظرات...

وقد أثّرت فيه وهاجته ذكرى ذلك الممشى الصغير الذي كان من عادتها السير فيه وحدها ، في تلك الليالي ، ليالي الخريف... وأعاد الى ذهنه خيال الساعات الخلاّبة الساحرة ، ساعات النزعات الجزعة والرغبات الباكرة ، فبحث عن يدها في فراء يدها ، وضغط من تحت الفراء على رسغها الرقيق .

ثمّ التقيا وفتاة تبيع زهر البنفسج على سل مغطّى بأغصان الصنوبر الورقة ، وكأنّ هذه البنيّة أدركت أنها منهما بإزاء عاشقين ، فقدّمت اليهما أزهارها ، فاشترى طاقة وقدّمها الى «تريز» وكانت تسير متّجهة الى «الكاتدرائية» تنظر اليها وتقول في نفسها :

لعمري إنها كأسد غضنفر ، كحيوان جبّار ، كوحش رؤيا يوحنّا...

وعلى الطرف الآخر من الجسر قابلتهما بائعة زهور آخرى ، وكانت متغضّنة ملتحية شمطاء قذرة ، فتبعتها بسلّتها المليئة بالمستحية وورد «نيس» . وكانت «تريز» في تلك اللحظة ممسكة بيدها بنفسجاتها تحاول تثبيتها في خصرها ، فأجابت العجوز ببشر :

ـ شكراً لك ، حسبي ما معي!

فردّت عليها العجوز بشراسة ، وهي تتحوّل عنها قائلة :

ـ حسبك ما معك! ؟ إنّك تبدين غضة الاهاب ، نضرة الشباب! .

ففطنت «تريز» في الحال إلى مقصدها ، ومرّت بسمة خفيفة بشفتيها وعينيها ، ومضيا في ظلام ساحة «الكتدرائية» أمام التماثيل الحجرية المصفوفة في الكوى ، وعلى رؤوسها التيجان ، وفي يد كلّ منها صولجان ، فقالت :

ـ لندخل!

ولم يكن يرغب في ذلك ، إذ كان يحسّ وهو يدخل معها الكنائس ضيقاً شديداً لايعرف مأتاه ، وكان يستشعر الخوف أحياناً ، فقال إنها موصدة ، وإنما حسب ذلك وودّ لو صحّ حسبانه ، فدفعت الباب وانسلّت الى صحن الكنيسة المهول ، وكانت أخيلة الشموع تتحرك في أواخره أمام أشباح الرهبان ، وآهات الأرغن الأخيرة تذهب متماحية .

فارتجفت في ذلك السكون الموحش وقالت :

ـ إنّ كآبة الكنائس في الليل تهيّج مشاعري وتثير ثائرتي دوماً ، إنهاتشعرني روعة الفناء وجلال العدم!

فأجاب :

ـ على أننا ينبغي لنا أن نؤمن بشيء ما . فإذا لم يكن إله ، وكانت أرواحنا غير خالدة ، فلشدّ مايكون أمراً محزناً كئيباً!

فلبثت هنيهة ساكنة تحت سدول الظلام التي أرخاها القبو ، ثمّ قالت :

ـ أي صديقي المسكين! إنّا لا ندري كيف نفعل بهذه الحياة القصيرة ، أفتريد أنت حياة أخرى خالدة ؟!

« ولقد زعمت لنا معاداً ثانياً ما كان أغنانا عن الحالين![1] »

●

استقلاّ عربة الى البيت ، وبينما كانت العربة تسير بهما قال لها منشرحاً إنه قد استمتع بيوم هنئ ، ثمّ قبّلها راضياً عنها وعن نفسه! بيد أنّها لم تشاركه في بشاشته ، وكان ذلك بينهما أمراً عادياً . فكانت اللحظات الأخيرة التي يمضيانها معاً عكرة لأنها كانت تتسلّف الشعور بأنه يودّعها بكلمة مناسبة ، فكان تركه إيّاها عادة مباغتاً مبتوراً ، كأنّ كل شيء من جهته قد انقضى . وفي كل مرة يفترقان فيها كانت تشعر شعوراً مبهماً بأنه فراق لا لقاء بعده . وكانت تتألّم من ذلك سلفاً وتضيق نفساً .

فتناول يدها وقبّلها قبلات متكرّرة قصيرة ، وقال :

ـ أليس يندر وجود حبّ كحبّنا يا «تريز» ؟

ـ يندر ؟ لست أدري!... لكنّني أعتقد أنّك تحبّني .

ـ وأنت ؟

ـ أيضاً أحبّك... .

ـ وهل تثبتين على حبّي ؟

ـ من يدري!

---

(١) لأبي العلاء المعرّي غفر الله له!

ولمّا رأت أن قد أظلّت وجه صاحبها سحابة قالت :

ـ أتكون أسعد حالاً وأهنأ بالاً مع امرأة تقسم على ألاّ تحبّ مدى الحياة سواك ؟

فلبث قلقاً تجلّله الهموم . ففطنت ، وتلطّفت ، وطمأنته بقولها :

ـ تعرف ياصديقي أنني لست بالمرأة النزقة . لست بالطائشة كالأميرة « سنيامين » .

ثمّ ودّعها وودّعته . وكان قد استبقى العربة لتوصله الى شارع « رويّال » ليتغدّى في النادي ثمّ يذهب الى الملعب .

ورجعت «تريز» الى البيت راجلة ، وإذ رأت تل «تروكاديرو» قائماً متلألئاً كحلي من الماس ، ذكرت بائعة الزهر عند «بتي بونت» وقولها : « إنّك لتبدين غضة الاهاب نضرة الشباب! » فإنّ تلك الكلمات التي ألقيت في عصف الهواء وسواد الظلماء عادت الآن الى ذاكرتها ، لكنّها لم تعد مداعبة ساخرة أومباكتة فاجرة ، بل عادت قلقاً وحزناً ونذيراً...« إنّك لتبدين غضّة الاهاب نضرة الشباب! »

أجل! إنّها كانت فتية ، وكانت محبوبة... ولكنّها على ذلك كانت تشعر بسأمة وضجر ، وكانت تغشاها الهموم الطوارق!

٣

في وسط المـائدة سلّة مـلأى بالزهر ، على حـافتـهـا بين أشكال النجوم والنحل بسطت نسـور أجنحـتـهـا تحت مـقـابض من القـرون الذهبـيـة . وعلى جوانب السلة تستند هذه الجسور ـ شعار الفوز ـ أغصان الثريّات المنيرة . وهذا الوعاء الامبـراطوري الفاخر كـان قد أهداه نابليـون في عام ١٨١٢ الى الكونت «مارتن دي لين» ، جد الكونت «مارتن بليم» الحالي .

وكـان «مارتن دي لين» هذا من أعضاء الجمـعية التشـريعية فعيّن في السنة التالية عضواً في اللجنة المالية التي كانت مـهمّتها السـرّية الشاقة توافق طبيعتـه المجدّة . وقد حاز باجتـهاده وأمانتـه ، تلك الأمانة التي كـانت من التبصّر بحيث لاتكون عقبة كؤوداً ، إعجاب الامبراطور وإن كان باصله وميله من حزب الأحرار ، فظلّت المنن والنعم تتوالى عليه عامين . وفي عام ١٨١٣ كان عضواً في تلك الاكثرية البرلمانية التي أقرّت ـ بعد فوات الأوان ـ تقرير المسيو «لانييه» الذي وعظ الامبراطورية المـزعزعة وعاب عليهاماترتطم فيه من أخطاء .

وفي أوّل يناير من عام ١٨١٤ صحب زملاءه الى قصر التويلري . وهناك استقبـلهم الامبـراطور شرّ استقـبال ، وتلقّاهم بقذائف من الشتائم وهو محتد مكتئب ، فغمرهم باللعنات والإهانات بكل مافي قوّته الراهنة وسقوطه القريب الوقوع من غضب رائع .

وجعل يروح ويغدو بين وزرائه الأذلّة ، ثمّ أمسك - وكأنّما وقع ذلك منه دون تفكير - الكونت مارتن من كتفيه وهزّه وجرّه على الأرض صائحاً : «عرش ؟ ما العرش ؟ أهو أربع قطع من الخشب مكسوّة بالمخمل ؟ كلا! العرش هو رجل ، وأنا ذلكم الرجل! أردتم أن ترموني بالوحل ، فهل هذه هي اللحظة التي توجّه فيها النصائح اليّ وتساق فيها الاعتراضات عليّ بينما مائتا ألف من القوزاق يجتازون حدود البلاد ؟ إنّ صاحبكم هذا المسيو «لينيه» شخص خبيث . فالمرء يغسل ملابسه القذرة في بيته لا على رؤوس الأشهاد » .

وفيما هو يبرق ويرعد ويزبد كانت يده تعبث بالطوق الموشّى الذي يدور حول عنق نائب إيالة «الاين» .

ثمّ قال :

- إنّ الناس يعرفونني ولا يعرفونكم . فأنا مختار الأمة . ومأأنتم إلا محض مندوبين مجهولين عن بعض الايالات .

وصحب رنين مهمازيه ضوضاء صوته . فارتعد «الكونت مارتن» وأصيب بالتلعثم بقية حياته . وعبثاً حاولت حكومتا يوليو والامبراطورية الثانية تغطية صدره الخافق المضطرب بالأوسمة والنياشين . وعلى أنه رفع الى أعلى الدرجات وغمر بأسنى الهبات وألقاب الشرف من ثلاثة ملوك وامبراطور ، لبث يحس يد الكورسيكي ثقيلة الوطأة على كتفه...! ومات وهو عضو في مجلس الشيوخ على عهد نابليون الثالث تاركاً ابناً ورث عنه تلك الرعدة...

وقد تزوّج هذا الابن الآنسة «بليم» ابنة أوّل رئيس لبلاط «بورج» واحرز بزواجه بها مجداً سياسياً كان لأسرة نبغ منها ثلاثة وزراء ، وولد له منها «شارل مارتن بليم» ، الذي لم يجد صعوبة تذكر في الحصول على مقعد بمجلس النوّاب . ثمّ مالبث أن اقترن بالأنسة «تريز مونتسوي» (بطلة هذه القصة) التي كفلت لها بائنتها وسائل التقدّم في حلبة السياسة .

●

جعل الكونت «مارتن بليم» يحيّي المدعوّين على مائدته في قاعة الطعام بشيء من اللطف الحزين والأدب المكتئب ، وكان من حين الى حين يلتفت يمنة فيفضي بملاحظات تافهة الى «السيدة جران» زوج حافظ الأختام السابق ، ثمّ يلتفت يسرة الي الأميرة «سينافين» التي كانت مثقلة بالجوهر والماس مثلما هي مثقلة بالضجر وضيق الأنفاس!

وجلست قبالته «الكونتس مارتن» ، والى يمينها «الجنرال لايفيير» ، والى يسارها مسيو «شمل» عضو المجمع الأثري . وكانت تروّح ترويحاً هيّناً على كتفيها المسبوكين الناعمين الناصعين...

وعلى جانبي المائدة كان يجلس مسيو «مونتسوي» أبوها يتخايل بقوّته وزرقة عينيه وحمرة بشرته ، والمصوّر «دوفيكيه» ومسيو «دانيال سالمون» ، و «بول فانتس» ، والنائب «جرين»... ثمّ «دي شارتر» (بطل هذه القصة) وكان يتعشّى في ذلك البيت للمرة الأولى .

وبدأ الحديث سطحيّاً مقتضباً ، ولكنه جعل ينشط ويزداد حتّى صار لجباً تسلّط عليه صوت «جران» وهو يقول :

ـ كل فكرة زائغة خطرة . إن الخياليين يحسبون مكفوفي الأذى ، وهذا خطأ ، لأنهم يرتكبون شرّاً كبيراً ، فالخيالات التي هي في الظاهر أقل ضرراً هي في الواقع سيئة مؤذية تغري المرء بأن يعاف الحقيقة...

فقال بول فانتس :

ـ لكن ربّما كانت الحقيقة البادية نفسها غير جميلة!

فاحتجّ المسيو «جران» حافظ الأختام السابق بأنه رجل الاصلاحات الممكنة جميعاً ، دون أن يذكر أنه كان قد طلب في عهد الامبراطورية إلغاء الجيش النظامي ، وفي سنة ١٨٨٠ فصل الكنيسة عن الحكومة . وأعلن أنه مخلص لبرنامجه فلن يزال خادم الديموقراطية المتفاني . ويدعي أن شعاره : «النظام والترقّي» ويخيّل اليه أنه استكشفه .

فأجابه «مونتسوي» بأسلوب وخز الأبر :

- هلّم يامسيو «جران» كن مخلصاً فاعترف أنه لم يبق بعد من ضروب الإصلاح مايمكن عمله إلاّ أن يكون ذلك تغيير ألوان طوابع البريد! فالأشياء سواء أكانت جيدة أم رديئة هي كما يجب أن تكون . أجل! إنها كما يجب أن تكون! لكنها دائمة التغيير . ومنذ عام ١٨٧٠ وحالة المملكة من حيث صناعتها وماليّتها قد مرّت بأربعة أو خمسة إنقلابات لم يسبق اليها نظر الإقتصاديين ولم يفهموها بعد! فالتغييرات في المجتمع ،كما في الطبيعة ، تبدأ من الداخل .

وكان «مونتسوي» يعجب في السياسة بما قلّ ودل . وكان لشدّة تعلّقه بالحاضر وقلة اهتمامه بالمستقبل لايشعر بانزعاج من جهة الاشتراكيّين . كان يستمتع بالطبيعة والثروة في يومه من غير أن يتكلّف عناء معرفة هل تبقيان الى الأبد أم يعفو من الوجود أثرهما ويذهب خبرهما . فكان من رأيه أن يترك المرء نفسه تدفعها يد القضاء والقدر فلا يقاوم التيّار غير الأحمق ولايسبقه غير المجنون!...

لكنّ «الكونت مارتن» ، وكانت الكآبة من طبعة ، تسلّف الشعور بالحزن فأشار بكلمات مبهمة الى قرب وقوع نكبات ، فوصل حديث تطيّره الى مسامع«مسيو شمل» وأثّر فيه ، فبدأ يزمجر متأوّهاً ويظن الظنون... وزعم أن الأمم المسيحية كانت في ذاتها وبذاتها غير أهل للخلاص من الهمجية ، وأنه لولا اليهود والعرب لكانت أوربا اليوم لاتزال مغمورة في لج من التعس والجهالة والظلم والقساوة كما كانت على عهد الحروب الصليبية . وقال :

- إنه ليس في غير دفاتر التاريخ ، التي تُعطى للصغار في مدارسنا تضليلاً لعقولهم ، القول بأنّ العصور الوسطى قد مضت وانقضت . ففي الواقع أنّ المتوحّشين متوحّشون دائماً أبداً . وما كانت رسالة بني اسرائيل إلا لتهذيب الشعوب . فبنو اسرائيل هم الذين قد أدخلوا حكمة آسيا الى أوربا في القرون الوسطى ، وأرى الاشتراكية تزعجكم ، وما هي إلا شر مسيحي

كالرهبنة سواء بسواء! ثمّ الفوضى ؟ أفلا ترون أنها الجذام القديم الذي كان مصاباً به أهل «بجوا» و «فودوا» ؟! وعندي أنّ اليهود الذين هذّبوا أوربا ومدينوها من قبل ، هم وحدهم الذين يستطيعون اليوم إنقاذها من تلك الدعوة الإنجيلية الضارة المنشبة اظفارها فيها . بيد أن اليهود قد أهملوا أداء واجبهم وأصبحوا بين المسيحيين من أتباع المسيح ، فأخذ الله يعاقبهم على ذلك ويقتصّ منهم ، وأباح أن ينهبوا ويبعدوا وأخذت الحركة القائمة ضدّ الساميين تنجح في كل مكان نجاحاً مخوّفاً . وأصبح أهل ملّتي يُصطادون في روسيا كما تصاد الوحوش المفترسة . وأوصدوا الدوائر المدنية والحربية في فرنسا أبوابها في وجوههم ، ولم يعد يسمح لهم بغشيان مجتمعات الارستوقراطيين ، وإليكم مثل ابن أخي الصغير «اسحاق كوبلنتز» فقد أرغم على التخلّي عن وظيفة سياسية بعدما اجتاز امتحاناته بنجاح باهر . وحين تزور زوجتي قرينات زملائي ينشرن على عينها وهنّ متباهيات الصحف التي تطعن في أولاد سام . وهل تصدّقون لو قلت لكم أنّ وزير المعارف أبى منحي وسام «اللجيون دونير» الذي سألته إيّاه ؟ ذلكم الجحود! ذلكم الضلال! فعليكم أن تدركوا أنّ في مقاومة السامية فناء الحضارة الأوربية .

وكان في المتكلّم ، ذلك الرجل الضئيل ، حيوية ممتازة . كان عجيباً رائعاً فغمر المائدة بفيض إخلاصه وصراحته وأثّر في المدعوّين كافة . ووجدت فيه «الكونتس مارتن» محدّثاً أطربها فأقبلت تثني عليه قائلة :

- إنّك على الأقل تذب عن أهل ملّتك ، فلست يا مسيو «شمل» كاسرائيلية حسناء من صاحباتي قرأت مرة في إحدى الصحف أنها تستقبل صفوة طائفتها في دارها فراحت تشكو في مكان من أنّ تلك مسبّة أهينت بها!

- إنّي يا سيدتي على ثقة أنّك غير مطلعة على سمو الآداب اليهودية وتفوّقها على غيرها من الآداب كافة . أتعرفين مثل الخواتم الثلاثة ؟

فضاع هذا السؤال في ضجّة الحوار المختلف والأحاديث عن السياسة

الخارجية ومعارض الصور وفضائح المستظرفة والخطب العلمية المقعّرة . واتّجه الحوار الى آخر رواية ظهرت كما اتجه الى الرواية التمثيلية التي كانت على وشك الظهور . وكانت مهزلة فيها دور يمثّل نابليون .

فدار الحديث حول نابليون . وكان قد مثّل مراراً على المسرح . وجعل آخراً موضع الدرس في مؤلفات واسعة الانتشار ، إذ كان يبدو موضوعاً شاذاً يثير الفضول ،وخلقاً عادياً فلم يعد بطل الجماهير ولا المحارب الذي الّهه وطنه نصف تأليه . لقد أصبح عند الناس شخصية خلاّبة ونوعاً مسلّياً بحياته الخاصة الداخلية ، تلك الشخصية التي يعجب الفنّانون بأسلوبها ، وينجذب المغفّلون بحركاتها... .

وفي هدوء وقسوة ، لم ير في نابليون أكثر من قائد جنود مأجورة رفس العالم « فولني » في بطنه ، كما صوّره المؤرّخ « تين »!!

فأراد كل مدعو الجهر برأيه في حقيقة نابليون . فتكلّم « الكونت مارتن » كلاماً لائقاً وهو جالس قبالة ذلك الوعاء الامبراطوري الذي يزيّن المائدة بالنسور المجنّحة ، واصفاً نابليون بأنه منظّم بارع ومدير حازم ، وقدّره تقديراً عالياً باعتباره رئيساً للحكومة ألقى كلامه النور على مسائل غامضة فتبدّدت بكلامه الظلمات .

فأكّد « جران » أنه في أثناء تلك الجلسات المشهورة كان نابليون يقول إنه في حاجة الى شيء من السعوط ،ويطلب من أعضاء المجلس علبهم الذهبية المرصّعة المحلاّة بالميناء الحمراء ، فلا يرونها بعد ذلك قط! وانتهى الأمر بهم الى ألاّ يحضروا المجلس إلا بأكياس من الجلد! وهذه الحكاية أخبره بها ابن « مونييه » الكاتب السياسي أمّا ماكان يعجب « مونتسوي » في نابليون فروح النظام التي كانت فيه ، قال :

- كان يحبّ الشغل المحكم أداؤه . وهذا ذوق قل أن نجد له اليوم أثراً .

وكان المصوّر « دوفييكه » ، وأفكاره أفكار مصوّر ، شديد الحيرة

والإرتباك إذ تعذّر عليه أن يجد ملامح ذلك الوجه القوي الجميل المرسوم على المسكوكات والتماثيل النصفية ، في ذلك القالب الذي أخذوا به نابليون وهو مسجّى على فراش الموت في « سانت هيلانه » وعنده أنه مادام الوجه النابليوني ليس وجه « نابليون » ، فكذلك الروح النابليونية ليست روحه! فلعلّها كانت روح حضري طيّب القلب من الصالحين! هذا مازعمه بعضهم فاضطر أن يكون في صفّهم . وفضلاً عن ذلك « فإن دوفييكه » ـ وكان يفخر بأنه مصوّر رجال العصر ـ يعرف عن تجربة أنّ مشهوري الرجال يختلفون اختلافاً بيّناً عن فكرة الناس عنهم وتصوّرهم لهم فلاحظ المسيو « دانيال سالمون » أنّ القناع الذي ذكره « دوفيكيه » وهو القالب الذي أخذت به تقاطيع وجه الامبراطور بعد موته وأحضره الى أوربا الدكتور « انتوماركي » قد صنع أوّلاً من البرنز وعرض على الجمهور في عهد « لويس فيليب » عام ١٨٣٣ ، فأثار الدهشة والإنكار . لأنّ هذا الايطالي « انتوماركي » لم يكن أكثر من عطّار دجّال ثرثار راغب في الشهرة . فأتّهم بالضحك من الجمهور واللعب به بشعوذته .

فقالت الأميرة « سينافين » :

ـ حقيقة أنّ نابليون شهير كل الشهرة بشيئين : رفسته للعالم « فولني » في بطنه ، وسرقته علب النشوق المرصّعة . وهو ماأخبرنا به الآن المسيو « جران »!

فقالت « الكونتس مارتن » :

ـ وهل نحن موقنون أنه رفس تلك الرفسة ؟

فاستطردت الأميرة في قولها مبتهجة :

ـ إنّ كل شيء يعرف على مضي الأيام . و« نابليون » لم يفعل شيئاً ، لم يرفس « فولني » في بطنه ، ولكن كان له رأس أبله!!

فشعر الجنرال « لاريفيير » أنه وجب أن يطلق هو أيضاً رصاصة فقال :

ـ لقد كانت حملة « نابليون » في عام ١٨١٣ موضع انتقاد كثيرين

وكـأنّ فكرة الجنرال صـادفت هوى في نفس «جـران» ولم تكن له فكرة سواها . فما لبث أن حاول بشيء من الجهد إفراغها في قالب حكم عام .

فقال :

ـ لقد ارتكب نابليون أخطاء ،وماكان له وهو في ذلك الأوج أن يرتكب أي خطأ!

ثمّ توقف فجأة وقد تضرّج وجهه بحمرة الخجل ، فسألت «الكونتس مارتن» :

ـ ومارأيك أنت يا مسيو «فانس» في «نابليون» ؟

فأجابها بقوله :

ـ إنني يا سيّدتي لا أسيغ طعم السماجة المسلّحة . وأقول لك بكل بساطة وصدق أن المحاربين في رأيي مجانين خطرون . ومع هذا فشخصية الامبراطور تهمّني بقدر ماتهمّ الجمهور . ولقد ألفيته على خلق كريم . وما من شعر أو قصة ذات حوادث ومخاطر تسوى و«مذكّراته» التي كتبها ، وإن كان قد كتبها بطريقة مضحكة . أمّا وقد أردتم معرفة رأيي في «نابليون» فإليكموه : أراه خلق للمجد وقد بدا في البساطة الزاهية التي يبدو فيها أولئك الأبطال الذين تروى سيرهم في الأشعار الحماسية . فالبطل يجب أن يكون إنساناً ، وكان للإنسانية من «نابليون» نصيب .

فقوبلت هذه الملاحظات بصيحات التعجّب .

بيد أن «بول فانتس» استطرد في الكلام فقال :

ـ وكان حاد الطبع ، خفيفه ، إنساناً الى حدّ بعيد . أعني أنه كان كسواه من الناس . فاشتهى التمتّع بقوة لاحدّ لها ، وهو مايعتزّ به ويرغب فيه عامة الناس . وكان هو نفسه نهب أوهام وتخيّلات تملّكته فنفثها في روح الجمهور . وهذه الأوهام هي التي كوّنت قوّته كما كوّنت ضعفه ، وكانت جماله وزينته ، فآمن بالمجد ، وكانت آراؤه في الناس والحياة التمتّع كآراء أيّ من رجاله ذوي القامات الطويلة رماة القذائف!! فظلّ محتفظاً بتلك الرزانة

الصبيانية التي كانت تفرح بصليل السيوف ودوي الطبول ، ذلك النوع من السذاجة الذي يصطنع الجنود الصالحين ويكوّنهم ،وكان شديد الإجلال للقوة . وكان رجل الرجال وواحد الآحاد! ولم يعن له قط خاطر إلاّ وضعه موضع التنفيذ ، فكان التعبير عن الفكر عنده هو الفعل ، وما تحرّك ذهنه حركة أسرع من حركة يده ، تلك اليد الجميلة الصغيرة التي طحنت العالم ، وماكترث أبد الدهر بشيء عجز عن تحقيقه .

ـ فأنت لا تراه إذاً بالغاً غاية الفطنة والزكانة ، وأراك وإيّاي في ذلك على وفاق!

فعاد «بول فانس» يقول :

ـ يقيناً أنّ له الزكانة التي لابدّ منها للقيام بحركات بديعة في ملعبي العالم المدني والحربي ، بيد أنه محروم مزيّة التصوّر ودقة التأمّل . فتلك عبقرية أخرى . ولدينا مجموعةكتاباته وخطبه وأقواله ، فأسلوبه رشيق ووصفي ، وما من إشارة واحدة في مجموعة آرائه وخواطره الى أي غرام بالبحث الفلسفي أو افتنان بالتنقيب العلمي أو اهتمام بالمجهول الخفي .كما أنه ليس فيها أي تلميح الى أن الشغف بالكشف عن سرّ القضاء والقدر يتملّك فؤاده ، أو يشغل باله . ونراه حين يتكلّم في «سانت هيلانه» عن الله أو الروح يبدو كتلميذ صغير السن طيب القلب في الرابعة عشرة من عمره ، وقد اندمج في الكيان العالمي متقبّلاً كل مافيه ، ومامن ذرّة واحدة من ذرّات روحه ضاعت في المحيط اللانهائي . كان «نابليون» شاعراً لايعرف من الشعر الا الفعل ، فترامى خياله الى حد السيطرة على الأرض . وفي حداثته الفاجعة آمن بأنّ الانسان قد تتاح له العظمة والسلطان ، فلم يستطع لا الزمان ولا طوارىء الحدثان ولا النوائب ولا المصائب أن تجرّده من هذا الوهم أو تسلبه ذلك الخيال . واستدام شبابه ، وبعبارة أخرى فتوّته السامية الى النهاية . لأن كل أيام حياته كانت عاجزة عن أن تبلغه أشدّه نضوجاً واستواء ، قاصرة على أن توصله الى سن الرشد درايةً وإدراكاً ، ومثل هذه

هي الحال الشاذة التي عليها كل الرجال العمليين فهم يعيشون بكلّيتهم لزمنهم ، منحصري القرائح في فكرة واحدة ، متجدّدين على الدوام ، في غير ماتقدّم الى الامام . وليست ساعات حياتهم متّصلة الواحدة منها بالأخرى بسلسلة من التبصّر الرّزين المنزّه عن الهوى ، وكل مافي الأمر أنّ حالة فيهم تعقب حالة من حلقات من الأعمال والتصرفات . وهكذا لاترى لهم حياة داخلية ، وهذا الحرمان من الحياة الداخلية يلاحظ بخاصة في « نابليون » لما كان عليه من النزق ، ذلك النزق الذي مكّنه من النهوض بعبء أرزائه وأخطائه .

وكانت روحه الجديدة أبداً تولد مع مطلع كل صباح . وكان ذا قدرة عجيبة على تسلية نفسه وإدخال السرور عليها . وفي أوّل مرة وقعت عيناه على الشمس على صخرة « سانت هيلانه » الكئيبة المظلمة وثب من فراشه وهو يصفّر لحناً . فكان ذلك برهان أن هدوء النفس وراحة البال مقدّمان عنده على كل شيء ، كما كان ذلك دليلاً أشد نهوضاً على خفة عقل مسرع الى التجدّد . لقد عاش « نابليون » آخذاً بالظواهر .

أمّا « جران » الذي لم يرتح كثيراً الى تلك الدورة الفكرية الحاذقة فقد أراد أن يختم الحوار ويستخرج مفاده ، فقال :

ـ وصفوة القول إن في الرجل مشابهاً من الغول!...

فأجابه « بول فانس » :

ـ إنّ غيلان الأنس لاوجود لها ، وإذا افترضنا وجودها فيكفي ذلك في أن تكون مبعثاً للرعب و« نابليون » كان محبوب أمة قائمة برأسها ، وكان منشأ قوّته في إشعال المحبّة في قلوب الرجال أينما حلّ وسار ، وكانت مسرّة جنوده في أن يبذلوا له المهج ويموتوا فداءه...

وودّت « الكونتس مارتن » لو يبدي « دي شارتر » رأيه ، بيد أنه بدأ يتهيّب الكلام ، على حين أن « شمل » كان لايزال يتساءل أفي الحاضرين من يعرف مثل الخواتم الثلاثة ؟ ؟ ذلك الوحي السامي الذي أوحي الى يهودي برتغالي ؟!

وطفق «جرتن» يهنّئ «بول فانس» بأحاجيه البديعة ، ويأسف على أنه باسم الخلق والإنصاف يلعب بالألباب هذا اللعب فقال :

ـ هناك مبدأ ثابت مقرّر وهو أنّ أقدار الناس تقدّر بأفعالهم . فسألته الأميرة «سنيامين» :

ـ وماذا عندك عن النساء ؟ أتقدّرهنّ أيضاً بأفعالهنّ ؟ وأنّى لك أن تعرف مايأتين ومايذرن ؟

واختلطت الأصوات برنين الأطباق الذي كان كرنين الأجراس ، وسخن الجو وتشبّع بالبخار.. ونثرت الورود المتساقطة أوراقها على غطاء المائدة . وتضاربت الأفكار في رؤوس هؤلاء المجتمعين .

وسبح «الجنرال لايفيير» في أفق من أحلام المستقبل ، وحدث جاره عنها فقال :

ـ عندما تتحقّق ، اذهب فأعيش في مدينة «تور» حيث أغرس الزهور...

وحدّث عن نفسه متخايلاً أنه بستاني ماهر ، وقد سمّيت وردة باسمه ، وهو بذلك فخور .

وكان «شمل» لايزال يسأل أيعرف أحد مثل الخواتم الثلاثة ؟ وكانت الأميرة «سينافين» في تلك الأثناء تكايد النائب «جران» بقولها :

ـ ألا تعرف يا مسيو «جران» أن الناس يعملون ما يعملون لأسباب متغايرة كلّ التغاير ؟

فقال «مونتسوي» إنها على تمام الصواب :

ـ هو يا سيّدتي ما تقولين . وهذه الفكرة تدهش الانسان وبخاصة في طور من أطوار حياة «دون جوان» ، ذلك الطور الذي يبيّن كيف أن الفاتن الكبير أضاع وقته مع ثلاث نساء ، كانت إحداهنّ حضرية تحبّ زوجها ، والثانية راهبة أبت النكث بعهدها ، والثالثة امرأة قضت حياة طويلة في الاثم فتشوّهت وأصبحت خادماً في نزل وبعد العيشة التي عاشتها وبعد ما رأته أصبح الحب عندها نافلة . وكان هؤلاء النسوة

الثلاث سواسية في مسلكهنّ وإن كان ذلك لأسباب مختلفة . فعمل واحد من أعمال المرء قد لا يدلّ على شيء ، ولكنّ جماع الأعمال ووزنها هو الذي يكوّن قدر الإنسان .

فقالت «الكونتس مارتن» :

ـ ماأشبه بعض فعالنا بنا ، فإنها تكاد تماثلنا في هيئاتنا وسحننا ،وتبلغ أن تكون من بناتنا ، كما أن من أعمالنا مالا شبه بيننا وبينه .

ونهضت فأخذت بذراع الجنرال . وسار «جران» بالأميرة الى الصالون ، وهي تقول :

ـ إنّ «تريز» على حق . إن فعالاً من فعالنا لاشبه بينها وبيننا ، فهي كزنجيّات صغيرات نحمل بهنّ ونلدهنّ أثناء نومنا!

وكانت بنات الغاب المصوّرات على طنافس الجدران ، ذوات الحسن الذابل ، يلقين البسمات على المدعوّين الذين مرّوا بهنّ بلا انتباه...

وصبّت «الكونتس مارتن» القهوة ، وأثنت على «بول فانس» وهنّأته بحديثه على المائدة ، فقالت :

ـ لقد حدّثت عن «نابليون» بصراحة وحرّية نادرين بيننا . وكثيراً ما لاحظت أنّ «نابليون» في مساء معركة «ووترلو» يشبه أن يكون طفلاً غريراً عابساً! ولقد جعلتني أشعر بأقوى أسباب هذا التشابه ،

ثمّ بدا لها فالتفتت الى «دي شارتر» . وقالت :

ـ وأنت ، أفتحبّ «نابليون» ؟

ـ إنني ياسيدتي لاأحبّ الثورة ، و«نابليون» هو الثورة المدجّجة بالسلاح .

ـ ولِمَ لمْ تقل ذلك على المائدة يا مسيو «دي شارتر ؟» إنني أراك تأبى أن تعلن للناس حذاقتك ، وهم لايكادون يرونها لماماً...

سار «الكونت مارتن بليم» بالمدعوّين الى قاعة التدخين وبقي «بول فانس» وحده مع السيدات ، فسألته الأميرة «سينافين» هل أتمّ روايته وما

موضوعها ؟ فقال إنها بحث ومحاولة للوقوف على الحقيقة بإيراد سلسلة منطقية من الظواهر تنتهي الى حجة بيّنة :

ـ وبمثل هذه الطريقة تكتسب القصة قوّة أدبية لايمكن تفاصيل التاريخ التافهة الثقيلة الجامدة أن تؤدّيها قط .

فسألته :

ـ أتصنع كتابك هذا للنساء ؟

فأجاب سلباً . فقالت :

ـ إنّك تحظى يامسيو «فانس» إذ لاتكتب للنساء ،وذلك كل مايستطيع نابه مثلك أن يصنعه من أجلهن!

ولمّا أراد أن يعرف كيف عنّت لها هذه الفكرة ، قالت :

ـ لأنني لاحظت أنّ الذكيّات من النساء يتزوّجن من أغبياء الرجال!...

ـ الذين يضايقونهنّ ؟

ـ بكلّ تأكيد! لكنّ النابهين كذلك يضايقونهن أكثر!

ـ لأنهم أقدر!

ـ ولكن حدّثني عن قصتك!

ـ أأنت مصرّة على ذلك ؟

ـ لا أعرف الإصرار!

ـ لابأس! هاك موضوع قصتي : إنه حكاية أخلاق الطبقة الدنيا وطباعها ، بطلها عامل شاب ، قانع بالكفاف ، طاهر الذيل ، حيّ كأنه عذراء ، نقّاش متقن صناعته ، يدرس ليلاً في البيت مع أمه وهو شديد التعلّق بها ، يقرأ الكتب فتثبّت الآراء في ذهنه الساذج كما ينبت النقش في الحجر ، وهو قليل الرغبات إذ لا تربطه بالحياة الصلات التي تربطنا بها من عواطف ونقائص . يعيش في عزلة تقيّة وقد وهب فضائل عظيمة يفخر بها . يعيش بين الأشقياء والبؤساء ، فيراهم يألمون ، فيترفّق بهم ويشفق عليهم ، إذ كان شفيقاً رفيقاً وإن كان لا يكون إنساناً لأنه لم يكن شهوانيّاً قط .

ـ آه! أفلا بدّ أن يكون إنساناً شهوانياً ؟
ـ يقيناً يا سيّدتي! إنّ الانسانية كامنة في صميم قلب الانسان ، ولكنّ الرفق يبدو على جوارحه وهو الى الحركة أسرع والى الظهور أقرب . وهذا الشاب ليس من التمييز بحيث يشك ، فسرعان مايصدّق ما يُلقى إليه لأنه ساذج غر ، يصدّق مايقرأه بلا مناقشة ، وقد قرأ أنّ السعادة العامة تقوم بإبادة المجتمع ، فأصبح يظمأ للاستشهاد . وفي ذات صباح ، يعانق أمه ويخرج ، ويبقى متربصاً للعضو الاشتراكي الذي يقطن حيّه ، فإذا رآه انقضّ عليه واغمد في بطنه الآلة التي ينقش بها ، صائحاً : «لتحيا الفوضوية!» فيقبض عليه ، ويقاس طوله وعرضه ، وتنقل صورته ، ويسأل ،ويحاكم ، ويساق الى الموت ، ويقطع عنقه . تلك روايتي!
فقالت الأميرة :
ـ في رأيي أنها لن تكون لذيذة جداً ، لكن ليس الذنب ذنبك ، فإنّ فوضوييك خجلون معتدلون كغيرهم من الفرنسيّين ، أمّا أهل روسيا فإذا مضوا في الفوضوية كانوا أشد جسارة واحرزوا قصب السبق!
عند ذلك أقبلت «الكونتس مارتن» تسأل «بول فانس» هل يعرف ذلك السيد اللطيف الذي لم ينبس ببنت شفة وكان ينظر اليه أثناء حديثه حائراً حيرة الكلب الضال ، فإنّ زوجها قد دعاه وهي لاتعرف من أمره شيئاً .
فقال «بول فانس» إنّ كل مايعرفه عنه أنه عضو مجلس الشيوخ ، وقد رآه مرة في «لوكسمبورج» في قاعة الصور ، ثمّ قال :
ـ وكنت إذ ذاك واقفاً أنظر الى القبّعة المرسومة بريشة «دي لاكروا» بما فيها من أبطال القدماء وحكمائهم ، وكان الرجل متدثراً بشكل يبعث الإشفاق ، ومن قبله تنبعث رائحة كالتي تنبعث من الثياب المبلّلة . وكان يتحدّث الى بعض زملائه الشيوخ قائلاً وهو يفرك يديه : «عندي أنّ مايدلّ على أن الجمهورية خير أنواع الحكومات هو أنّا في عام ١٨٧١ وفي اسبوع واحد قد قتلت رمياً بالرصاص ستّين ألفاً من المتمرّدين من غير أن نثير استياء

الناس منها . ومثل هذه الشدة كانت قمينة بتدمير أية حكومة عداها » .

فقالت « الكونتس » :

ـ إذن هو رجل من الخباثة بمكان على حين أنّى كنت أرثي له لحيائه وجبانته .

وكانت السيدة « جران » قد ألقت ذقنها برفق على صدرها ونامت هانئة . وكانت روحها الوديعة تحلم بحديقة مطبخها على شاطىء نهر اللوار حيث اعتادت جمعيّات المرتّلين المجيء لتقديم فروض الاحترام لها .

وخرج من قاعة التدخين « جوزيف شمل » و « الجنرال لاريفيير » ، ومازالا مرتاحين الى الموضوعات غير الأدبية التي كانا يتحاوران في صددها ، وجلس الجنرال بجانب الأميرة « سينافين » و « الكونتس مارتن » ، وقال :

ـ قابلت في هذا الصباح « البارونة وابورج » في الغابة ، وكانت ممتطية صهوة جواد كريم ، فسألتني أنّى لي أن أحصل على مثل هذه الخيل الأصيلة ، فأجبتها : « لكيما يملك المرء خيلاً كريمة ياسيّدتي إمّا أن يكون طائل الغنى ،وإمّا أن يكون واسع الحيلة »

وكان الجنرال مسروراً بهذا الرد المفحم الى حد أنه كرّره مرّتين ، في طرفة عين . وجاء « بول فانس » الى الكونتس يقول :

ـ عرفت اسم عضو مجلس الأعيان ، إنه يدعى « لوبيه » وكان رئيساً سابقاً لإحدى الجماعات ، وهو مؤلّف كتاب في الدعاية اسمه « جناية ثاني ديسمبر » .

واسترسل الجنرال قائلاً :

ـ لقد كان يوماً عصيباً مضيت فيه الى مخبأ حيث لقيت « لومنيل » وكان الجوّ رديئاً . فرأيته يضحك منّي لإعتقاده أنه لأنّي جنرال ينبغي لي أن أحبّ البرد والبَرَد والهواء والأنواء ، لكن هذه سخافة . وقد قال لي أنه لاتهمّه رداءة الجو فهو مسافر في الاسبوع القادم للصيد والقنص مع جماعة من صحبه .

وساد سكوت . وعاد الجنرال يقول :

ـ أتمنّى أن يمتّع نفسه ، على أنني لاأغبطه ، فليس صيد الثعلب بالشيء الذي يسر .

فقال « مونتسوي » :

ـ بيد أنه شيء ينفع .

فهزّ الجنرال كتفيه قائلاً :

ـ إنّ الثعلب لايزعج حظيرة الدجاج إلا في الربيع وهو يغذّي جراءه .

فأجاب « مونتسوي » :

ـ إنّ الثعلب يؤثر مطاردة الأرنب على مهاجمة حظيرة الطيور ، وهو سرّاق صيد ، يؤذي القنّاص أكثر مما يؤذي الفلاح .

وبدا على « تريز » أنها مشرّدة اللب... ولم تكن صاغية الى الأميرة عندما وجّهت اليها الكلام . إذ كانت مستغرقة في تأمّلاتها تقول في نفسها :

ـ إنه لم يخبرني حتّى بأنه مسافر... .

فسألتها الأميرة :

ـ فيم تفكّرين ياعزيزتي ؟

فأجابت :

ـ فيما لا يهمّ!

●

٤

كانت الغرفة الصغيرة مظلمة ساكنة ، وقد غصّت بالسجوف والستائر وفراء الدببة والطنافس الشرقية التي أخفتت كلّ صوت . وكان ضوء النار ينعكس على صفحات السيوف فتتألّق على ورق الجدران . وهناك ، فوق مشجب مصنوع من خشب الورد ، كأس فضّية جائزة من أحد أندية الرياضة البدنية .وعلى المنضدة الصغيرة المصنوعة من الصيني الملوّن وضع إناء من بلّوري على شكل قرن وقد ملىء زئبقاً أبيض . وكانت الأضواء البرّاقة الساطعة في كل مكان تخفق في قلب الظلام الحار . وهناك «تريز» و«ربير» وقد ألفت عيونهما الظلمة فأخذا يتنقّلان بسهولة في ذلك المحيط المألوف ، وأشعل سيكاراً بينما كانت تصلح شعرها وهي واقفة مستدبرة المصطلى أمام المرآة التي كانت لاتكاد تستطيع أن ترى نفسها فيها إلاّ بجهد . لكنها كانت تؤثر ألاّ يكون ثمّ مصباح أو شمع . ولثلاث سنوات خلت تعوّدت أن تتناول دبابيس شعرها من الكأس الصغيرة من بلّور «بوهيميا» الموضوعة على المنضدة في متناول يدها .

فراقبها وهي تتخلّل بأصابعها الخفيفة كالنور شعرها الذي تساقط غدائر من الذهب الوهّاج . وبدت على محياها الذي كسبه الظلّ صلابة وسمرة ، دلالة غامضة مبهمة كادت تكون مخيفة منذرة .

وظلّت صامتة . فقال لها :

ـ لقد زال غضبك ، أليس كذلك يا حبيبتي ؟

ولمّا استعجلها الرد ، وأرادها على أن تقول شيئاً ما ، قالت :

ـ وماذا تريدني على أن أقول أيها العزيز ؟ إنني لاأستطيع غير ترديد ماأخبرتك به ساعة وصلت . إني اعجب من أن تصل اليّ أنباء تدابيرك على لسان الجنرال «لاريفيير» .

وكان يعرف جيداً أنها لاتزال واجدة عليه ، وأنها صلبة الرأي لاتلين لها قناة ، وليس فيها اليوم شيء من ذلك الخضوع الذي يجعلها عادة موفورة الملاحة... لكنّه تظاهر بأنّ سحابة كدرها كادت تقشع ، فقال :

ـ لقد فرغت ياعزيزتي من إيضاح الأمر لك ، فأقول وأكرّر أنني حين قابلت «لاريفيير» كنت تلقّيت لساعتي رسالة من صديقي «كومون» يذكّرني فيها بوعدي بصيد الثعلب في الغاب ، فأجبت عنها برجع البريد ، وكنت معتزماً إخبارك بذلك اليوم ، وإنّي آسف لأنّ «الجنرال لاريفيير» سبقني ، لكن في الحقيقة أن ليس لهذا شأن ما .

فالتفتت اليه ويداها مشتبكتان على رأسها ونظرت اليه نظرة بتمعّن وهدوء لم يفهمها ، وقالت :

ـ إذاً فأنت مسافر ؟

ـ نعم ، يوم الثلاثاء أو الأربعاء من الاسبوع القادم ، لأتغيّب عشرة أيّام على الأكثر .

فقالت وهي تلبس قبّعتها المصنوعة من الفرو المزدانة بغصن من النبات :

ـ أراها مسألة لا تقبل تأخيراً ؟!

ـ لا! ففراء الثعلب لن تساوي بعد شهر شيئاً . فضلاً عن أن صديقي «كومون» قد دعا الى الصيد معنا بعض أصحابنا الذين يبلغ منهم غيابي .

فزوت ما بين عينيها ، وهي تغمد دبّوساً في قبّعتها ، وقالت :

ـ وهل تعدّ رحلتك للصيد هذه شائقة جداً ؟

ـ أكثر ممّا تقدّرين! لأنّ الثعلب روّاغ يأتي من الحيل بألوان شتّى ، كلّها يجب أن تقاوم . وذكاء هذا الحيوان خارق ، وكم راقبت الثعالب تتصيّد الأرانب ليلاً وقد نظّمت خطوط هجومها تنظيماً عجيباً! وأؤكّد لك أنه ليس من السهل إخراج ثعلب من حجره . وما أبهج الصيد والقنص! وما أشهى خمر « كومون »! على أنني لا أميل الى هذا الخمر التي يقدّر الناس لها قدراً . أتتصوّرين أن أحد الزرّاع عند هذا الصديق أخبرني أنه تعلّم من ساحر كيف يروّض الثعلب بسحره وشعوذته ؟! بيد أنّي لن أعمد الى هذه الوسيلة ، إنّما أعدك أن أحضر لك معي اثني عشر جلداً من الجلود البديعة .

ـ وماتريد أن أصنع بها ؟

ـ إنها تصلح لتكون طنافس أنيقة .

ـ أتسلخ الاسبوع كله في الصيد ؟

سأقضي شطراً منه في الصيد ، وسأكون على مقربة من « سيمانفيل » فأمضي عند عمّتي « دي لانوا » يومين ، لأنها تنتظرني . وكان يزورها في مثل هذه الفترة من السنة الماضية ابنتاها وبنات أختها الثلاث وأزواجهنّ ، وكنّ خمس فتيات لطيفات مرحات فاتنات ، وفي أوائل الشهر التالي سأجدهنّ كلّهن دون ريب مجتمعات يحتفلن بعيد ميلاد عمّتي ، فأقضي في سيمانفيل يومين .

ـ ابق ما شئت أيها العزيز فسيشتدّ أسفي إذا قطعت صفاء مثل هذه الزيارة من أجلي .

ـ وكيف تكونين في تلك الأثناء يا « تريز » ؟

ـ أنا ؟ أوه! سأكون بخير!

أخذت النار تخمد ، والظلال تزداد كثافة ، فقالت بنغمة من تحلم بأمر :

ـ حقيقة أنه ليس من أصالة الرأي أن تترك المرأة وحدها... فاقترب منها

محاولاً أن يحدّق فيها والظلام مخيّم . وأخذ يدها قائلاً :

ـ أوتحبّينني ؟

ـ أؤكّد لك أنني لاأحبّ سواك ، ولكن...

ـ ماذا تعنين ؟

ـ لاشيء . إنّي أفكّر ، أفكّر في أننا نفترق طوال الصيف وأنّك تقضي نصف فصل الشتاء مع أسرتك وصحبك . فإذا كان لقاؤنا لايتسنّى إلا في الندرة فماذا عسى أن تكون قيمته ؟

وأشعل الشموع ، فبدا وجهها على الضوء صلباً متجهّماً ، فنظر اليها نظرة واثقة ، نظرة ليس فيها من الصلف المعروف في العاشقين مثلما فيها من الحاجة الى الشعور بالكرامة الثابتة ، وتلك الثقة بها كانت بحكم تقاليد تربيته وبساطة ذكائه وقال :

ـ تريز! إنّي أحبّك وأعرف أنّك تحبينني فلمَ تعذّبينني ؟ إن قسوتك وتكتّمك كلاهما يؤلمني كثيراً أحياناً .

فاهتزّ رأسها الصغير فجأة هزّة عنيفة وقالت :

ـ ليس لي في ذلك حيلة ، فإنني صارمة عنيدة ، وهذا في دمي ، وقد ورثته عن أبي ، وأنت تعرف «جوانفيل» ورأيت قصرنا فيها ، وسقوفه المنقوشة ، وصوره الموشّاة ، وبصرت بحدائقه الغنّاء ، وقلت إنه ليس في فرنسا أبدع منه . لكنّك لم ترَ مشغل أبي ولامنضدته الخشبية البيضاء ولامكتبته الحمراء . فمن هذه المجموعة ابتدع ياصديقي كل شيء ، فعلى تلك المنضدة ووراء تلك المكتبة اشتغل أبي حاسباً مدى أربعين عاماً . وكان أوّل أمره في غرفة صغيرة بساحة «الباستيل» . ثمّ في مسكن بشارع «موبيج» وفيه ولدت . ولم نكن موفوري الثراء في ذلك الحين . وقد رأيت غرفة الأضياف الصغيرة المصنوع فراشها من الدمقس حيث كان أبي يصفّي حساب البيت . وكانت أميمتي تحبّها كثيراً ، إنني ابنه رجل عصامي ، وإن شئت فقل ابنة فاتح غازٍ ، لأنّ الكلمتين تؤدّيان معنى واحداً . إنّا قوم

مادّيون ، وقد صحّت عزيمة أبي على أن يثري ويملك ويقتني كل مايملك أو يقتني ، أعني كل شيء ، وقد صحّت عزيمتي مثله على أن أربح وأصون . ماذا ؟ لا أدري!... الذي أملكه هو السعادة أم شيء لم أملكه بعد ؟ وإنني على هذه الشاكلة شرهة طموح ، جدّ نزّاعة الى الأحلام والخيالات والأوهام... أعلم علم اليقين أنها لاتستحقّ المجهود الذي يبذل في سبيل الحظوة بها ، لكن ، لهذا المجهود مع ذلك قيمته ، وهذا المجهود هو أنا ، هو حياتي . إنني أميل الى التمتّع بما أحب ، وبما يخيّل إليّ أنّي أحب . وفي عزمي الاّ افقده . إنني مثل أبي : أطالب بحقي... وعندئذ...

ثمّ خفضت من صوتها :

ـ وعندئذ... لي كما لغيري حواس... أرى أيها العزيز انني بهذا أضايقك ، وليس لي فيه حيلة ، وما كان لي قط أن استسلم اليك .

هذه الحدة في طباعها ، على كونه قد اعتادها ، كانت تضيّع عليه سروره ، دون أن تزعجه . ولشدّة تأثره بكل فعالها ، لم يكن يعني بما تقول ، ولا يلقي ببال الى الألفاظ ، وبخاصّة من سيدة... يبعد عليه تصوّر أنّ الألفاظ تصير أفعالاً ، لأنه كان طويل الصمت .

وهو ولو أنّه أحبّها ، أو لأنه أحبّها حبّاً قوياً صادقاً ، كان يرى أنّ من واجبه مقاومة الأوهام التي يعدّها مستحيلة . متلطّفاً معها في كل حال بحيث لايغضبها ومن أجل ذلك كانت تسمح له باتّخاذ مظهر السيادة والسلطان عليها ، فيتّخذه دوماً من حيث لايظنّ... قال :

ـ تعرفين حق المعرفة «ياتريز» إنّي لاأريد إلاّ رضاك في كل شيء ، فلا تكوني قلّباً كثيرة البَدَوات والأهواء .

ـ ولِمَ لاأكون معك كذلك ؟ وقد أنلتك منّي أربا أو وهبتك نفسي ، فلم يكن ذلك العمل صواباً أو واجب الأداء ، وإنّما كان بداة وهوى من الأهواء...

فنظر إليها مشدوهاً محزوناً فقالت :

ـ أيجرحك اللفظ يا عزيزي ؟ فلنسلّم بأنه قد كان ذلك حبّاً . ونعم أن

مأتاه كان من نحو قلبي . ذلك إذ عرفت أنّك أحببتني ، لكنّما ينبغي أن يكون الحب مسرّة ، ولو لم أجد أنه شفي منه غلّة ، وماهي هذه الحقيقة الا أمنيتي وحياتي وصميم قلبي ـ لاجتويته ونبذته نبذ النواة ؟ ياللك من رجل غريب الأطوار! أهوائي! ؟ هل الحياة كلّها إلاّ بدوات ونزوات وأهواء ؟! أليس ذهابك لصيد الثعلب بداة وهوى من الأهواء ؟ ؟

فأجاب وحق ماقال :

ـ أقسم « يا تريز » لولا سبق وعد منّي لضحّيت مسروراً بتلك اللذّة الهيّنة إكراماً لك .

وكانت تعرف أنّ ما قاله حق ، وتعرف دقّة محافظته على كلمته حتّى في توافه الأمور ، ورأت أنها إذا أصرّت لم يذهب ، لكن كان السحر قد بطل وسبق السيف العذل . ولم تعد ترغب في هذا الوصال ولا تبحث الا عن اللذّة القاسية التي تنشأ من الخسران في هذا المجال . وهو سبب بدا لها تافهاً ولكنّها تظاهرت بأنّها تراه خليقاً بالاعتبار ، فقالت :

ـ صحيح! إذن فقد وعدت!

وتصنّعت الإذعان بدهاء...

فعجب بادئاً ثمّ مالبث أن هنأ نفسه في سريرته على أن ردّ اليها رشدها . وشكر لها أنها لم تمض في عنادها ، فطوّقها بذراعيه وقبّلها بإخلاص ومودّة في عينيها ونحرها ، مكافأة لها!

وأظهر متحمّساً رغبته في وقف أيّامه الباقية له في باريس عليها وقال :

ـ نستطيع أن نلتقي ثلاث مرّات أو أربعاً قبيل سفري ياحبيبتي ، وأكثر من ذلك إذا شئت ، فستجدينني هنا طوع يدك ، في أي وقت تريدين . فهل ترين أن يكون ذلك غداً ؟

فمنحت نفسها مسرّة أن تقول إنها لا تستطيع العودة في الغد ولا فيما يليه من الأيام . وأوضحت في رقة فائقة الأسباب التي تعتاقها عن المجيء . وبدت الموانع بادىء ذي بدء تافهة ؛ زيارات تقضى ، وثياب تقاس ، وأسواق

خيرية تُقصد ، ومعارض تُجتلى ، وطنافس للحيطان تُقتنى ، ثمّ مالبثت هذه الصعاب عند سبرها ، أن زادت وتشعّبت ، فالزيارات لايمكن تأجيلها ، والأسواق ثلاثة لاأقل ، والمعارض على وشك إقفال أبوابها ، والطنافس سترسل الى أمريكا ، وقصارى القول أنه يتعذّر عليها أن تزوره قبل سفره ، وكان يقدّر مثل هذه الأسباب قدرها ، فلم ير أنها متكلّفة ، وإن «تريز» آخر من يبديها . ووقف مرتبكاً حائراً أمام مشكلة الفروض الإجتماعية هذه ، فلم يمانع ، وإنّما لبث صامتاً مغموماً .

رفعت ذراعها اليسرى على رأسها ، وحسرت ستر الباب ، وأدارت بيدها اليمنى المفتاح في القفل... وهناك ، وبين ثنايا الستر الشرقي المختلف ألواناً ، لفتت رأسها نحو صاحبها الذي تغادره ، وقالت بنغمة فيها من السخرية والكآبة :

ـ وداعاً يا «روبيرو»! ولتكن سعيداً! ليست زياراتي ولا رحلاتك إلاّ أموراً تافهات ، لكن قسمة الانسان على الحقيقة منوطة بمثل هذه التفاهات . استودعك السلامة!

●

خرجت ، وودّ لو صحبها ، لكنه عاد فرأى مغبّة مرافقته إيّاها في طريق عام ، على حين أنها لم تلحّ عليه في ذلك .

ولمّا احتواها الطريق ، أخذتها هزّة لشعورها الباغت بأنها وحيدة ، وحيدة في الدنيا ، بغير أفراح ولاأحزان . فرجعت أدراجها الى البيت ماشية كعادتها . وكان الوقت ليلاً والجو مثلجاً صافياً ساكناً... لكنّ الشوارع المظلمة التي سارت فيها كانت تتكسّر هنا وهناك في الأضواء ، فدثّرتها بذلك الدفء الفاتر الذي يصدر عن المدن وينفذ حتّى من خلال برد الشتاء .

سارت بين صفوف الاكواخ والخصاص والبيوت ذوات السطوح المائلة الباقية من عهد «اوتاي» ، وقد تخلّلتها بيوت عالية ذوات طبقات لها طنف

من الحجارة تبدو في عزلة موحشة . ولم تكن تلك الحوانيت الصغيرة والنوافذ المتشابهة لتعنيها ، لولا أنّ مايحيط بها لاح لها من طرف خفيّ كأنه يتودّد اليها ، كما خيّل اليها أنّ حجارة الطريق وأبواب البيوت والأنوار العالية المنبعثة من النوافذ تعطف وتحدب عليها في وحدتها . وارتضت هذه الوحدة لنفسها . هذه الخطوات التي تقطعها ، كعادتها ، بين ذينك الصفّين من المساكن ، هذه الخطوات التي قطعتها مراراً عديدة قد بدا لها اليوم كأنها تقطعها لآخر مرّة وتسيرها بلا رجعة . فما علّة ذلك ؟ ما الذي جاءها به النهار ؟ لمَ لم يجئها بخير ولابشر . على أنها أحسّت في نهارها إحساساً غريباً شاذاً لايزال عالقاً بذلك النهار أبد الدهر . فماذا حدث ؟ لاشيء! وهذا اللاشيء محا كلّ شيء . شعرت بضرب من الاقتناع الغامض ، الاقتناع بأنها لن تعود فتدخل تلك الحجرة التي كادت تكون منذ قليل أعزّ مافي حياتها وأدعاه الى الحرص . كانت علاقتها جدّية . وقد وهبت نفسها برصانة لتحقق فرحاً كان لازماً لها . إنها خلقت للحب ، وهي راجحة العقل ، فلم تفقد ـ إذ تبذل ذاتها ـ ميلها الفطري الى التبصّر والتفكير ولا حاجتها الى الطمأنينة والصفاء ، ذينيك الميل والحاجة اللذين كانا فيها قويّين جداً . على أنها لم تختر ، فقلّما يتاح لأحد أن يختار . وكذلك لم تدع نفسها تؤخذ مصادفة واتّفاقاً ، أو بتأثير دهش وخبل . لقد فعلت مارغبت في فعله بقدر مايتاح للانسان في مثل هذه الشؤون . ولم يكن لها أن تأسف ، فقد كان صاحبها معها كما ينبغي ، ومسلكه إزاءها لاغبار عليه . ويجب عدلاً أن تسلّم بذلك فيما يتعلّق برجل نابه في المجتمع والنساء طوع بنانه . وعلى هذا كله شعرت أن ماكان بينهما قد انتهى ، وأنّ نهايته طبيعية جداً ، وكانت تقول في نفسها بكآبة بالغة :

«ثلاث سنين قضيتها من حياتي مع رجل مستقيم يحبّني ، وكنت أحبّه ، أجل وإلاّ لما أسلمت نفسي اليه ، ولست امرأة سوء» .

على أنها لم تستطع بعد أن تجد عواطف تلك الأيّام ، مغريات نفسها

ومحرّضات جسمها ، شوقها الذي كان له في قلبها ركضات ، وحبّها الذي كان له في مفاصلها رفضات...

وذكرت بعض التفاصيل التفهة كالأزهار المرسومة على ورق الجدران ، والصور التي تزيّن الغرفة ، وكانت غرفة نزل . وذكرت الكلمات التي قالها والتي كانت الى حدٍّ ما مضحكة ، وإن كادت تكون مثيرة . ولكنما بدا لها كأنّ هذه الحادثة خاصة بامرأة أخرى ، امرأة غريبة عنها لاتحبّها كثيراً ولاتفهمها كثيراً ولاقليلاً . ما حدث الآن لها ، من تلك الملاطفات والمعانقات وماماثل... ممّا تلقّته منذ قليل ، ومازالت تحمل آثاره معها... فقد تقلّص ظلّه وعفا أثره كله .

وكذلك المضجع ، والزنبق في وعائه البلّوري ، وكأس الزجاج البوهيمي الصغيرة وفيها دبابيس شعرها ـ كلّ هذا رأته كأنما تشخص ببصرها الى الغرفة من قارعة الطريق...

ولم تشعر بمرارة أو حزن . وليس ثمّة ماتغتفره وتعفو عنه . فوا أسفا!... إنّ ذلك الغياب لأسبوع لم يكن نكثاً للعهد ، ولم يكن إساءه ، بل إنه لم يكن شيئاً ولكنه كان كلّ شيء! كان الخاتمة وفصل الخطاب .

عرفت ذلك ، ورغبت في القطيعة ، وأرادتها إرادة كانت مدفوعة اليها . وكان ذلك منها طاعة لشعورها الخفي وإحساسها الطبعي . وقالت لنفسها : «لاأرى داعياً يدعو الى أن أقلّل من حبه . أوَ عدت لا أحبه ؟ وهل أحببته يوماً ؟» . لم تعرف ، ولم تعن بأن تعرف ثلاث سنين كانت في خلالها تسلّمه ذاتها في الاسبوع مرّتين ، وأحياناً أربع مرّات... ومرّت شهور أربعة كانا يلتقيان في كل يوم منها . أفلم يكن ذلك شيئاً ؟ ؟ ألا أنّ الحياة ليست أمراً جليل الخطر عظيم الأثر ، فيما نعلّقه عليها فإنّما هو تَفهٌ قليل .

وبعد ، فليس لديها سبب للشكوى ، لكن الأولى أن تضع لها حدّاً . وانتهت بها تفكيراتها الى هذا الرأي ، ولم يكن تصميماً فالتصميمات قد تتغيّر . إنه كان أشد خطراً ، كان حالة عقلية ونفسانية .

ولمّا وصلت الى الميدان القائم في وسطه حوض ، وعلى أحد جانبيه كنيسة على الطراز الريفي ، يبدو ناقوسها من قوس مصوّب إلى السماء ، ذكرت طاقة البنفسج التي شراها صاحبها وقدّمها اليها ذات مساء عند «البتي بون» بقرب «نُتردام» . وكان غرامهما في ذلك اليوم متبادلاً ، وقد حنت عليه واستسلمت اليه في عطف ودلال ، فألانت قلبها تلك الذكرى ، فالتمست الطاقة في معطفها ، فلم تجدها ، ففي ذاكرتها وحدها حيث الطاقة الصغيرة ، ذلك الهيكل الضئيل من الزهر...

وبينما كانت تسير ضاربة في بيداء أحلامها ، تبعها بعض المارة مخدوعين ببساطة ملبسها ، ودعاها أحدهم الى مطعم لتناول العشاء في حجرة خاصة على أن يذهبا بعدئذ الى التياترو! فتفكّهت بهذه المقترحات ، ولم تحدث الشدة التي كانت بها أي ضعف أو تراخٍ في أعصابها ، وكانت تتساءل متعجّبة : «ترى ماتفعل الأخريات من النساء ؟ وأنا التي هنّأت نفسي على أنّي لاأضيّع حياتي عبثاً...! ومع ذلك فما قيمة الحياة ؟» .

ولمّا صارت بمشهد من المصباح الأغريقي العَلَم على «متحف الأديان» ، وجدت الأرض مقلوبة عاليها سافلها من شغل في باطنها وهناك ، فوق أخدود عميق بين تلّين من التربة السوداء ، وبين أكوام من الحصى وحجارة الرصيف ، وضع لوح ليّن ضيّق من الخشب بدأت تجتازه فإذا بها ترى أمامها على طرفها الآخر رجلاً وقف ينتظر مرورها . فعرفها ورفع قبّعته لها .

وكان الرجل «دي شارتر» .

وإذ كانت تتقدّم منه ، بدا لها أنه سرّ بلقائها ، فشكرت له ذلك بابتسامة . وسألها أن يماشيها بعض الطريق . ودخلا معاً الميدان الفسيح حيث كان الهواء أشد عصفاً والبيوت المرتفعة أكثر تباعداً بعضها عن بعض . وكان يمكن رؤية جزء من صفحة السماء . فقال لها إنه قد عرفها على بعدها من اتزان شكلها وحركاتها :

ـ إنّ الحركات الرشيقة هي موسيقا العينين .

فأجابت أنها تحبّ المشي كثيراً ، وأنه يسرّها ويجدّد قواها . فقال إنه أيضاً يحبّ المشي الى مدى في المدن الآهلة أو الريف الجميل . يغريه سرّ الطرقات الخفي بالسير فيها... ويحب السفر . وحتّى في هذه الأيّام التي أصبح السفر فيها شائعاً سهلاً لايزال يشوّقه . وقد رأى أيّاماً ذهبية وليالي ذهيّة في بلاد اليونان ومصر وعلى البوسفور . ولكنه كان دوماً يعود الى ايطاليا كأنما يعود الى موطنه الروحي ثمّ قال :

ـ إنّي ذاهب الى هناك في الاسبوع القادم ، أريد أن أرى مدينة «رافنّا» مرة أخرى ، نائمة بين أشجار الصنوبر القائمة على ذلك الساحل القاحل . هل ذهبت الى «رافنّا» يا سيدتي ؟ إنها جَدَثٌ ساحر تقوم منه أشباح مدهشات! هناك سحر الموت ، وصور القدّيسين تحوطهم ملائكة على رؤوسهم هالات نورانية تذكّر الرائي برفاهيّات الشرق المهولة . إنّ قبر «جلاّ بلاتشيديا» (Galla Placidia) وقد سلب الآن ألواحه الفضّية يبدو بسردابه المظلم النوراني أنه يرى ابنة «تودوسيوس» على مقعدها الذهبي ، ممشوقة القد ، في ثوبها المرصّع بالجواهر ، المطرّز بمشاهد من التوراة ، وقد اكتسب وجهها القاسي الجميل خشونة وسواداً من الأعطار التي استخدمت في تحنيط الجثة ، ويداها الشبيهتان بالأبنوس ملقاتان على ركبتيها بغير حراك . وبقيت في جلالها الجنائزي هذا ثلاثة عشر جيلاً حتّى مرّ بها طفل حاملاً شمعة بقرب ثلمة القبر فأحرق الجثة والحلّة معاً .

فسألته «الكونتس مارتن بليم» عن سيرة صاحبة هذه الجثة الممعنة في كبريائها هذا الإمعان .

فقال «دي شارتر» :

ـ كانت جارية مرّتين ، فعادت ملكة مرّتين!!

فقالت «الكونتس» :

ـ إنها كانت جميلة بلا مراء ، ووصفك لها وهي في قبرها يمثّلها حتّى

لأخافها! أفلا تذهب الى البندقية يا مسيو «دي شارتر» ؟ أم أنّك قد سئمت الزوراق الطويلة ، والقنوات المزدانة جوانبها بالقصور ، وحمّام ساحة «سان مارك» ؟ اعترف أنّي وقد زرت «البندقية» مرّات مازلت أحبّها .

فوافقها فهو يحبّ «عروس الأدرياتيك» كما تحبّها ، وكلّما ذهب اليها تبدّل من مثّال الى رسّام ، لكنّ جوّها الذي كان بودّه لو يرسمه!

وقال :

- في كلّ مكان غيرها ، حتّى في «فلورنسا» ، نجد السماء عالية ، قاصية ، نائية ، أمّا في البندقية فهي في كلّ مكان . هي تحنو على الأرض حنوّها على الماء . وتحجب القباب القاتمة والواجهات المرمرية ، وتسكب لآلئها وبلّورها في الفضاء الملوّن بألوان قوس قزح . إنّ جمال البندقية في سمائها ونسائها . تبارك الله ماأجمل نساء البندقية! إنّهن ذوات أجسام منبسقة غاية في الجرأة والصفاء . وماأبدع هيف القدّ الميّاس تحت الشال الأسود! ووالله لو أنه لم يبق من بدن امرأة منه سوى عظمة واحدة لأنبأت هذه العظمة بجمال شكلها الفائق!... وفي أيّام الآحاد ، يجتمعن في الكنيسة أسراباً ، ضاحكات ، مهتزّات ، فتجدين القامات الهيفاء ، والنحور الجميلة ، والبسمات الرقيقة ، والنظرات المتوقّدة ، وتنحني جماعتهنّ بلين أعطاف الظباء إذ مرّ بها قسّيس غليظ العنق متدلّية لحيته على مرألته ، وفي يده كأس القربان ، ويتقدّمه الغلامان المرتّلان .

سار « دي شارتر» غير متّزن الخطا ، مدفوعاً بفيض أفكاره . وكانت خطاها أكثر انتظاماً وأسرع من خطاه قليلاً ، فنظر اليها نظرة جانبية فرأى الخطا الموزونة والتخطّر اللدن الثابت الذي يهواه ولاحظ الحركة الصغيرة التي يهزّ بها رأسها الثابت ، ما بين فترة وفترة ، ذلك الغصن الذي يزيّن قبّعتها .

وكان «دي شارتر» متأثّراً بجمال الصحبة ، التي ارتفعت الكلفة منها ، مع غادة لم يكد يعرفها .

ووصلا الى المكان الذي يبدي الشارع الفسيح صفوفه الأربعة من

الأشجار . وكانا يتبعان ذلك السد الحجري القائم عليه سياج يخفي ، لحسن الحظ ، بشاعة الأبنية الحربية التي على جانب الميناء . ووراءه ، كان النهر يعلوه ذلك الضباب الخفيف المتشبّع به الجو والذي يكون على سطح المياه حتّى في الأيام المُصحِية . وكانت السماء صافية الأديم ، فامتزجت أضواء المدينة بأنوار المواكب .

فقال :

ـ كنت في «البندقية» في العام الماضي أرى عند خروجي من البيت كلّ صباح صبية قسيمة وسيمة ، ذات رأس صغير ، ونحر قوي مستدير ، وقوام عادل ، جالسة عند بابي على قيد ثلاث خطا من القناة... هناك رأيتها مرّة في نور الشمس ، بين الحشرات والهوام ، نقيّة كآنية العطر ، شهيّة كالزهرة . تبسّمت... فيا لثغرها!... إنه كان أغلى الدرر في أبهى الضياء! وما لبثت أن تبيّنت أن تلك الابتسامة كان مقصوداً بها صبيّ قصّاب «جزّار» حالاً ورائي ، وعلى رأسه سلاله!

وعند زاوية الشارع القصير المنحدر حتّى الميناء بين صفّين من البساتين الصغيرة ، تمهّلت الكونتس في سيرها ، وقالت :

ـ حقّاً إنّ نساء البندقية جميلات .

ـ يكدن يكنّ كلّهن جميلات ياسيدتي! وإنّي أعني بكلامي بنات الشعب ، عاملات السجاير وصانعات الزجاج... أمّا الأخريات فهنّ في كلّ مكان سواء...

ـ أتعني بالأخريات النساء النابهات ؟ فهؤلاء لاتحبّهن ؟

ـ النساء النابهات! أوه! إنّ بعضهنّ فاتنات ، أمّا الوقوع في أشراك هواهنّ فأمر ذو خطر!

ـ أوتظنّ ذلك ؟

ومدّت إليه يدها ، واختفت بغتة في منعطف الطريق .

٥

في ذلك المساء ، كانت «تريز» وزوجها يتناولان العشاء منفردين . ولم تكن ثمّة زينات على المائدة التي ردّت الى حجمها العادي . وكانت ثريّات الأضياف مطفأة . فأخذ يتكلّم عن شؤون اليوم وهي منصرفة الى هواجسها غارقة في أحلامها الحزينة . وخيّل اليها أنها تسير في ضباب وقد ضلّت وبعدت عن كلّ شيء . ورأت ، بطريقة مبهمة ، كأنها تنتظر في الظلمات وترى من خلال الضباب غرفة شارع «سبونتيني» الصغيرة يحملها الزبانية الى إحدى قمم جبال هيملايا وقد زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها كأنه يوم الحساب . وإذا بعشيقها قد اختفى بسكون وهو يضع قفّازيه في يديه . فجسّت نبضها لترى أهي تعاني الحمّى . ونبهّها بغتة رنين فضّيّات المائدة ، فسمعت زوجها يقول :

ـ اليوم يا صاحبتي العزيزة ألقى «جافو» في المجلس خطبة بديعة في مسألة المعاشات . وإنه لخارق للعادة أنّ أفكاره أصبحت الى هذا الحد نيّرة ، فصار الآن يرمي عن قوس الصواب . وكان نجاحه باهراً .

فلم تقدر على إخفاء ابتسامتها ، وقالت :

ـ لكنّ «جافو» ياصاحبي مخلوق مسكين ، فهو لم يفكّر قط في شيء وراء النهوض من طائفة الطغّام وجماعة الجيّاع وشق الطريق لنفسه بينهم . فأفكاره كلّها في ذراعيه وبهما يزحم الناس ، أصحيح أنهم أصبحوا يجعلون

«لجافوا» هذا في عالم السياسة شأناً ؟! ثق أنه لم يخدع امرأة واحدة ، حتّى ولازوجته! ومع ذلك فمثل هذا الضرب من الخديعة سهل وليس أمراً جللاً... . كما أؤكّد لك!

وعقبت على ذلك بغتة بقولها :

ـ تعرف أنّ «مس بل» دعتني الى تمضية شهر عندها في «فييزول» . وقد قبلت دعودتها . فأنا مسافرة .

فسألها ، ودهشه أقلّ من استيائه ، عمّن تسافر معه . وكان الجواب حاضراً فألقته من فورها :

ـ مع «مدام مارميه» .

فلم يجد مايقوله . لأنّ «مدام مارميه» كانت رفيقة ذات مكانة شريفة ، وهي تصلح بخاصة لرحلة الى ايطاليا حيث قام المرحوم زوجها «مارميه الانيروسكي» بالاستكشاف والحفر في سراديب المقابر . فلم يقل إلاّ :

ـ وهل أخبرتها ؟ ومتى ستسافرين ؟

ـ في الاسبوع القادم .

فكان من الفطانة بحيث لايبدي إذ ذاك اعتراضاً ، لعلمه أنّ المعارضة لاتأتي إلا بتثبيت ماحسبه ميلاً عارضاً ، وخشي تكوين هذه الفكرة الخرقاء في نفسها ، فقال برقّة :

ـ إنّ السفر بالتأكيد سارٌ للغاية . وكنت أفكّر في قيامنا برحلة في الربيع الى «القوقاز» و «التركستان» وما وراء بحر «قزوين» . فذلك إقليم بهيج وغير معروف كثيراً ، وهناك «الجنرال انكوف» يضع تحت تصرّفنا عربات وقُطُراً بأكملها على سكك الحديد التي أنشأها ، وهو صديق لي ومن المعجبين بك ، وسوف يمدّنا بحامية من القوزاق تقوم بحراستنا ، ومثل هذه «التجريدة» حقيقة بأن تغرينا وتستهوينا!...

ومضى يلحّ في التأثير فيها من ناحية متاع الغرور ، لأنه ماكان يتصوّر أن تكون لها نفس غير دنيوية كنفسه مندفعة بكلّيتها بالأنانية .

فأجابت غير مكترثة ، ربّما كانت الرحلة بديعة . فأخذ يطري جبال «القوقاز» والمدن القديمة وأسواق البيع والشراء وأنواع السلاح والأزياء ، وأضاف :

ـ وسنأخذ معنا بعض أصحابنا كالأميرة «سينافين» والجنرال «لاريفيير» وربّما أخذنا «فانس» أو «لومنيل»...

فأجابت ضاحكة ضحكة صغيرة جافة ، إنّ الوقت لم يحن بعد لاختيار المدعوّين...

فأبدى انتباهاً اليها وعطفاً عليها بقوله :

ـ أراك لا تأكلين! إنّك تفقدين الشهية......

ومع أنه كان لايصدّق هذا السفر الفجائي ، فقد انزعج له . وكان كلاهما قد استعاد حرّيته ، لكنه لم يكن يحب أن يبقى وحده يوماً ، وكان لايشعر بنفسه وراحتها إلاّ ومعه زوجه وبيته على أتمّه ، وفوق ذلك كان معتزماً إقامة مأدبتين أو ثلاث مآدب سياسية كبيرة أثناء انعقاد البرلمان ، إذ رأى حزبه ينمو وهذه هي اللحظة التي فيها يثبت نفوذه ويعلو صوته .

فقال متحفّظاً :

ـ قد تأتي أزمة نحتاج فيها الى معونة أصدقائنا جميعاً . أفلم تتبعي تطوّر الأحداث «يا تريز» ؟

ـ لا يا صاحبي .

ـ يؤسفني هذا ، لأنّك ذات رأي صائب وفكر ثاقب ، ولو أنّك اهتممت بالسياسة وتتبّعت مجرى الحوادث لدهشت من نمو الأراء المعتدلة في أنحاء البلاد وازديادها . فقد سئمت البلاد التطرّف والمغالاة وأصبحت لاتريد رجالاً مشبوهين يجتمعون بين السياسة الراديكالية والاضطهاد الديني . وسيأتي يوم تؤلّف فيه وزارة «كازيمير ـ بريه» أخرى ، أي من رجال جديدين ، وعندئذ...

ثمّ وقف عن الكلام ، فقد كانت غير صاغية له ولامعنيّة به . وتاهت في

عالم الأحلام حزينة يائسة . وخيّل اليها أن تلك المرأة الجميلة التي كانت هناك في دفء الحجرة المغلقة وظلّها ، واقفة حافية على سجّادة سمراء مصنوعة من جلد الدب ، بينما عشيقها يقبّل قفاها وهي تعقص شعرها أمام المرآة ، خيّل اليها أن تلك المرأة لم تكن هي بعينها ، ولم تكن امرأة تعرفها أو تحبّ أن تعرفها ، وإنّما هي سيدة أعمالها لاتهمّها... .

وعندئذ سقط دبّوس لم يكن مثبّتاً جيداً ، دبّوس من تلك الدبابيس التي كانت في كأس الزجاج البوهيمية ، سقط من شعرها على عنقها فانتفضت .

قال « الكونت مارتن بليم » :

ـ نعم ، فعلينا أن نقيم ثلاث مآدب أو أربعاً للساسة أصدقائنا ، وسندعو خصومنا كما ندعو أنصارنا على السواء . وينبغي أن تكون هناك أيضاً بضع نساء مليحات ، وكذلك أرى أن ندعو « مدام دي لامال » التي مضى الآن عامان على مادار حولها من القيل والقال ، فما رأيك ؟

ـ لكنّني ياصاحبي مسافرة في الاسبوع القادم .

فبهت ، وخرجا معاً وكلاهما صامت عابس ، الى البهو الصغير حيث كان « بول فانتس » ينتظر ، وكان يأتي عادة في المساء بلا كلفة فصافحته قائلة :

ـ لشدّ ما تسرّني رؤيتك ، وأريد أن أودّعك الى حين ، فباريس باردة الجو قاتمة الأديم ، وجوّها هذا يتعبني ويحزنني ، فأنا ذاهبة الى « فلورنسا » ، لتمضيه بضعة أسابيع عند « مس بل » . فرفع الكونت « مارتن بليم » حاجبيه .

فسألها « فانس » ألم تسافري مراراً الى ايطاليا . فأجابته :

ـ بلى ، ثلاث مرّات . بيد أنّي لم أر شيئاً وقد اعتزمت هذه المرّة أن أرى ، وأن أغسل نفسي وأغطّسها فيما حولي . وسأجول من « فلورنسا » جولات في « تسكانيا » و« أمبريا » وانتهي بالذهاب الى « البندقية » .

ـ تحسنين صنعاً ، فإنّ «البندقية» تعد استراحة الأحد من أسبوع ايطاليا المبدع العظيم الآلهي...

ـ إنّ صديقك دي «شارتر» حدثني حديثاً خلاباً عن «البندقية» وجوّها الشبيه باللآلىء .

ـ نعم ، إنّ السماء في البندقية مصوّرة ، وهي في فلورنسا روحية ، وقال مؤلّف قديم : «إنّ السماء الفلورنسية الخفيفة اللطيفة توحي بديع الفكر» . ولقد قضيت أيّاماً طيبة في «تسكانيا» ، وبودّي لو أذهب اليها مرّة أخرى .

ـ إذاً فهلّم الى ملاقاتي بها...

فغمغم متنهّداً :

ـ الصحف والمجلاّت ، والأشغال اليومية!

فقال الكونت «مارتن بليم» إنّ هذه أسباب وجيهة . فقرّاء المسيو «بول فانس» يتمتّعون بكتبه ومقالاته الى غاية لايرضون معها أن يبتعد عن عمله .

فقال «بول فانس» :

ـ أجل! كتبي!... إلا أنّ المرء لا يقول قط في كتاب مايريد في الحقيقة أن يقوله . فمحال أن يفصح المرء عن فكره تمام الإفصاح . وإنني أعرف كيف أتكلّم بقلمي كأي أحد غيري ، لكن واحربا من الكلام ، من الكتابة! إذ فكّرنا فيها فما أتفه مانجد تلك العلامات الصغيرة التي تؤلّف المقاطيع والألفاظ والجمل... ترى ماذا يجري للفكرة ، للفكرة الجميلة ، بين مثل هذه الهيروغليفات الخبيثة التي تعد شائعة وشاذّة في وقت واحد ؟! ماذا يفعل القارئ بصفحتي المكتوبة ؟... سلسلة من فهم خطأ ، وفهم معكوس ، وفهم معدوم . إنّ القراءة والفهم هما الترجمة ، وقد توجد ترجمات بديعة ، ولكن لاتوجد ترجمات أمينة . فماذا يعنيني اذا كانوا يعجبون بكتبي ماداموا يضعون فيها دوماً ما يعجبهم ؟! إنّ كل قارىء يحلّ خيالاته محل خيالاتنا ، وكل ما نفعله بكتاباتنا هو دغدغة مخيّلات وزعزعتها!!... فبئس ما يفعل المرء بتقديمه مادة لمثل هذا . قبّحت من مهنة!

فقال «الكونت مارتن» :

ـ أنت تمزح!

فقالت «تريز» :

ـ ما أظن! وإنما هو يعترف بأنّ النفوس ممتنعة بعضها على بعض . وهو لذلك يألم . هو يشعر بنفسه وحيداً وهو يفكّر ، ووحيداً وهو يكتب ومهما يفعل المرء فهو أبداً في هذه الدنيا وحيد . هذا مايعنيه . وهو مصيب . فقد يعبّر المرء عمّا في ضميره ، وقد يبيّن عن ذات نفسه دائماً ، على أن كنهه لا يفهم أصلاً ولايدرك أبداً .

فقال «بول فانس» :

ـ لكن هناك الحركات والاشارات...

ـ ألا تراها يا مسيو «فانس» نوعاً آخر من الهيروغليفات! ؟ لكن ألا تقول لي أخبار مسيو «شولت» ؟ فإنّي لم أعد أراه .

فأجاب «بول فانس» إنّ «شولت» مشغول في هذه الأيام بإعادة تشكيل الطبقة الثالثة من رهبنة القدّيس «فرانسوا» . وقال :

ـ وقد خطرت له فكرة هذا العمل ياسيّدتي بطريقة عجيبة في ذات يوم إذ كان يزور «ماريا» بمسكنها في الشارع الذي وراء «أوتيل ديو» هذه هي القدّيسة الشهيدة صاحبته التي تكفّر في زعمه عن خطايا البشر!...

وشدّ «شولت» حبل الجرس الذي نال منه شدّ الزائرين له مدى جيلين . وسواء أكانت الشهيدة «ماريا» عند تاجر النبيذ الذي اعتادت الترداد عليه أم كانت في غرفتها فهي لم تفتح الباب .

فاستمرّ «شولت» يشدّ ، ويشدّ بقوّة ، الى حد أن الحبل ومقبضه طلع في يده . ولحذقه بفهم الكنايات ومعاني الأشياء الخافيات فطن لساعته أن الحبل لم يقطع دون إذن مافوق الطبيعة من القوى الروحانية ، وأخذ يتمعّن في هذا الحادث الجلل ويتأمّل . وكان الحبل القنّب أسود اللون لزجاً متوتّراً من الأقذار تتمنطق به حزاماً للعفّة ، وعرف أنه اختير لإعادة الدرجة الثالثة

من الرهبنة التي سنّها «القدّيس فرانسوا» الى حالة الطهارة الأولى . فنبذ جمال المرأة ، والتشبب والهوى ، ولذّات القريض ، وجلال المجد ، وكرّس وقته لدرس حياة القدّيس المبارك وتعاليمه . وفي تلك الأثناء باع الى ناشر كتبه كتاباً اسمه «المداعبات» يحوي ، على قوله ، وصف أنواع الغرام . وهو مزهوّ بظهوره مظهر الآثم في حذاقة ولباقة . على أنّ كتابه هذا لايتدخّل في مشاريعه الخفيّة أو يعارضها بحال . بل على الضد سيصلحه المؤلّف التالي فيبدو شريفاً في الغاية ومثالاً ينسج على منواله . وسيمكنه من الحج الى «اسيزي»[1] الذهب ، أو على حد قوله ، القطع الذهبية التي ماكانت لتكون وفيرة الى هذا الحد لو أنّ كتابه كان آدب وأحشم!

فطربت «الكونتس مارتن» من الحكاية أشدّ الطرب ، وسألت «فانس» عن مبلغها من الصدق . فأجابها أنه يجب ألاّ تسأل أو تحاول أن تعرف!

واعترف موارية أنه مثل حكاية الشاعر وزوّقها . وإنّ الوقائع التي رواها يجب ألا تؤول تأويلاً حرفيّاً أو يهوديّاً...!! لكنه ، على الأقل ، يؤكّد أنّ «شولت» ينشر الآن كتاب «المداعبات» ويرغب في زيارة صومعة وقبر «القديس فرانسوا» .

فصاحت «الكونتس مارتن» :

ـ إذا كان الأمر كذلك أخذته معي الى ايطاليا . فعليك يا مسيو «فانس» أن تجده وتأتي به ، فإنّي مسافرة في الاسبوع القادم .

فخرج «الكونت مارتن» معتذراً بأنّ عليه إتمام تقرير وتقديمه في اليوم التالي فلا يستطيع إطالة المكث معهما .

فقالت «الكونتس مارتن» : إنه لايوجد من يدخل على نفسها الحبور أكثر من «شولت» .

---

(١) مسقط رأس القدّيس فرانسوا .

فقال «بول فانس.» إنه أيضاً يعدّه فذّاً في إنسانيّته :

ـ إنه يختلف كثيراً عن أولئك القدّيسين الذي نقرأ عن حياتهم الخارقة العادة . فهو مخلص مثلهم وله مشاعر رقيقة حسّاسة ، وله نفس عنيف تأثّرها شديد انفعالها . وإذا كان الكثير من أعماله يدهشنا ويحيّرنا فذلك لأنّه أضعف وأقل ضبطاً للنفس من القدّيسين والأولياء الصالحين ، أو ربّما لأنه يراقب عن كثب أكثر منهم! وفوق ذلك قد انشقّ من القدّيسين ، كما انشقّ من الملائكة ، شياطين! فلعلّ «شولت» قديس شيطان ، وكفى! بيد أنّ أشعاره في الحق روحية ، وهي أبدع بكثير مما وضعه من هذا القبيل أساقفة البلاط وشعراء التياترو في القرن السابع عشر...

فقاطعته قائلة : ــ على فكرة ، أريد أن أهنّئك بصديقك «دي شارتر» . إنه روح جذّاب . ثمّ أضافت :

ـ على أنّي أظنه شديد التحرز... أكثر مما يجب...

فذكّرها «فانس» أنه طالما قال لها إن «دي شارتر» سيروقها :

ـ إنّي أعرفه حقّ المعرفة قلباً وقالباً . فهو صديق منذ الطفولة .

ـ أتعرف أسرته ؟

ـ نعم ، إنه الابن الوحيد لفيليب دي شارتر .

ـ المهندس ؟

ـ المهندس ، الذي أعاد بناء عدّة صروح وكنائس في «تورين» و «اورليان» في عهد نابليون الثالث . وكان رجلاً موفور الذوق والمعرفة ورقة الحاشية ، ولو أنه كان يؤثّر العزلة . وقد أخطأه التبصّر إذ طعن على «فيوليه ليدوك» المهندس المشهور الذي كان في ذلك الحين في أوج مجده . فنعى عليه رغبته في تكميل المباني وفاق مواصفاتها الأصلية . وكان «فيليب دي شارتر» على الضد يرى احترام كل ما أضافته الأجيال تدريجيّاً على الكنائس والأديرة والقصور . وكان دائماً يقول : «إنها لجناية أن نمحي ماطبعته أيادي أسلافنا وأرواحهم على الحجر على مدى العصور ، فما الحجارة الجديدة

المقطوعة على غرار قديم إلاّ شهود زور!!» .

فكان من رأيه تحديد عمل المهندس بتقوية المباني ودعمها وصلبها . وكان الحق في جانبه . بيد أنهم سفّهوا رأيه . وأتمّ عليه السقوط موته في مقتبل العمر على حين كان خصمه في ذراه... ومع ذلك ترك لأرملته وابنه ثروة كافية حلالاً . وتثقّف «جاك دي شارتر» على يديّ أم كانت تعبده عبادة . وما كنت أحسب حبّ الأم يبلغ هذا المبلغ . ولعمري إنّ «جاك» فتى ظريف ، ولو أنه طفل مدلّل!

ـ ومع ذلك يبدو خليّ البال ، ليّن العريكة ، ويلوح عليه أنه من الزاهدين!...

ـ لا تؤمني له! إنه في ذاته عقل قلق لا يهدأ ، ويسبّب للغير عدم الهدوء... إنه مخيلة معذّبة معذَّبة .

ـ وهل يحب النساء ؟

ـ ولمَ تسألين ؟

ـ أوه! ليس لإعداد زوج له!

ـ نعم إنه يحبّ النساء . ولقد قلت لك إنه أناني ، والأنانيّون وحدهم هم الذين يحبّون النساء حقاً . وبعد موت أمّه قضى زمناً غير قصير متّصلاً بممثّلة معروفة تدعى «جان تانكريد» .

فقالت «الكونتس مارتن» إنها تكاد تذكر «جان تانكريد» هذه ، فهي امرأة ليست موفورة الحسن وإن كانت حسنة قسامة الجسم ، وذات رقّة واهنة نوعاً ما في تمثيلها دور العاشقة .

ـ هي بعينها . وكانا يعيشان عيشاً متّصل الأسباب ، في بيت صغير بقرية الياسمين في «زوتاي» وكنت لاأفتأ أزورهما فأجده تائهاً في أحلامه ناسياً أن يصوّر شكلاً جفّ تحت غطائه ، عاكفاً على ذاته غير معني بسوى أفكاره ، غير قادر على الإصغاء لأي أحد . وتكون هي في تلك الأثناء تستظهر أدوارها ، وخداها يشتعلان بالحمرة الصناعية ، وفي عينيها معاني

الحب والحنان . وهي تعدّ خلاّبة في ذكائها وغيرتها . وكانت تشكو شرود لبّه وعبوسة وجهه وحدّة خلقه وهياج طبعه . وقد أحبّته حقّاً . ولم تخدعه قط إلاّ لتقوم بدور تمثيلي ، فإذا خدعته انتهت خديعتها وشيكاً ، فلا تفكّر فيها بعد . امرأة رشيدة . بيد أنها أباحت أن يراها الناس بصحبة « جوزيف سبربجر » الذي وثّقت معه عرى المودّة على أمل أن يدخلها مسرح « الكوميدي فرانسيز » فغضب « دي شارتر » وهجرها . وهي الآن ترى العيش مع مديري الجوقات أصلح لها . ويؤثر « جاك » السياحة والسفر...

ـ وهل يأسف عليها ؟

ـ ومن ذا الذي يعرف مايكون من روح حائر وعقل قلق ، متعطّش لإعطاء نفسه ، سريع الرغبة في استرداد عطيّته ، أناني ، ولوع ، يعشق نفسه عشقاً حاراً في كل مايجده مثلها جميلاً في الوجود .

فغيّرت مجرى الحديث فجأة بقولها :

ـ وماتمّ في روايتك يامسيو «فانس» ؟

ـ إنّي أكتب فصلها الأخير يا سيدتي . فإنّ نقاشي الصغير قد قطع عنقه ، فمات بلا مبالاة كعذارى القانتات غير ذوات الشهوات ، اللواتي لم يشعرن قط بأنفاس الحياة الحارة على شفاههن . ونزلت الصحف والناس على حكم القضاء والرضاء بما أنفذه . لكن صانعاً آخر يسكن حجرة في سطح بيت يشتغل بالكيمياء ويعيش في قناعة وأسى يقسم على أن يثأر لزميله .

ثمّ نهض واستأذن ، فأهابت به قائلة :

ـ مسيو « فانس »! أنت تعرف أنّ المسألة جدّية ، فهات لي « شولت »!

ولمّا صعدت الى غرفتها ، كان زوجها متربّصاً لها وهو في ثوب البيت المصنوع من المخمل ، وعلى رأسه قلنسوة أحاطت بوجهه الممتقع الغائر الخدّين البادية عليه سيماء الرزانة . ووراءه ، من خلال باب حجره مكتبه المفتوح ، ظهرت تحت المصباح ، مجموعة من الأضابير والوثائق وكتب الميزانية السنوية الزرقاء اللون وكلّها مفتوحة على جلدتيها .

وقبلما تتمكّن من دخول حجرتها أشار اليها أنه يرغب في مخاطبتها ، فقال :

ـ إنني لاأفهم قصدك ياصديقتي العزيزة ، فإنّ عواقب طيشك قد تكون وخيمة . أراك بلا مسوّغ ، بل وبلا عذر ، تهجرين بيتك وتؤثرين السياحة في أوربا . ومع من ؟ مع «شولت» ذلك الغجري السكيّر ؟!

فأجابت أنها مسافرة مع «مدام مارميه» ، وليس في هذا مايشين .

ـ لكنك تخبرين كل إنسان بسفرك ، ومازلت تجهلين أتستطيع «مدام مارميه» مرافقتك أم لاتستطيع .

ـ أوه! إنّ «مدام مارميه» اللطيفة تستطيع بالحال أن تجهّز حقائبها ، فليس لديها مايعوقها في باريس إلاّ كلبها ، وسوف تتركه لك لتعتني به!

ـ ووالدك ؟ أأنبأته بغرضك ؟

وكانت سلطة أبيها «مونتسوي» هي الملاذ الأخير الذي يفزع اليه اذا ماتجوهلت سلطته . وكان يعرف أن زوجه تخشى أباها وتحسب له حساباً كبيراً وتتحاشى تكديره أو اعطاء فكرة سيئة عنها ، فتمسّك بهذا قائلاً :

ـ إنّ والدك عالي الفطنة ، بصير بحقائق الأمور ، ولشد ما كنت سعيداً بأن وجدت نفسي وإيّاه على وفاق فيما وجّهت اليك من نصح في مختلف الظروف وعديدها ، وهو على رأيي في أن سيدة في مثل مكانتك لايليق بها زيارة «مدام ملآن» . فإنّ وسطها مختلط ، عدا ماعرف عنها من أنها إمرأة دسّاسة ، وعليّ أن أخبرك صراحة أنّك تخطئين كثيراً باستهانتك بالرأي العام ، وأكون خاطئاً إذا لم يجد والدك غرابة في سفرك بهذا الطيش والاستهتار ، وسيكون رحيلك ملحوظاً بخاصّة في هذه الأيام ، واسمحي لي أن أذكّرك ياصديقتي العزيزة بأنّ تطوّر الحوادث لفت الينا الأنظار في دورة البرلمان الحالية ، وليس لأهليّتي بالتأكيد دخل في هذا . فلو أنّك كنت على استعداد للإصغاء اليّ على المائدة لكنت أثبتّ لك أن الحزب السياسي الذي أنتمي اليه يوشك أن يقبض على أزمة الأمور ويفوز بالحكم ، وليس في مثل

هذه اللحظة تنسين واجبك باعتبار أنك سيدة هذه الدار ، وعليك أن تدركي ذلك من تلقاء نفسك . فأجابت :

ـ إنّك تضايقني!

ثمّ طوت عنه كشحاً ، وذهبت فأوصدت حجرتها عليها .

●

وفي ذلك المساء بعينه اضطجعت في سريرها ، وفتحت كتاباً قبل النوم كعادتها ، وكان قصة . فقلّبت صفحاته عرضاً ، حتّى لفتت نظرها هذه السطور :

«الحب كالتقوى : يأتي متأخراً . وقلّما تكون المرأة عاشقة أو تقيّة في سنّ العشرين ، مالم تكن ذات استعداد خاص ، ذات نوع من القداسة الفطرية . وحتّى المقدر عليهن ، المصطفيات أنفسهن ، يقاومن طويلاً نعمة الحب هذه لأنها أشد هولاً من الصاعقة التي تنقضّ على طريق «دمشق» . فالمرأة غالباً لاتستسلم الى الغرام إلاّ في السن التي لاتزعجها فيها الوحدة ، فما الغرام إلاّ صحراء قاحلة ، صحراء «طيبة» المحرقة . إنّ الغرام زهد دنيوي كالزهد الديني في خشونته سواء بسواء . لذلك نرى الغرام العظيم نادراً في النساء ندرة الزهد العظيم .

«وأولئك الذين حلبوا شطري الدهر ، وسبروا غور الحياة والعالم ، يعلمون أن النساء لايلبسن عن طيب خاطر ، فوق جسومهن الرقيقة ، قميص الحب الصادق المصنوع من الوبر . ويعلمون أنه ما من شيء أندر من التضحية الطويلة الأمد ، ويتأمّلون في مبلغ ما على المرأة ، امرأة العصر ، أن تضحّي به ـ إذا ما أحبّت ـ من حرّيتها وصفائها ومرح نفسها الطليقة ودلالها وملاهيها ومسرّاتها ، وقصارى القول : التضحية بكلّ شيء ، لأنها تخسر كل شيء .

«الغزل البريء مسموح لها به ، فهو يتمشّى وحاجات الحياة المترفة . أمّا العشق ، فلا . فالعشق هو أقل العواطف متاعاً دنيوية ، وأكثرها مخالفة

للعرف ، وأشدّها وحشية ، وأظهرها همجية ، لذلك يحكم عليه الناس حكماً أقسى من حكمهم على الغزل البريء وخفة الطبع . والناس مصيبون من وجهة واحدة .

«فالمرأة الباريسية العاشقة تناقض طبيعتها وتقصّر في أداء وظيفتها التي تقضي عليها بأن تكون للجميع كطرفة من طرف الفن . إنها عمل فنّي ، وأعجب ما أنتجه أبداً فنّ الانسان . هي استنباط مجيد ، ثمرة اتّصال الفنون الآلية بكافة الفنون الحرّة . فهي الصنيعة المشتركة ، وهي الخير العام ، وواجبها هو «الظهور» .

فأقفلت «تريز» الكتاب ، وقالت في نفسها ، إن هذه هواجس القصصيين الذين لم يعرفوا الحياة . فهي تعلم علم اليقين أنه في الحقيقة ليس ثمّة جبل عواطف كجبل «الكرمل» . كما أنه لايوجد قميص حب من الوبر ، ولا تعلّق جميل مهول يقاومه المصطفيات المقدّر عليهن مقاومة لانفع منها .

كانت تعرف أن الحب ماهو إلاّ نشوة قصيرة إذا مضت تركت صاحبها محزوناً نوعاً ما ، ومع ذلك كلّه ، فآهٍ ، ليتها كانت تكون غير عارفة كل شيء! فيكون هناك حب تهوى فيه المرأة قريرة العين!

●

أطفأت مصباحها . فعادت اليها من أقصاء الماضي أحلام رَوْق شبابها .

٦

وكان اليوم مطيراً .

فرأت «الكونتس مارتن» ، من وراء نافذة عربتها التي غشيها الماء ، عدداً وفيراً من المظلآت يسير تحت مطر السماء كأنه سلاحف سوداء .

وطفقت تفكّر ، فجاءت خواطرها قاتمة غامضة كمنظر الشوارع والساحات الذي حجبته وأخفته الأمطار...

فلم تعد تعرف كيف خطر لها أن تسلخ شهراً عند «مس بل» . ولم تستطع أن تتبيّن سبب نشوب هذا العزم في نفسها ، وقد كان أوّل امره كينبوع تظلّله أوراق النيلوفر ، فاستحال الآن سيلاً جارفاً .

وذكرت ما قالته يوم الثلاثاء على العشاء من أنها تريد السفر ، لكنّها لم تستطع أن تتقرّى منشأ رغبتها تلك . ولم يكن بودّها معاملة «روبير لومنيل» بمثلما عاملها به ، واحدة بواحدة والبادي أظلم ، فلا مراء أنها ارتأت أن خيراً لها وأولى بها أن تذهب للتنزّه على حين يشتغل صاحبها بصيد الثعلب . وكان ذلك أمراً ساراً موافقاً . إذ أنّ «روبير» الذي يبتهج عادة كثيراً بلقائها بعد طول البعاد ، لن يجدها إن عاد ، ولقد بدا لها أن تكتم هذه المعاكسة ، وأن تخيّب فيه رجاءه . لكنّها لم تكن فكّرت في هذا من قبل ، وقلّما فكّرت فيه من بعد . ولم يكن باعث سفرها في الواقع الرغبة في التلذّذ بإيلامه ، أو المجون أو المؤاخذة ، لأنها لم تشعر من نحوه شعور

نكاية ولكنّ شعورها كان مكيناً دفيناً ، وكل ما في الأمر أنها كانت لاتريد رؤيته وشيكاً ، فأصبح صاحبها غريباً عنها دون أن ينقطع مابينهما ، وبدا لها رجلاً ككل رجل ، وإن كان أحسن من كثير ، لما هو عليه من وسامة واستقامة . إنها لم تكن تنفر منه لكنه لم يكن يشغل بالها كثيراً . لقد خرج فجأة من حياتها ، وإن لم تشعر بارتياح كلّما ذكرت الى أي حد مازجها ، أمّا أن تعود فتكون له ، فقد صدمتها هذه الفكرة ورأتها معرّة . وأمّا اجتماعها مرّة أخرى في مسكن شارع «سبونتيني» الصغير فكان من الإيلام لها بحيث أبعدته للحال عن مصوّرتها ، وودّت لو أن حائلاً يحول دون عود اتّصالهما ورجع شملهما ، كوقوع حادث غير منظور لكن لامندوحة عنه ، كفناء الدنيا ، مثلاً! ولم لا ؟ فقد سمعت ليلة أمس في دار« مدام دي لورين » « مسيو لجرانج » عضو المجمّع العلمي يتحدّث عن مذنّب زعم أنه ربّما زلّ عن كبد السماء فالتقى بكوكبه السيّار فاشتمل الأرض ذنبه الملتهب وأحرقها بناره ونفث في حيوانها ونباتها سموماً مجهوله تقضي على الناس كافة من ضحك جنوني أو بله كئيب!...

فيجب أن يحدث شيء من هذا أو من مثله ، قبل حلول الشهر القادم ، لهذا لم تكن رغبتها في الرحيل بلا تأويل . لكن... ترى لماذا يداخل رغبتها في السفر فرح غامض ؟ ولماذا تشعر بأنها قد أصبحت تحت تأثير ماهي ذاهبة لتراه ؟ .

هذا ما استغلق عليها...

وأنزلتها العربة عند ركن شارع « دي لاشير » الضيّق . وهناك ، على سطح بيت مرتفع ذي شرفة طويلة تطلّ منها خمس نوافذ تدفئها الشمس في الصباح ، كانت « مدام مارميه » تقطن مذ مات زوجها في المسكن الصغير النظيف ، وكانت « الكونتس مارتن » قد جاءت تزورها في يوم زيارتها ، فوجدت « المسيو لاجرانج » في البهو المصقول أثاثه البسيط ، نائماً على مقعد كبير حذاء السيدة الرقيقة الوادعة تحت تاج مفرقها الأبيض ، ولقد ظلّ

هذا الشيخ العالم الدنيوي مخلصاً وفيّاً لها ، فأتى غداة وفاة زوجها يتلو عليها مرثاة مؤثّرة ظنّاً منه أنها تتعزى بها ، فإذا بالحزن والأسى قد برحا بها فسقطت بين ذراعيه مغشياً عليها...!

وعرفت فيه «مدام مارميه» رجلاً يعوزه التمييز ، فاتّخذته خدناً تذهب وإيّاه لتناول الطعام على موائد الأغنياء .

وجاءت «الكونتس مارتن» بجمالها الساحر وقوامها المائس ، وهي متدثّرة بفرائها السمّورية القاتمة ، فأرسلت من بريق عينيها النجلاوين الى ذلك الشيخ الصالح الحسّاس السريع التأثّر بجمال النساء ، فأيقظته...!

وكان قد تحدّث في سهرة الأمس على مائدة «مدام مورلين» عن فناء العالم . فسألها هل خافت إذ استحضرت مخيلتها تلك الصورة التي تمثّل الكائنات وقد التهمتها النار أو ماتت برداً فصارت بيضاء ناصعة كالقمر ؟ ؟

وبينما هو يحدثها في رقّة مصطنعة ، جعلت تنظر الى خزانة الكتب المصنوعة من خشب «الأكاجو» ، والتي تشغل فراغ حائط البهو المقابل للنوافذ ، ولم يكن باقياً بها إلا القليل ، وهناك ، على قاعدة وطيئة ، تمثال جندي شاكي السلاح . فاعجب لوجود فارس على رأسه خوذة من البرنز الصدىء وعلى صدره المفكّك درعه الصدئه في بيت السيدة الصالحة الطيبة القلب «مدام مارميه»!!

أمّا الكتب فقد باعتها في أزمة ترمّلها ، ولم تحتفظ من كل التحف التي جمعها زوجها العالم الأثري إلاّ بهذا الجندي «الاتروسكي»! وحاول أصدقاؤها أن يحملوها على الخلاص منه ، ووجد لها رفقاء زوجها القدماء صفقة ، وأغرى «بول فانس» إدارة متحف «اللوفر» بشرائه ، فأبت الأرملة الصالحة واستكبرت أن تبيعه وتفترق عنه! وجرى في زعمها أنّها إذا تخلّت عن هذا الفارس ذي الخوذة البرنزية الخضراء المتوّجة بإكليل من ورق الشجر المموّه بالذهب ، وضعت من قدر الاسم الذي تحمله معتزّة به ، فلا تعود أرملة «لويس مارميه» عضو مجمع الآثار!...

وعاد الشيخ «لاجرانج» يخاطب «الكونتس» بقوله :

ـ كوني مطمئنّة ياسيدتي ، فلن تصاب الأرض بنكبة من مذنّب بعد ، فوقوع مثل هذا الحادث بعيد الاحتمال... .

فأجابت «الكونتس مارتن» إنها لاترى كبير ضير في خراب الدنيا وفناء البشرية العاجلين .

فاحتجّ الشيخ «لاجرانج» محتدّاً ، إذ كان يرغب من كل قلبه أن يؤجّل وقوع النكبة .

فنظرت اليه فرأت أنه مازال في رأسه الاصلع بضع خصل من شعر مصبوغة بالسواد ، ورأت جفونه متدلّية كقطع من الخرق على عينيها اللتين مافتئتا ترأرآن . وكان وجهه الغضن أصفر فاقعاً لونه ، يخال للناظر اليه أنّ في برديه جثماناً يابساً متكمّشاً .

فقالت في نفسها : «إنه متعلّق بالحياة!» .

وكذلك لم ترغب «مدام مارميه» في أن يكون قريباً ما يوعدون . فقالت «الكونتس» :

ـ ألست تعيش يا مسيو «لاجرانج» في بيت صغير بديع تطل نوافذه على «حديقة النبات» ؟ فيظهر أنّ من متع الحياة العيش في تلك الحديقة التي تذكّرني سفائن نوح التي كنت أصنعها طفلة ، كما تذكّرني جنة عدن التي وعد بها المتّقون...

أمّا «مسيو لاجرانج» فكان لايجد البيت جميلاً بل صغيراً رديء البنيان مصاباً بالجرذان...

فأدركت «تريزا» أنّما الحياة كلها تعب ، وأن في كلّ مكان جرذاناً ، إمّا على الحقيقة ، وإمّا على المجاز... وهي كتائب من خلائق صغيرة عاكفة على تعذيبنا...

وبعد ماانصرف ، أطلعت «الكونتس مارتن» السيدة «مارميه» على ما تريده منها ، فقالت»

ـ إنّي مسافرة في الاسبوع القادم الى «افييزول» عند «مس بل» فأنت مسافرة معي!...

فسكتت «مدام مارميه» الصالحة قليلاً ، وجسّت بعينيها البرّاقتين تحت جبينها الهادئ...

ثمّ رفضت بتراخٍ...

فتوسّلت اليها...

وبعد لأي رضيت!...

٧

وقف قطار «مرسيليا» السريع، على أهبة السفر، الى جنب رصيف المحطة حيث كان الحمّالون يركضون وهم يدفعون عربات اليد، في الجوذي الدخان والجلبة، تحت ضوء النور الكابي الساقط من وراء بلّور السقوف. وكان المسافرون في معاطفهم الطويلة يروحون ويغدون أمام بوّابات العربة المفتوحة.

وهناك «الكونتس مارتن» و«مدام مارميه» الصالحة قد سبقتا فأخذتا مكانهما من العربة تحت رفّ ممتلىء بالحقائب، ووضعت الصحف على الوسائد بمقربة منهما.

أمّا «شولت» فلم يأتِ، وأمّا «الكونتس مارتن» فلم تعد تنتظره، وألقت حبله على غاربه. ومع ذلك كان قد وعدها أن تجده في المحطّة. وأخذ نفسه بالسفر معها. وقبض من الناشر ثمن كتابه «المداعبات». وكان «بول فانس» قد أتى به ذات مساء الى «كي دوبل» فألفته «الكونتس» رقيقاً مهذّباً موفور مسرّات الروح...

فجعلت مذ ذاك تمنّي النفس مغتبطة بسفرها مع رجل عبقري مثله، ناشز الطبع فاتن القبح فكه الجنون، وهاهي ذي قد رأت أنه غير آتٍ فغلّقت الأبواب، وأدركت أنها أخطأت بإتّكالها على شخص نزق جوّاب آفاق، وفي اللحظة التي بدأت القاطرة تدفع أنفاسها المبحوحة، أطلّت «مدام مارميه» من النافذة وقالت بهدوء:

ـ أظنّ أنّ هذا هو المسيو «شولت»!

وكان «شولت» مقبلاً على الرصيف يظلع بإحدى فخذيه ، واضعاً قبّعته على مؤخّر رأسه ذي النتوء ، شعث اللحية ، يجر سجّادة في كيس عتيق . وكانت هيئته تكاد تكون مروّعة ، ومع ذلك بدت عليه علائم الفتوّة وقد ناهز الخمسين ، وكان لعينيه الزرقاوين اللامعتين لألاء ورأراء ، وعلى وجهه الشاحب الغضن صلابة البساطة وجرأة السذاجة ، فإنّ بين جنبي هذا الشيخ كانت تسري الفتوّة الخالدة ، فتوّة الشاعر والفنّان ، ولاتزال بادية عليه .

فأسفت «تريز» وهي تنظر اليه على اختيارها رفيقاً لسفرها بمثل هذه الغرابة والشذوذ . وبينما كان «شولت» يخترق القطار أخذ يلقي على كل عربة نظرة سريعة صارت شيئاً فشيئاً مرتابة محاذرة . لكنه لمّا وصل الى عربة السيدتين ، وعرف «الكونتس مارتن» تبسّم عن رقة فائقة ، وصبّحها بالخير بصوت بلغ من النعومة مبلغاً لم يبق على شيء من ذلك المتشرّد المتوحّش الذي كان تائهاً على رصيف المحطة منذ قليل ، باستثناء كيس السجّادة العتيق البالي الذي كان يجرّه من أذنيه المكسورتين... ووضعه بعناية بالغة على الرف بين الحقائب الوجيهة المكسوّة بالتيل الرمادي ، فجعلها منظر كيس سجّادته ذات زخرفة مبتذلة لاأثر فيها لذوق . وبدت للعيان أزهار السجادة الصفراء الفاقعة على أرضها الحمراء بلون الدماء...

ولمّا استوى على مقعده ، هنّأ «الكونتس مارتن» مثنياً على «حرملة» معطفها ، وعقّب قائلاً :

ـ أي سيّدتي! أرجوكما المعذرة! فإنّي أخشى أن أكون قد تأخّرت ، فقد ذهبت في الساعة السادسة لحضور القدّاس في «سان سفران» بكنيسة «العذراء» الصغيرة ، تحت تلك الأعمدة الجميلة ، النحيلة كمزمار الغاب ، المتّجهة صوب السماء كأنها تبتعد مثلنا ، نحن المساكين الخاطئين...

فقالت «الكونتس» :

ـ إذاً أنت اليوم تقيّ ؟!

وسألته أأتي معه بزنّار طبقة الرهبنة التي ينشئها ، فوجم ، وقال :

ـ أخشى ياسيّدتي أن يكون مسيو «بول فانس» أفضى اليك بترّهات مضحكة في هذا السبيل . فقد سمعت أنه يتقوّل عليّ أنّ زنّاري زنّار جرس ، وأي جرس! إي وربّي! إنّ الأسف ليبلغ منّي لو أنّ أيّاً كان يصدّق تخرّصاته! إنّ زنّاري رمز ياسيّدتي في شكل خيط بسيط يعلّق تحت الثياب فيما يلي البدن ، بعدما يلمسه شخص فقير إشارة الى أنّ الفقر مقدّس ، والى أنه سوف ينجّي العالم . نعم ، فالخير مستحيل بغير الفقر . ومذ أخذت ثمن كتابي «المداعبات» شعرت بأنّي صرت فظّاً طاغياً (إن الانسان ليطغى أنْ رآه استغنى) ولديّ هنا في حقيبتي بعض هذه الزنّارات الرمزية لتبصرتي وتذكرتي فذلك خيرٌ وأولى .

ثمّ أشار الى كيس السجّادة البشع المنظر الأحمر لونه كالدم ، وقال :

ـ وفيه أيضاً قربان أعطانيه قسّ طالح غير صالح ، وفيه كتب «مسيو دي ميستر» وأقمصة ، وأشياء أخر...

فرفعت «الكونتس مارتن» عينيها في شيء من الفزع ، أمّا «مدام مارميه» فظلّت محتفظة بهدوئها .

وبينما كان القطار ينتهب الأرض انتهاباً ، ويشق الضواحي ، تلك الأطراف السوداء الكئيبة التي تحيط بالمدينة ، أخرج «شولت» من جيبه محفظة أوراقه وأخذ يقلّب مافيها ، وكشف الكاتب المتنكّر في ثوب جوّاب الآفاق عن نفسه ، وكان «شولت» من غواة جمع قصاصات الورق ، وإن كان لايحب أن يُعرف عنه ذلك . وكان يطمئن نفسه بأنه لم يفقد شيئاً منها حتّى ولا القصاصات التي يدوّن فيها خواطره الشعرية على نُضد القهوات ، لا ولا الاثني عشر خطاب تقريظ ، القذرة التي علّقت بها البقع وبصمات الأصابع ، حتّى بليت كافة ثناياها وهو يحملها دوماً تأهّباً لتلاوتها ، على ضوء مصابيح الغاز ، على من يتّفق أن يلقاه من عارفيه...

فلمّا رأى أنها موجودة برمّتها ، أخذ من محفظته خطاباً مفضوضاً ،

وقلّبه بين يديه طويلاً ، ثمّ ناوله «الكونتس مارتن» وكان خطاب تقدمه معطى له من «المركيزة دي ريو» الى أميرة من أميرات البيت الفرنسي المالك ، ولمّا استمتع «شولت» بالتأثير الذي ظنّ أن الكتاب لابدّ محدثه قال إنه قد يزور الأميرة فهي تقيّة صالحة ، وأضاف :

ـ إنها سيّدة بديعة حقاً ، لاتبدي للناس جلالها في ثياب وقبّعات ، فتردي ملابسها الداخلية ست أسابيع سوياً ، وأكثر من ذلك أحياناً! وقد رآها النبلاء أهل طبقتها مرتدية جورباً أبيض قذراً جداً متدلّياً على حذائها... وهي مجدّدة فضائل ملكات الأندلس العظيمات... فبخٍ بخ ياأيّها الجورب القذر!... يالك من دليل على مجد غير مكذوب!!!

ثمّ استردّ الخطاب ، وأعاده الى محفظته ، وأخرج مبراة مصنوعة من القرن ، وطفق يحفر صورة يكاد يتم نصفها ، على مقبض عصاه ، وهو في تلك الأثناء يصوغ لنفسه قلائد الثناء :

ـ أنا ماهر في فنون الشحاذين والمتشرّدين كافة أعرف كيف أفتح الأقفال بمسمار ، وكيف أحفر الخشب بمدية رخيصة مثلومة!

وبدأت ملامح الصورة تتجلّى ، وكانت تمثّل وجهاً نحيفاً لإمرأة باكية العينين... ورمى «شولت» بذلك الى وصف الشقاء الانساني وصفاً غير ما كان عند من سبقونا ، فقد كان هذا على بساطته مؤثّراً ، بل رمى الى تصوير شقاء الانسانية في شكله البشع وعلى حاله من القبح المرذول التي أنزله فيها أحرار الفكر من أوساط الناس ، والوطنيّون المتشيّعون للعسكرية ثمرة الثورة الفرنسية .

فعنده أنّ الحكم الحالي لايمثّل سوى اثنين : المراءاة والوحشية وكان يروع فؤاده مذهب سيادة الجندية ، ومبدأ الحق للقوّة ، فقال :

ـ إنّ ثكنات الجند بدعة منكرة من بدع العصور الحديثة . ولم تنشأ إلا في القرن السابع عشر ، على حين لم يكن قديماً غير بيوت الحرس حيث كان الجند القدماء يلعبون الورق ويقصّون القصص ، ولوان «لويس الرابع عشر» كان بالوفاق بشيراً ، وبونابرت نذيراً ، فإنّ الشرّ لم يستطر إلاّ منذ

تأسيس معهد الخدمة العسكرية الوحشي ، وعندي أنّ إكراه الناس على قتل بعضهم بعضاً عار على القياصرة والجمهوريّات وهو جناية الجنايات . ففي العصور التي توصف بأنها همجية كان الدفاع عن الإمارات والمدائن موكولاً الى المسترزقة والأجراء من الجنود الذين يقيمون الحرب بفطنة وحذر ، ولم تكن بعض المعارك الكبيرة تتكشف أحياناً إلا عن خمسةٍ ستةٍ من القتلى ، ولم يكن الفرسان حين يذهبون الى الحرب يرغمون على خوض غمارها إرغاماً ، فإذا قتلوا كان قتلهم بمحض رغبتهم وبطيبة خاطرهم ، وما كانوا بلا مراء يصلحون لغير ذلك . وفي عهد «سان لويس» لم يكن يحلم أحد بإرسال عالم أو رشيد الى ميدان القتال . ولم يكن الحارث ليؤخذ ويجرّ من وراء محراثه ليجنّد كرهاً ، أمّا الآن فيعد من واجب الفلاح المسكين أن يكون جنديّاً . الآن ينفى من كوخه الذي يتصاعد الدخّان من سطحه في سكون المساء الذهبي ، ويبعد عن المراعي التي ترعاها ثيرانه ، ومن حقوله وغابات أسلافه ، ويساق سوق النعاج الى فناء ثكنة من الثكنات المشؤومة حيث يدرّب على قتل الناس قتلاً نظاميّاً!... وهناك ينهر ويشتم ويسجن ، ويقال له : «هذا شرف»!... وإذا لم يرغب بمثل هذا الشرف رمي بالرصاص ، فيخفض جناح الذل طائعاً لأن الخوف مركّب في فطرته ، وهو يعد من الحيوانات الأليفة ، إن لم يكن أشدها وداعة وسهولة انقياد! .

ونحن ، في فرنسا ، حربيّون كما نحن مدنيّون ، فتمديننا مسوّغ آخر للكبرياء ، ومعناه عندنا أن يعول الفقراء الأغنياء ويحافظوا عليهم بما لهؤلاء الأغنياء من سلطان وماهم عليه من بطالة! وبهذا يلزمون العمل أمام جلالة المساواة في القانون ... تلك المساواة التي تحظر على الأغنياء والفقراء ـ على السواء ـ النوم تحت الجور ، التسوّل في الشوارع وسرقة الخبز!!... وهذه المساواة هي إحدى مزايا الثورة ونعمها علينا! كأنّما هذه الثورة قامت من مجانين وبله لمنفعه غانمي الثروة الأهلية ، ولم تكن في نتيجتها إلا مموّلة لخبثاء المزارعين والمرابين ، ومقيمة باسم «العدالة» دولة رأس المال ،

ومسلّمة بلادنا الى الموسرين الذين يلتهمونها لجيل لقمة سائغة ، وهم فيها الآن السادة الكبراء...

وهذه التي تسمّى حكومة ، هذه المؤلّفة من خلائق شقيّة بئيسة صعلوكة منحوسة محرومة ، هي رهينة المموّلين ، ومنذ مئة عام وكلّ من يحبّ الفقراء ويعنى بشأنهم في هذه البلاد الموبوءة يعدّ خائناً للمجتمع ، كما يعدّ خطراً من يقول ان ثمّ بؤساء يعانون الفاقة والشقاء ، ولقد بلغ الأمر بهم الى حدّ أنهم سنّوا لوائح واقية من السخط والشفقة ، على أنّ ماأقوله الآن لايمكن طبعه ونشره!...

وكان «شولت» يزداد حماسة ويدير مبراته في يده ، في حين كانت تمرّ تحت شمس الشتاء الباردة الحقول ذات التربة السوداء ، والأدغال التي جرّد الشتاء رؤوس أشجارها القرمزية من أوراقها ، وأفنان أشجار الحور الباسقة على ضفاف الأنهر الفضّية .

فنظر في حنان الى الوجه المحفور على عصاه ، وقال :

ـ هذه أنت ، أيّتها الانسانية الشقيّة ، هزيلة الجسم باكية العين ، بلهاء من المعرّة والبلاء ، على نحو ماصطنعك سيّداك : الجندي والسري .

فأحدثت الحملة الشديدة التي حملها «شولت» على الجيش صدمة في نفس «مدام مارميه» الصالحة ، إذ كان لها ابن أخت بوظيفة «كابتن» في المدفعية ، وهو شاب جميل شديد التعلّق بمهنته .

أمّا «الكونتس مارتن» فعدّتها دعابة من «شولت» فلم تزعجها آراؤه ، وما كانت تخاف شيئاً ، لكنّها عدّت آراءه سخيفة نوعاً ما . فلم تكن ترى أن الماضي كان يمكن أن يكون بحال خيراً من الحاضر ، فقالت :

ـ أعتقد يامسيو «شولت» أنّ الناس كانوا فيما مضى كما هم اليوم أنانية وشراسةً وقلوباً غاضت الرحمة منها ، ففي رأيي أنّ الشرائع والعادات كانت دوماً فظّة قاسية على الفقراء .

●

وفيما بين محطّتي «لاروش» و «ديجون» تناولوا الغداء في عربة الطعام ، وبعده تركت السيّدتان «شولت» فيها وحده ، فلم يكن معه إلاّ غليونه وكأسه ونفسه الهائجة...

ولمّا عادتا الى عربتهما تحدّثت «مدام مارميه» عن زوجها في شوق وهدوء . فقالت إن زواجهما كان عن طريق الغرام . وإنه كتب اليها قصائد جميلة احتفظت بها ولم تطلع أحداً عليها ، وكان المرحوم رجلاً نشطاً بشوشاً ، ولم يكن يدور بخلد إنسان أن يسقط وهناً تحت نير العمل ويرزح ضعفاً من ثقل الداء ، فقد ظلّ يعمل الى النفس الأخير . وكان يشكو من تضخّم في القلب ، فلم يكن يتذوّق طعم الرقاد ، بل كان يمضي ليله على مقعده الكبير وكتبه الى جانبه . على المنضدة ، وبذل قبيل وفاته بساعتين اثنتين جهده ليستمر في المطالعة ، وكان شفيقاً طيّب القلب ، واحتفظ بدماثة خلقه مع ماكان يعانيه من آلام...

فلم تجد «الكونتس» أحسن من أن تقول :

ـ إنّك مازلت حافظة على ذكرى أعوام طويلة قضيتها سعيدة هانئة ، فهذا أيضاً يعدّ حظّاً من السعد في هذا الوجود .

لكنّ «مدام مارميه» تنهّدت ، ومرّت بجبينها سحابة من الغم ، وقالت :

ـ نعم ، كان «لويس» خير الرجال وأحسن الأزواج ، وقد جعلني على ذلك شقيّة تعسة ، إذ كانت له نقيصة واحدة ، بيد أنّي عانيت منها الأمرّين ، عانيت الغيرة ، فهذا الذي كان طيّباً مابلغت الطيبة ، حانياً جهد الحنو ، حليماً الى غير حدّ ، قد جعلته هذه العاطفة المنكرة مجحفاً بي قاسياً عليّ ظالماً إيّاي! وأؤكّد لكِ أنّ سلوكي لم يكن يدع مـحلاً لريبه ، فلم أكن غندورة ، غير أنّي كنت فتنة الناظرين . وكان ذلك يكفي عنده ليحول بيني وبين الخروج وحدي ، أو مقابلة الزائرين في غيبته . فإذا ذهبنا مرّة الى المرقص ارتجف سلفاً لما يشجر بيننا من خلاف في العربة ونحن عائدان آخر السهرة الى البيت .

وأضافت «مدام مارميه» الصالحة وهي تتنهّد :
ـ حقيقة أنني شغفت بالرقص ، لكنني تركته على رغم أنفي ، فلشدّ ماكان يؤلمه!...

فلم تخفِ «الكونتس مارتن» دهشتها ، إذ كانت تتصوّر «المسيو مارميه» شيخاً فاضلاً خجولاً مشغولاً بموقف ادعى الى السخر وهو بين زوجه الرقيقة الطبع السمينة التي اشتعل رأسها شيباً ، وذلك التمثال تمثال فارسه «الاتروسكي» ذي الخوذة النحاسية المذهّبة...

لكنّ الأرملة الفاضلة أسرّت اليها أنّ قرينها «لويس» كان لايزال وهو في الخامسة والخمسين غيوراً عليها كعهدها به ليلة بنائه بها...

فتذكّرت «تريز» أنّ «روبير لومنيل» لم يضايقها قط بغيرة . وفكّرت في هل كان ذلك دليل لباقته وحسن ذوقه ، أو أنه لم يكن يحبّها الى حدٍّ أن يغار عليها فيؤلمها ؟ فلم تحر جواباً ، ولم تجد من نفسها شجاعة على التقرّي والاستقصاء . فقد كان عليها أن تفتّش في حنايا وخبايا قلبها عن ذلك ، ولكنّها اعتزمت الاّ تفتحها وآلت أن تسدل عليها حجب النسيان . فغمغمت هذه الجمل ، وكانت منها فلتة :

ـ أنّا نرغب في أن نكون محبوبات ، فإذا ما أحببنا ، عذّبنا الحبّ أو ضقنا به ذرعاً... .

●

قصّرا نهارهما بالمطالعات والتأمّلات ، ولم يعد «شولت» الى الظهور . وكان الليل قد جعل يرخي سدوله الرماديّة على أشجار التوت ، فاستغرقت «مدام مارميه» في النوم وادعة ، وأمالت رأسها على صدرها وكأنّها تميله على عدّة وسائد...

فنظرت «تريز» اليها وقالت في نفسها : ـ إنّها سعيدة حقّاً مادامت تلذّها ذكرى الماضي .

وحلّت كآبة الليل صميم فؤادها ، ولمّا طلع القمر على حقول الزيتون ، وبدت ـ في خطوط رقيقة ـ تلك المناظر البديعة التي تمرّ بها القاطرة من سهول ووهاد وظلال مسرعة زائلة ، ورأتها « تريز » تحيط بها أصقاع يتحدّث كلّ مافيها عن السلام والنسيان ، وليس فيها ما يحدّثها عن نفسها ، شعرت بالحنين الى نهر « السين » و « قوس النصر » وطرق باريس الزاهية بالنور ، المغروس على جانبيها الشجر ، ومماشي « غاب بولونيا »... حيث تعرفها على الأقل الأشجار والأحجار...

وعلى غرّة منها ألقى « شولت » بنفسه داخل العربة بفظاظة متصنّعة ، وقد تسلّح بعصاه المعقّده ، ولفّ حول رأسه فراء خشنة ولفافاً أحمر ، فأزعجها وكاد يرعبها .

وكان ذلك ماأراد . فهيئته المنكرة ومنظره الوحشي كلاهما كان كذباً . وكانت لديه توافه غريبة يستخدمها ليكون مخيفاً فيقرّ عيناً ، اذ يسرّه أن يسبّب لغيره الخوف ، ذلك إن كان هو نفسه رجلاً هلوعاً جزوعاً « إذ رأى غير شيء ظنّه رجلاً »!...

وكان قبيل ذلك بدقائق معدودة جالساً وحده يدخّن غليونه في آخرالممشى ، فإذا به يرى القمر وراء السحب الجارية فوق « دلتالا كامارج » ، فأصيبت نفسه الخيالية الخفيفة ببعض تلك المخاوف الصبيانية التي لا سبب لها .

فأتى يهدّىء من روعه بقرب « الكونتس مارتن » فقال :

ـ آرل! أتعرفين آرل! إنها الجمال الخالص!... ولقد رأيت في دير « سان تروفيموس » الحمام حاطّاً على أكتاف التماثيل و « السحالي » الصغيرة الرمادية تصطلي الشمس فوق الأجداث المصفوفة على جانبي الطريق المؤدّي الى الكنيسة والتي يأوي اليها السائلون ليلاً يتّخذون منها أسرّة للنوم .

وفي ذات مساء ، بينما كنت أتنزّه مع صديقي « بول ارين » ، رأينا

إمرأة لطيفة علت بها السنّ تضع العشب اليابس على قبر عذراء ماتت بالأمس في يوم عرسها ، فتمنّينا لها مساءً سعيداً فقالت :

ـ اللهم سمعاً! على أنّ النحس أراد فتح هذا الناووس لريح الشمال ، ولو أنه فتح للناحية الأخرى ، لرقدت كالملكة «حنّة»!

فلم تجب «تريز» ، إذ غلب عليها النعاس ، فارتجف «شولت» في برد الليل حذر الموت ، واستطاره الهلع ، واستفزّه الجزع .

«وهل جزعٌ منجّيكَ ممّا تحاذر»

٨

أخذت «مس بل» كلاً من «كونتس مارتن بليم» و «مدام مارميه» في عربتها الانكليزية وساقتها بنفسها على منحدرات التل من محطّة فلورنسا الى بيتها بفييزول الذي كان مطليّاً بلون الورد تحيط به شرفة كبرى ويطل على المدينة التي ليس لها نظير .

وتبعتهنّ الوصيفة بالحقائب . أمّا «شولت» فقد أنزلته «مس بل» عند أرملة شمّاس تسكن بيتاً تشرف عليه كتدرائية فييزول ، ولم يكن يحضر إلاّ ساعة تناول الطعام . وكانت الشاعرة المضيفة من رقة الشمائل ودماثة الخلق على جانب ، وكانت الى هذا على جمال قليل ولها ردف غير ثقيل ، قصيرة الشعر ترتدي قميص رجل على مثل صدر طفل .

فجعلت ترحّب بضيفتيها الفرنسيّتين في دارها التي كانت تتجلّى فيها آيات لطفها المصفّى وذوقها السليم .

وعلّقت على جدر البهو صور العذارى والملائكة والأولياء . وكان تمثال «المجدلية» على نصب من المرمر . وفي كلّ مكان كان شعار «مس بل» وهو تلك الأجراس الكبيرة والصغيرة ، وكان أكبرها مصنوعاً من البرونز موضوعاً في زاوية القاعة ، وقد اتسقت من الأجراس الأخرى سلسلة حول سفل الحيطان وزيّنت صغراها الأفريز . وكانت هناك أجراس على المصطلى والمشاجب والصناديق . وكانت الخُزن البلّورية ملأى بالأجراس الفضّية

والذهبية ، وثمّ أجراس كبيرة من البرنز منقوش عليها شعار مدينة فلورنسا وهو «الزنبقة الحمراء» وأخرى يرجع عهدها الى القرن السادس عشر صغيرة الحجم مصنوعة في شكل نساء مرتديات (ملكوفات) كالقباب . وكانت هناك أجراس الموائد المزيّنة بصور الدموع والهياكل العظمية المغطّاة بأوراق الأشجار والحيوانات الرمزية ، وأجراس الموائد في القرن السابع عشر وقد صنعت مقابضها تماثيل صغيرة . وهناك أجراس صغيرة مسطّحة رنّانة خاصّة بالأبقار التي كانت ترعى في أودية «روتلي» وأخرى هندية وهي من أحكام الصنعة بحيث تدق دقّاً ناعماً رخيماً وقد صنعت مقابضها من قرون الوعول . وأخيراً ، كانت هناك أجراس صينية اسطوانية الشكل . فهذه الأجراس المختلفة أقبلت من كل أنحاء المعمورة ومن كل الأزمنة والعصور ملبّية النداء السحري الذي نادته هذه الصغيرة «مس بل»!

قالت تخاطب «الكونتس مارتن» مشيرة الى الأجراس :

ـ ها أنت ذي تنظرين الى ضروب شعاري الناطقة ، وفي ظنّي أنّ كل هؤلاء الأوانس اللواتي يحملن اسم «بل» (أي جرس) سعيدات هنا . ولن يعتريني شديد الدهشة إذا سمعتها وقد رفعت عقائرها بالغناء جميعاً! لكن عليك الاّ تعجبي بها كلّها على حدٍّ سواء ، فضنّي بثنائك الأجمل على هذا...

ونقرت بإصبعها على جرس قاتم اللون فتعالى له صوت جهير ، واستطردت تقول :

ـ كان هذا الجرس لقدّيسة فلاّحة من أهل القرن الخامس ، وهو مصنوع من معدن نادر ، ولن ألبث أن أعرض عليك الى جانبه جرساً فلورنسيّاً اليه تنتهي الرقّة ، وهو مليك هذه الأجراس ، على أنني أضايقك بهذه اللعب يا عزيزتي! كما أضايق «مدام مارميه» السيدة الصالحة! وهذه شقاوة منّي!

وأخذتهما الى حجرتيها . وبعد ساعة ، استراحت «الكونتس مارتن» وتجدّدت قواها فنزلت ، في ثوب من الحرير الموشّى ، الى الشرفة حيث كانت «مس بل» في الانتظار .

وكانت الشمس لاتزال واهنة فاترة ، على أنها منتشرة ساطعة . وكان الهواء الرطب عابقاً بشذى الربيع...

فاستندت «تريز» الى سور الشرفة وكحّلت عينيها بالنور... وهنا ، عند قدميها ، ذهب شجر السرو صعداً رافعاً هاماته السوداء ، وقد اشتبكت أشجار الزيتون فوق المنحدرات . وهناك ، في جوف الوادي ، نهدت فلورنسا بقبابها وبروجها وسقوفها الوفيرة الحمراء ينساب بينها نهر «الارنو» متموّجاً ...ووراء ذلك كلّه ، كانت تنهض الروابي الزرقاء...

فحاولت أن تستكشف حدائق «بوبولي» التي تنزّهت فيها مرّة في إحدى زياراتها السابقة ، فاجتذبها اتّساع صفحة السماء الجميلة إتّساعاً لا يحدّ ، فأجالت نظرها في السحب وهي تتشكّل متقشّعة... وبعد صمت طويل ، مدّت «فيفيان بل» يدها نحو الأفق وقالت :

ـ لا أستطيع يا عزيزة أن أعبّر عن ذات نفسي ، ولاأعرف كيف أقول! انظري يا عزيزة انظري ثانية ، واشهدي أنّ ما ترينه لهو من مناظر الدنيا النادرة الفريدة . فليس في أيّ مكان ، عدا هذا ، طبيعة بمثل هذه الدقّة والرقّة واللباقة! وأحسب أنّ الإله الذي أبدع فلورنسا كان فنّاناً . نعم! كان جوهرياً وصانع أوسمة ، كما كان مثّالاً ومن المصوّرين ، وقد كان فلورنسيّاً! وأحسبه ياعزيزة لم يخلق شيئاً كائناً ما كان غير هذا . أمّا الثاني فصنع يد أقل رقة ولذلك جاء عملها أقل كمالاً . إذ كيف يمكن أن يكون هذا التل البنفسجي «سان ميناسو» الناهض هذا النهوض الثابت الصافي من صنع صانع «الجيل الأبيض» ؟! ليس هذا جائزاً ، فهذا المنظر الخلوي يا عزيزة نرى فيه كل الجمال الذي نراه في وسام قديم ورسم قيّم ثمين . في الحق أنه طرفة كاملة التناسق . وثمّة شيء غير هذا لاأستطيع تبيانه لأنني لاأستطيع إدراكه ، مع أنه واقع . ذلك أنني أشعر ، وستشعرين شعوري ياعزيزة ، أن هذه البلاد نهب بين الحياة والموت يتقاسمانها ، على حالها المتناهية في النبالة والكآبة والملاحة . فانظري ، وتمعّني ،

تتكشّف لك أحزان هذه الروابي المحيطة بفلورنسا إحاطة السوار بالمعصم ، وتشهدي حزناً لذيذاً صاعداً من أرض الموتى...

وكانت الشمس تنحدر الى أفق ، فأخذت قمم التلال تنطفىء واحدة واحدة ، على حين أنّ السحب كانت كأنها تتلهّب في كبد السماء تلهّباً...

وعطست «مدام مارميه» فأمرت «مس بل» بإحضار الملاحف ، وحذّرت ضيفتيها الفرنسيّتين برد الليل ، ثمّ قالت فجأة :

ـ عزيزةا أتعرفين مسيو «جاك دي شارتر» ؟ إذن فاعلمي أنه كتب اليّ أنه سيكون في فلورنسا في الاسبوع القادم . ولشد مايبهجني أن يكون مسيو «جاك دي شارتر» في مدينتنا وأنت فيها . وسيصحبنا الى الكنائس والمتاحف فيكون نعم المرشد الدليل . فهو يفهم الأشياء الجميلة ، لأنه يحبّها . وهو مثّال ممتاز تقدّر تماثيله في انجلترا بأعظم مما تقدّر في فلورنسا . وافرحتاه باجتماع مسيو «جاك دي شارتر» وإيّاك في فلورنسا!... .

٩

في اليوم التالي ، بينما كانتا خارجتين من «سانتا ماريّا نوفلاّ» تعبران الساحة المنتصبة فيها مسلّتان من المرمر ، قالت «مدام مارميه» تخاطب «الكونتس مارتن» :

ـ أظن هذا هو المسيو «شولت»!

وكان جالساً عند إسكاف ، وفي يده غليونه ، وهو يشير إشارات متوازنة ، كأنه يلقي قصيدة .

وكان الخصّاف الفلورنسي يشتغل بمخرزه مصغياً ، رقيق البسمات ، وكان رجلاً ضئيل الجسم أصلع الرأس كأنه أحد الأشكال التي نعرفها في صور المصوّرين الهولنديين . وكانت أمامه على المنضدة أصص ريحان بين القوالب الخشبية والمسامير وقطع الجلد وكرات الشمع . كما كان هناك عصفور ذو رجل صناعية متّخذة من عود ثقاب ، وهو يقفز برجله الواحدة من كتف صاحبه الهرم الى رأسه .

فسرّت «الكونتس» بهذا المنظر ، ووقفت على باب الدكّان ونادت «شولت» الذي كان يلقي القصيدة بصوت غنائي ناعم ، وسألته كيف لم يصحبها في زيارة «معبد الاسبان» فنهض مجيباً :

ـ إنّك ياسيّدتي مشغولة بالأوهام العقيمة ، وأنا معني بالحقيقة والحياة!...

ثمّ صافح الخصّاف وتبع السيّدتين ، قائلاً :

ـ لقد رأيت في طريقي الى «سانت ماريّا نوفلاّ» هذا الشيخ مكبّاً على عمله ، ممسكاً بين ركبتيه بالقالب وكأنه بينهما في مكبس ، وهو يرتق الأحذية الضخمة ، فشعرت بأنه رجل ساذج ، وتوسّمت فيه الصلاح . فقلت له بالايطالية : «ألك ياأبي في شرب كأس من نبيذ الكيانتي معي ؟ » ، فأظهر حسن القبول . وذهب ليأتي بزجاجة وكأسين ، وجلست أحرس حانوته .

ثمّ أشار «شولت» الى كأسين وزجاجة على الموقد ، واستطرد قائلاً :

ـ ولمّا عاد شربنا معاً ، وألقيت على مسمعه كلمات طيّبات ذات معنى مبهمات ، طابت له نغمتها وراقته لهجتها . وسأعود الى حانوته ، وأقسمت لأتعلّمن منه وآخذن عنه رمّ الأحذية وأعيش قنوعاً متجرّداً من الشهوات ، فلن أشعر بعد بالكآبة التي لامنشأ لها غير الشهوة والفراغ .

فابتسمت «الكونتس» وقالت :

ـ إنني يا مسيو «شولت» لا أشتهي شيئاً ، ومع ذلك لاأجدني فرحة منشرحة ، أيجب أن أتعلّم أيضاً رمّ الأحذية ؟ ؟

فأجاب «شولت» برزانة :

ـ لم يؤن الأوان بعد...

●

ولمّا وصلوا الى حدائق «اورتشلاّري» سقطت «مدام مارميه» إعياء على مقعد .

وفي «سانتا ماريّا نوفلاّ» قامت تفحص صور الدير البديعة بعناية واهتمام إكراماً لذكرى المرحوم زوجها الذي يؤثر عنه أنه أحب الفن الايطالي . فأصابها من ذلك ماأصابها من تعب ونصب ، فجلست وجلس «شولت» الى جانبها وقال :

ـ أحقّاً ياسيّدتي أنّ البابا يصنع ثيابه عند «ويرث» ؟

فقالت «مدام مارميه» أنها لاتظن . فأكّد «شولت» أنه سمع بهذا في

القهوات . فأبدت «الكونتس مارتن» دهشتها من أن «شولت» يتكلّم باحترام قليل الى هذا الحد عن «البابا» صديق الجمهورية ، مع أنه كاثوليكي اشتراكي . بيد أن «شولت» لم يكن يميل الى «البابا ليو الثالث عشر» فقال :

ـ في زعم «ليو الثالث عشر» ومراده أن يتم خلاص الكنيسة على يد الجمهورية الايطالية ، لكنّ خلاص الكنيسة لن يتمّ بالطريقة التي ينتظرها ذلك «الميكيافيلي» التقيّ... لأنّ الثورة ستجرّد «البابا» من النذور التي يستولي عليها ظلماً وافتئاتاً كما تجرّده من بقية سلطته الزمنية الباقية ، فإذا تجرّد البابا من سيادته الزمنية وافتقر عاد قوياً وهزّ العالم هزاً ، وظهر في شخصة أشخاص أسلافه البابوات الخمسة الأوائل الأذلّة الجهلاء قدّيسي العهد القديم الذين غيّروا معالم الغبراء ، فإذا حدث غداً مثل هذا الأمر المستحيل ، وجلس على كرسي البابوية أسقف حقيقي مسيحي صادق ، ذهبت اليه وقلت له : «ياصاح! لاتكن رجلاً متهدّماً مدفوناً حيّاً في قبر من ذهب!... فاترك خزنتك البخلاء وحرسك النبلاء وكهنتك الوجهاء واهجر بلاطك نابذاً مظاهر السلطان فهي هباء!... وهلّم ضع يداً على كتفي وامدد الأخرى مستعطياً خبزك من الشعوب . وستكون وأنت مريض محتضر تذرع الطرقات وتقطعها طولاً وعرضاً في أسمالك البالية وفاقتك المتناهية ، ستكون موسوماً بميسم السيّد المسيح . قل : «إنني أستعطي خبزي لكيما يُعَيّر الأغنياء» . هيّا أدخل المدن واصرخ صادعاً من باب الى باب في حماقة سامية : «أيها الناس! كونوا وضعاء ودعاء ، وكونوا فقراء بؤساء!» . حيّ على السلام ، وأدع الى البر والإحسان في المدائن الحالكة الظلام ، وفي ثكنات الجند ، وفي الأكواخ الحقيرة فتمتهن وترمى بالحجارة . ويجرّك الحرّاس الى غياهب السجن . ويتّخذك الكبير والصغير والغني والفقير جميعاً ضحكة وهزؤاً ، وموضع الإشمئزاز والإشفاق . ويخلعك كهنتك ويعيّنون مكانك «بابا» معارضاً لك وحرباً عليك ويقول الناس طرّاً عنك إنك مجنون . ويجب أن يكون حقّاً

مايقولون . فعليك أن تجنّ حقاً فإنّ المجانين هم الذين أنقذوا العالم!... سوف يتوّجك الناس بإكليل من الشوك ، ويضعون في يدك صولجاناً من الغاب ، ثمّ يبصقون في وجهك... وبهذه الشارات يعرفون فيك الملك الحق ، المسيح المنتظر... وبمثل هذه الوسائل تقوم الاشتراكية المسيحية ، ظل الله على الأرض... » .

وضرب « شولت » على هذه النغمة ، وأشعل سيكاراً إيطاليّاً طويلاً مثقوباً من وسطه بعود من القش . ثمّ نفخ بضعة أنفاس من الدخان الفاسد ، واستطرد قائلاً في هدوء :

ـ وسيكون هذا يسيراً عمليّاً . وفي الإمكان تجريدي من كل الصفات إلاّ من دقّة النظر وبعده . وأنت يا « مدام مارميه »! إنّك لن تعرفي على الحقيقة الى أي حد تمّت الأعمال العظيمة في هذا العالم على أيدي المجانين . أفتظنّين أيّتها « الكونتس مارتن » أنه لو كان « القدّيس فرنسوا داسيز » عاقلاً ينضح وجه الأرض بماء الرحمة فينعش الناس ؟

فأجابت الكونتس :

ـ والله ما أدري! على أنني أجد العقلاء دائماً ثقلاء... ولست أتردّد في أن أفضي بذلك اليك أنت بخاصّة ، يا مسيو « شولت »!...

وعادوا الى « فييزول » في الترام الذي يسير صعداً عن طريق التل . وكان المطر ينهمل . فاستغرقت « مدام مارميه » في النوم . وهبّ « شولت » يزمجر وينوح . ففي دفعة واحدة حلّت به المصائب وانهالت عليه النوائب .

فأحدثت رطوبة الجو في ركبته ألماً لم يستطع معه أن يثنيها . وفقد كيس سجّادته بين المحطّة « وفييزول » ولم يعثر له على أثر في الطريق ، وناهيك بخسارة مثل هذا الكيس العتيق ، الأثري العريق!... فتلك مصيبة لايمكن تلافيها ، وفجيعة لا ينفع العزاء فيها!... أمّا ثالثة الأثافي فمجلّة باريسية نشرت له في ذلك اليوم النحس قصيدة من شعره مشحونة بغلطات

مطبعية فاحشة ، كبيرة كأحواض الماء المقدّس ، واسعة كالمحارة التي قيل أنّ «أفروديت» ولدت فيها ثمّ انشقّت عنها وخرجت منها!

فاتّهم الناس والكائنات جميعاً بالعمل على كيده ونكايته ، وبأنّها عدوّة له وشؤم عليه!

فزهقت نفس الكونتس من «شولت» ومن المطر معاً ، وخيّل اليها كأنّ صعود الترام التلّ لا ينتهي...

ولمّا وصلت الى منزل الأجراس ، ألفت «مس بل» في بهو الأضياف تنسخ بحبر ذهبي على رق أشعاراً نظمتها ليلاً .

فلمّا دخلت عليها صاحبتها رفعت رأسها الصغير الذي يضيء ويشتعل بعينيها النجلاوين ، وقالت :

ـ أقدّم لك ياعزيزة الأمير «البرتنلي»

وكان الأمير واقفاً على مقربة من المصطلى يبدي للناظرين جماله الفاتن الذي تهذّبه لحية كثّة سوداء ، فحيّاها بقوله :

ـ ستودع السيدة أفئدتنا محبّة فرنسا ، مالم تكن هذه العاطفة سبقت فحلّت في قلوبنا .

وسألت «الكونتس» صديقتها الشاعرة أن تتلو عليهم أشعارها التي تنسخها . فاعتذرت بأجنبيّتها عن إسماعها لهم أوزانها غير المتقنة ، ثمّ ألقت قصيدتها بصوتها الرخيم الشبيه بزقزقة العصفور .

فقال «شولت» :

ـ بخٍ بخٍ زهٍ زهٍ ما أبدع وما أروع!... كأنّي بهذا الكلام يسفر عن «ايطاليا» المحجّبة بالضباب والغمام!...

فقالت «الكونتس مارتن» :

ـ نعم ، هذا بديع . لكن ياعزيزتي فيفيان لمَ يريد طفلاك الجميلان المذكوران في قصيدتك أن يموتا ؟

ـ ذلك أنهما يا عزيزة شعرا بالقدر الممكن من السعادة ، فعادا لا

يريدان شيئاً . ولم يبق لهما ما يؤملان أو يتمنّيان فقطعا حبل الأمل . كيف لا تفهمين ذلك ؟

ـ إذاً في اعتقادك أننا إذا كنّا نعيش فذلك لأننا مازلنا على أمل ؟

ـ نعم يا عزيزة ، إنّا نعيش في انتظار مايأتي به الغد ، الغد ملك أرض الخيال ، وسلطان الأحلام ، المدثّر بدثار أسود أو أزرق موشّى بالزهور والنجوم والدموع... .

فواهاً لك أيها الغد!

١٠

ارتدوا ثيابهم ليتناولوا طعام العشاء ، وكانت «مس بل» مشتغلة في الصالون برسم صور وحوش تقليداً «لليوناردو دافنشي» . وكانت ترسمها لترى ماتقول لها تلك الوحوش بعد أن يتمّ تكوينها ، زعماً منها أنها ستتكلّم وتعبّر بالمعجب المطرب عن نادر الفكر . وعندئذ تصغي لها . وعلى هذه الطريقة كانت تبتدع أشعارها غالباً .

وكان الأمير «البرتنلّي» آخذاً في الترنم بالأغنية الصقلية المشهورة «يالولا١» وأنامله تلمس أصلبع البيانو لمساً ناعماً .

وهناك «شولت» تزداد خشونته عن عادته ، يطلب إبرة وخيطاً ليرتق فتوق ثيابه ، وهو يتنهّد حسرة على ما أضاعه من أدوات الخياطة البسيطة التي كان يملكها وظلّ يحملها في جيبه زهاء ثلاثين عاماً ، تلك الأدوات التي جعلها عزيزة عليه ماكانت تبعثه في نفسه من حلو التذكارات وما توحيه اليه من نصح وإرشادات . وكان يحسب أنه فقدها في إحدى حجرات قصر «بيتي» ، وهو لذلك ناقم على أسرة «مديتشي» والرسّامين الطليان ويحمّل الجميع تبعة تلك الخسارة الفادحة...

فنظر الى «مس بل» شزراً وقال :

ـ أمّا أنا فأنظّم أشعاري أثناء اشتغالي بترقيع ثيابي ، وألتذّ بالعمل اليدوي ، وأغنّي نفسي أغاني وأنا أكنّس غرفتي ، ولهذا تؤثّر أغانيّ في

الناس وتصل الى قلوبهم كأغاني الزرّاع والصنّاع القديمة التي هي وإن فاقت أغانيَّ جمالاً لم تفقها طبيعة . وإنّي فخور بأنّي لا أرضى لنفسي خادماً سواها . فقد حدث أن أرملة شمّاس الكنيسة التي أسكن عندها سألتني أن ترتق فتوق أطماري فأبيت عليها أن تفعل . فبئس إذلال الغير بتسخيرهم في أعمال يمكننا أداؤها بأنفسنا ، دون أن يضع ذلك من قدرنا أو يجرح عزّتنا...

وكان الأمير لايزال يعزف بتراخٍ ألحان الموسيقا البطيئة . وجعلت «تريز» تتذكّر ما حدث لها في مرافقاتها «لمدام مارميه» أثناء زيارة الكنائس والمتاحف وما نالها من سآمة وضجر في تلك الزيارات بسبب ماكانت تبديه تلك السيدة ، بلا إنقطاع ، من مقارنة صور قدماء الرسّامين بأشخاص من صحبها وعارفيها ، مع إصرارها على إيجاد أوجه متشابهة بين هؤلاء وهؤلاء . وكان من رأي تريز : (إن هذه الصالحة «مدام مارميه» مبالغة في التعقّل... إنها تضايق!) وأخذت تفكّر في أن تغادرها بفييزول وتذهب وحدها الى زيارة الكنائس ، مردّدة في نفسها كلمة أخذتها عن «لومنيل» وهي : «سأوزّع مدام مارميه!» .

ودخل القاعة شيخ رقيق ، وكان شاربه المشمّع الملمّع قد كسبه هيئة الضابط الهرم ، وبدت من تحت عويناته نظراته الخائنة ترسلها عيناه اللتان أضعفهما وزادهما الدرس والإفراط في الملذّات ، وهناً على وهن... وكان الرجل من أهل «فلورنسا» وصديقاً للمس بل والأمير «البرتنلي» ، ويدعى الأستاذ «الريغي» وكان في صباه محطّ أنظار النساء . أمّا اليوم فهو ذائع الصيت في «تسكانيا» و «ميليا» بمباحثه الزراعية . وسرعان ماراق «الكونتس» وأعجبها . على أنّ آراءها لم تكن في جانب ماهي عليه حالة الريف الإيطالي ، فاستفهمت من الاستاذ عن وسائله والنتائج التي توصّل اليها . فأجاب بأنّ قاعدته هي الشروع في العمل بعزم وتدقيق ، واستطرد قائلاً :

ـ إنّ الأرض كالمرأة ، تريد الرجل معها غير خجل ولاخشن وكانت

أجواز السماء تتجاوب برنين «السلام عليك يامريم» الذي يدقّ في برج الكنيسة ويجعل من الفضاء أرغوناً دينياً عازفاً . فقالت : «مس بل» :

ـ هلاّ فطنت ياعزيزة الى أنّ دقّ النواقيس في المساء يجعل جو فلورنسا ذا جلجلة ورنين فضّي ؟

فهبّ «شولت» يقول :

ـ يا للغرابة!... إنّما ليبدو علينا سيما الانتظار!

فأجابت «فيفيان بل» أنهم في الواقع ينتظرون «مسيو دي شارتر» الذي تأخّر قليلاً وتخشى أن يكون قد فاته القطار .

فاقترب «شولت» من «مدام مارميه» ، وقال بصوت رصين رزين :

ـ أيّتها السيدة مارميه! أيمكنك أن تنظري مرّة الى باب ، الى باب بسيط من خشب مدهون ، مثل بابك أو بابي أو هذا الباب أو أي غيره من الأبواب دون أن ترتعد فرائصك فرقاً ورعباً من تصوّر الزائر الذي يحتمل قدومه في كلّ لحظة ؟ ؟ إنّ باب مسكنّنا يا «مدام مارميه» مفتوح على مصراعيه الى اللانهاية... فهل فكّرت مرة في ذلك ؟ أتعرف حقيقة اسم الذي أو التي في شكل بشري ووجه مألوف وثياب عادية يدخل أو تدخل بيننا ؟

وقال «شولت» إنه ، من جهته ، ما كان يستطيع وهو منفرد وغرفته موصدة عليه أن ينظر الى بابها دون أن يقف شعر رأسه خوفاً .

لكنّ «مدام مارميه» قالت أنها تستطيع أن تنظر الى أبواب صالونها تفتح بغير أن يعتريها اضطراب . لأنها تعرف أنّ كل من يأتون اليها يوصفون بأنهم «أناس ظرفاء» .

فنظر إليها «شولت» مغتمّاً ، وهزّ رأسه قائلاً :

ـ أي «مدام مارميه»! أي «مدام مارميه»! إنّ لأولئك الذين تدعينهم بأسمائهم العالمية لأسماء أخرى لا تعرفينها على أنها أسماؤهم الحقيقية...

فسألت «الكونتس مارتن» «شولت» هل يعتقد أن المصاب إذا أراد أن يصيب قوماً يعوزه اجتياز عتبة دارهم ؟ وقالت :

ـ إلا أن المصاب داهية حاذق فيأتي من النافذة كما يخترق الجدار ، وهو وإن كان لايظهر للناس دوماً كائن أبداً . وعندي أن الأبواب المسكينة بريئة من وفود هذا الزائر المشؤوم ولا ذنب لها...

فحذّر «شولت» «الكونتس مارتن» وصفها زيادة المصائب بالشؤم ، قائلاً :

ـ إنّ المصاب أكبر معلّم لنا وخير صديق ، فهو الذي يعلمنا معنى الحياة . أي سيداتي! إذا تألمتن عرفتنّ ماعليكنّ معرفته ، وآمنتنّ بما ينبغي لكنّ الإيمان به ، وفعلتن ماعليكنّ فعله ، وصرتنّ مايجب أن تصرن . فتنلن السرور الذي ينفيه اللهو ، لأنّ السرور الصادق خجول لايبدو في زؤاط الأفراح والليالي الملاح...

فقال «الأمير البرتنلي» : أن لا «مس بل» ولا صاحبتاها الفرنسيّتان في حاجة الى الشقاء لتكمل صفاتهن . وأنّ مذهب التوصّل الى الكمال عن طريق الألم يُعدّ تحت سماء إيطاليا الجميلة ، قساوة وحشية...

ثمّ عاد الأمير وقد خفتت حدّة الحوار الى التوقيع على البيانو باحثاً في حذر عن نغمات الدور الصقلي الرقيق «يالولا!» خشية أن يعدوه الى نغمات شبيهة بدور «اللقيط» LI Trovatore .

وطفقت «مس بل» تساءل بصوت شديد الخفوت وحوشها التي صوّرتها ، وتتذمّر من تفاهة أجوبتها . على حين أنّ الأمير الجميل كان إذ ذاك يغنّي وقد جرف روحه تيّار الألحان الرخيمة ، وجعل صوته يتموّج وينبسّط كذيل الطاووس... ثمّ يعود فيتضخّم... ثمه يتضاءل في الآهات الناعمة... ويروح...

فقالت «مدام مارميه» الصالحة وهي شائعة العينين نحو الباب البلّوري :

ـ أظن «المسيو دي شارتر» قد أقبل!

فاستقبلته «مس بل» بصيحات صغيرة كزقزقة العصفور ، قائلة :

ـ يا مسيو دي شارتر لقد كنّا ننتظرك بنافد الصبر ، وكان مسيو

« شولت » يطعن في الأبواب وعليها ويقول عنها السوء . نعم! كان يطعن في أبواب المنازل كما كان يقول إنّ النحس سيّد طاعن في السن من أهل المروءة! لقد خسرت كل هذه الأشياء البديعة ، وأطلتْ انتظارنا لك يامسيو دي شارتر ؟ فما علّة تأخيرك ؟

فاعتذر بأنه لم يستغرق من الزمن إلاّ ماكاد يكفي لذهابه الى الفندق وتغيير ملابسه . حتّى أنه لم يذهب للسلام على صاحبه اللطيف العظيم ، ذلك التمثال البرونزي ، تمثال « سان مارك » ، الذي يؤثّر في النفس ، بوقفته في كوّته بحائط « أورسان مارتن » بفرح مكتّم لم يكد يخفى ، وخاطبها بقوله :

ـ قبلما غادرت باريس ذهبت أزورك فأنبأوني أنّك سافرت تستقبلين الربيع عند « مس بل » في فييزول ، فأمّلت إذ ذاك في لقائك بهذه البلاد التي أحبّها الآن أكثر من حبّي لها أبداً...

فسألته هل مرّ بادئاً بالبندقية وشاهد ثانية في « رافنّا » الملائكة المتوّجة رؤوسها بهالات من نور ، وشاهد الأشباح البرّاقة ؟

فأجاب سلباً . إنه ما وقف بأي مكان بل جاء رأساً . فلم تقل شيئاً . وظلّت شاخصة البصر الى زاوية الجدار الذي يعلوه ناقوس « سان بولان » فقال لها :

ـ أتنظرين الى برج الناقوس ؟

ـ فألقت « فيفيان بل » بأوراقها وأقلامها وقالت :

ـ سترى يا « مسيو دي شارتر » عمّا قليل بعينيك ما يؤثّر فيك ويستهويك . فقد عثرت في « راميني » على ملك الأجراس الصغيرة في معصرة خمر متهدّمة قام على أنقاضها اليوم حانوت .

فاشتريت الجرس ووقفت على شحنه بنفسي . وأجدني ذاهبة الصبر وقد سئمت الإنتظار فلن أشعر بالحياة حتّى يصل! وسترى على ظهر هذا الناقوس رسم المسيح المصلوب بين السيدة العذراء والقدّيس « يوحنّا » وتاريخ العام الأربعمائة بعد الألف من الميلاد ، وشعار أسرة « ملتستا » . ويلوح لي يا

مسيو « دي شارتر » أنك غير صاغٍ إليّ كما يجب ، فأعرني سمعك ، ففي العام الذي ذكرت لك فرّ الفنّان « لورنزو غيبرتي » من الحرب والطاعون ولجأ الى أسـرة « ملتسـتـا » في « رامـيني » . وليس شك في أنّه هو الذي رسم الأشكال التي على ناقوسي الجديد ، فلا تلبث أن ترى هنا في الاسبوع القادم صناعة « غيبرتي » .

●

أعلن إعداد المائدة .

فبسطت المضيفة لهم عذرها بأنها ستقدّم لهم طعاماً على الطريقة الايطالية ، فطاهيها من شعراء «فييزول» .

وتجاذبوا على المائدة أطراف الحديث . وأمامهم زجاجات النبيذ الايطالي المحوطة بقش الذرة . فذكروا بالخير القرن الثامن عشر ، وأثنى الأمير « البرتنلي » أطيب الثناء على أهل الفن في ذلك العهد لتضلّعهم من العلوم كافة ، ولحبّهم الفن حبّاً خالصاً قوياً ولنبوغهم . وكان يتكلّم بغلو ، وصوته يفيض حناناً .

وكذلك كان «دي شارتر» معجباً بهم ، ولكن من وجْهة أخرى ، فقال :

ـ لكيما نثني على هؤلاء الذين اشتغلوا بكل مافي قلوبهم من حرارة التعبّد للفن ، من « جيوتو » الى « مازاكيو » ، ولكيما نمدحهم مديحاً لا نتجاوز به القصد ، أرى أن يكون المديح معتدلاً دقيقاً . فعلينا أن نبدأ بوصفهم في أماكن أعمالهم ، في مشاغلهم حيث كانوا يعيشون عيشة الصنّاع . فهناك إذا رآهم المرء مشمّرين عن ساعد الجد في عملهم قدّر بساطتهم وتبريزهم حق قدرهما . لقد كانوا على جهالة وخشونة ، وقليلاً ما قرأوا وقليلاً مارأوا . كانت التلال المحيطة بفلورنسا تضرب من حولهم نطاقاً وتقوم لأبصارهم وأذهانهم أفقاً . فما كانوا يعرفون غير مدينتهم والكتاب المقدّس وبعض شظايا العاديات التي كانوا يدرسونها مشغوفين معتزّين بها .

فأجاب الاستاذ «الريغي» :

ـ أصبت . ولم يكن يشغل بالهم إلا استخدام خير الطرق واتخاذ مثلى الوسائل . فكانت أذهانهم منصرفة بكلّيّتها الى إعداد الأذهان وسحق الألوان . وأدرجوا في عداد النابغين ذلك الرجل الذي ابتكر لصق النسيج على إطار . وكانت لكل استاذ طرقه ومعادلاته في تركيب الألوان على قواعد يعنى بها بكتمانها جهده .

فعاد «دي شارتر» يقول :

ـ لم يكن أحد في ذلك الزمن الهنيء يخال مطلقاً وجود الابتكار الذي نحن اليوم شديدو التعلّق به والتلهّف عليه . فكان التلميذ يدأب في تقليد معلّمه والتآسي به وبكل مايطمح اليه أن يحاكيه ، وبذلك كان يختلف عن سواه دون قصد منه . وما كانوا يشتغلون حبّاً بالمجد أو طلباً للشهرة بل حبّاً بالحياة وطلباً للكفاف .

فأجاب «شولت» :

ـ لقد كانوا على صواب فليس خير من العمل في طلب الرزق فاستطرد «دي شارتر» في الكلام :

ـ ولم تكن الرغبة في تخليد ذكرهم تقع منهم قط في بال أو تعكّر عليهم صفو البال . ولمّا كانوا لايعرفون شيئاً عن الماضي كانوا لايفكّرون في المستقبل . فأحلامهم محصورة في الحاضر لاتعدو أيّامهم . وكانوا يبذلون جهدهم في إجادة عملهم ، وقلّما يخطئون لأنّهم كانوا سذّجاً يرون الحقائق التي يحجبها عنّا ذكاؤنا... .

وفي غضون ذلك أخذ «شولت» يقصّ على «مدام مارميه» حديث زيارته في الصباح للأميرة الفرنسية سليلة البيت المالك ، التي أعطته «المركيزة دوريو» خطاب تقدمه اليها . وكان يلتذّ أن يفهم سامعيه من طرف خفي أنّه ، وهو الغجري جوّاب الآفاق ، قد استقبل من لدن هذه الأميرة الملكية التي ما كان «المس بل» ولا «الكونتس مارتن» لتحظيا بشرف

المثول بين يديها ، وهي التي يباهي الأمير «البرتنلي» بأنه قابلها يوماً في إحدى «التشريفات»!

فقال الأمير :

- إنها شديدة الورع عاكفة على العبادة .

فقال «شولت» :

- إنّ نبالتها التي مزاجها البساطة تستحقّ الإعجاب . فهي تعيش في قصرها محوطة برجال الشرف وسيّداته ، شديدة التمسّك بآداب السلوك . ونراها تكفّر عن علو مكانتها وشرف محتدها بأن تذهب صبيحة كل يوم الى كنيسة القرية تغسل بلاطها المحفور المقلوب من ارتياد الدجاج لها بينما يكون الخوري جالساً يلاعب الشمّاس بالورق لعبة «البصرة»!!

وانحنى «شولت» يقلّد ، وبيده فوطته ، الأميرة الغسّالة وهي جالسة القرفصاء!...ثمّ رفع رأسه وقال في وقار :

- وبعد وقت مناسب قضيته منتظراً في سلسلة من الصالونات أذن لي بالدخول عليها وتقبيل يدها .

ثمّ سكت فسألته «الكونتس مارتن» بلهفة :

- وبعد ، فما قالت لك هذه الأميرة الفاتنة بما هي عليه من نبالة وبساطة ؟

فقال «شولت» :

- قالت لي «أزرت فلورنسا ؟ إنّ الثقاة أكّدوا لي أنه قد فتحت بها منذ عهد قريب حوانيت ذات بهاء ، وأنها تنار في المساء ، بنور اسمه الكهرباء!» .

ثمّ قالت لي : « هنا صيدلي ماهر لا يبزّه أولئك الصيدليّون النمساويّون ، فقد ألصق على ساقي لصقة منذ ستّة أسابيع لم تقع الى الآن!» .

هذا نص الكلمات التي تكرّمت الأميرة «ماري تريز» فوجّهتها اليّ .

فبخٍ بخٍ أيّتها العظيمة الساذجة! بخٍ بخٍ أيّتها الفضيلة المسيحية! بخٍ بخٍ يابنت القدّيس لويس!! يالصدى صوتك العجيب! أيّتها القدّيسة المجرية! بخٍ بخٍ!

فابتسمت «الكونتس مارتن» ورأت أنّ «شولت» يتهكّم ولكنه دفع عن نفسه محتدّاً مصرّاً على أنه جادٌّ . فعتبت «مس بل» على صديقتها ، وقالت إنّ من طباع الفرنسيين حملهم القول دوماً محمل المزاح .

ثمّ عادوا يخوضون حديث الفنون التي ذكرها في هذه البلاد يعطّر الأجواء ويستنشق مع الهواء...

فقالت «الكونتس» :

ـ أمّا أنا فلست من المعرفة بحيث أعجب «بجيوتو» ومدرسته ولكن تدهشني من أعمال القرن الخامس عشر شهوانية الفن الذي ينعت بالفن المسيحي ، فلم أجد ورعاً وعفّة الاّ في أشكال المصوّر «فرا انجليلو» . على أنها أيضاً بديعة تستهوي المشاعر والنفوس . أمّا مابقي من الصور التي تمثّل العذارى والملائكة فعندي أنها شبقة ملاطفة وأحياناً فاسدة متكلّفة ، وليت شعرى أي شيء من الوحي الديني في صور أولئك المجوس ذوي الجمال الأنثوي ؟ أو في صورة ذلك القدّيس «سيبا ستيان» الذي يتخايل مزهوّاً بنضرة شبابه .

فأجابها «دي شارت» إنه على رأيها ، وأنهما كلاهما على حق فقد كان «سافونا رولا»[1] يرى رأيها ، فأفتى بإحراقها كلّها إذا لم يجد من العفاف شيئاً في صورة ما من تلك الصور الفنّية ، وقال دي شارتر :

ـ إنّا نرى في فلورنسا على عهد الملك العظيم «مانفريد» الذي كان نصف مسلم ، رجالاً قيل أنهم من أتباع «أبيقور» ، بحثوا في التدليل على عدم وجود الله . واحتقر «جيدو كفالكانتي» الشاعر الفلورنسي الجميل

---

(١) جيروم «سافوناترولا» Savonarola واعظ إيطالي حاول أن يؤسّس في فلورنسا حكومة تيوقراطية فأخفق وأحرق بتهمة الإلحاد (١٤٥٢ ـ ١٤٩٨)

أولئك الجهلاء الذين يؤمنون بخلود الروح ، ويُعزى إليه قوله : « إنّ موت الرجل كموت الدابة سواء بسواء » وفيما بعد ذلك اكفهرّ جو المسيحية عندما بُعث إجمال الأثار القديمة ، فلم يكن المصوّرون الذين يعملون في الكنائس والأديرة اعفاء ولا أتقياء ، وكان «بروجان»[1] ملحداً معترفاً بإلحاده .

فردّت عليه «مس بل» بقولها :

ـ نعم ، لكن قيل أنّ الحقائق السماوية لم تستطع أن تخترق رأسه الجاف لأنّ جمجمته كانت سامكه... وكان صارماً بخيلاً غارقاً في المادّيات ، ولم يكن يفكّر الا في شراء البيوت .

فأخذ الاستاذ «الريغي» على كاهله الدفاع عن «بطرس فانوتشي» هذا الذي ينعت «ببروجيان» ، فقال :

ـ إنه كان رجلاً مستقيماً . وأخطأ رئيس دير «جزواتي» الفلورنسي إذ لم يثق به ، فهذا القس كان يزاول صناعة لون اللازورد بسحق أحجاره المجفّفة ، وكان حجر اللازورد هذا يساوي في ذلك العهد وزنه ذهباً ، وكان قسّنا قد استكشف طريقة سرّية لإعداد هذا اللون فهو عنده أغلى من الياقوت الأحمر والزمرّد الأخضر ، فطلب الى «بروجان» أن يزخرف أروقة ديره ، وتوقّع العجب العجاب بفضل جمال اللون اللازوردي أكثر من فضل مهارة المصوّر . وبينما كان الفنّان يصوّر سيرة المسيح على جدران الرواق ، كان رئيس الدير بجانبه ممسكاً بالمسحوق الثمين في كيس صغير لم يتركه غمضة عين .

فجعل «بروجان» يأخذ من الكيس ويغطّس فرشاته المغطّاة بالدهان في كأس من الماء قبلما يكلّس الحائط بها وذلك على عين القس رئيس الدير ، ولمّا رأى الأب الصالح أنّ محتويات كيسه سرعان ماأخذت في النفاد ، تأوّه

---

(١) مصوّر إيطالي من أساتذة المصوّر الشهير «رافييل» وصوّر الصور الدينية بخاصة ، ولأعماله رونق وجمال (١٤٤٦ ـ ١٥٢٤)

من كبد حرّى وصاح : يا يسوع! يا رب الطف! ما أكثر مايلتهمه هذا التكليس من حجر اللازورد! » .

ولمّا انتهت عملية الزخرفة ، وأخذ « بروجان » من رئيس الدير أجره المتّفق عليه ، وضع في يده كيساً من المسحوق الأزرق ، وقال له : « هذا لك ياأبي ، فإنّ لونك اللازوردي الذي أخذته على فرشاتي قد رسّب في قاع كاسي ، وكنت أستقطره منها يومياً ، وهاأنذا أعيده اليك ، فتعلّم الآن الوثوق بالناس الطيّبين! » .

فقالت « تريز » :

ـ لا أرى شيئاً خارقاً في أن يكون « بروجان » على حرصه وبخله رجلاً أميناً فليس النفعيّون وحدهم أقلّ الناس ذمّة وورعاً ، فثمّة كثيرون بخلاء على أنهم أمناء .

فقالت « مس بل » :

ـ طبعاً يا عزيزة! إنّ البخلاء لن يدينوا لأحد بشيء ، على حين أنّ المسرفين راضون كل الرضا بتراكم الديون عليهم ، وقلّما يفكّرون فيما يملكون ، وأقل من هذا القليل فيما هم به مدينون . ولم أقل ، إن « بطرس فانوتشي » (بروجان) كان رجلاً غير أمين ، بل قلت أنّ له رأساً جافّاً ، وأنه كان يشتري من البيوت الكثير . وأجدني مغتبطة حقّاً بمعرفة أنه أعاد مسحوق اللازورد الى رئيس الدير .

فقال « شولت » :

ـ أمّا وقد كان « بطرسك » غنيّاً ، فقد كان حقّاً عليه أن يعيد مسحوق اللازورد الى صاحبه . ففرض على الغني أن يكون أميناً ، وليس على الفقير!...

وعندئذ جاء كبير خدمة المائدة فقدّم الى « شولت » طستاً من الفضّة ، فبسط الشاعر يديه وتلقّى الماء المعطّر المصبوب من إبريق هو وعاء مفرّغ فضّي ، أدارتهما « مس بل » على مدعوّيها بعد الفراغ من الطعام كما جرت العادات القديمة .

فقال «شولت» :

ـ إنّي أغسل يديّ ممّا تفعله «الكونتس مارتن» أو ممّا قد تفعله ، سواء بكلماتها أم بأية كيفية أخرى... .!

ثمّ نهض مهتاج الفؤاد ، وتبع «مس بل» التي تركت المائدة مستندة الى ذراع الاستاذ «الريغي» .

وبينما كانت القهوة تقدّم للأضياف في بهو الإستقبال ، قالت «مس بل» :

ـ لمَ القضاء علينا بأحزان المساواة الهمجية يامسيو «شولت» ؟ إنّ ناي الراعي «دافنيس» ماكان ليخرج أنغامه الشجيّة المؤتلفة لو أنه صنع من سبعة عيدان من الغاب متساوية في الطول .

أراك وماتبغي إلا أن تفسد تلك النغمات المطربة على السيّد والتبّاع والارستقراطي والصنّاع... فيالك من همجي يا مسيو «شولت»! أفتنحو على الفقير ولا تعطف على جمال الله ، فتدعه مجرّداً عارياً متألّماً باكياً ؟! إنّ قولك بإبعاد الناس عن تباين طبقاتهم بين وضيع وعظيم يجعلك بمثابة عدو للأغنياء والفقراء على حدٍّ سواء ، إنه يجعلك عدو البشرية جمعاء!

فأجاب «شولت» وهو يحلّي قهوته بقطعة من السكّر :

ـ أعداء البشرية! كذا أسمى الروماني الغليظ القلب المسيحيّين الذين علّموه المحبّة!

وفي تلك الأثناء كان «دي شارتر» جالساً الى «الكونتس مارتن» يسائلهما عن أذواقهما في الفن والجمال ، مؤيّداً ، موصياً ، مشجّعاً ، مستثيراً إعجابها أحياناً بمبادهة رفيقة... يريد أن ترى في كلّ شيء مايرى ، وأن تحب كل ما يحب . ثمّ أرادها على أن تذهب الى الحديقة في فجر الربيع البسّام ، ورآها سلفاً بعين بصيرته على الشرفات الكبيرة ، وسبق فشاهد النور يزهو ساطعاً على نحرها مداعباً شعرها . وظلّ شجر الغار يظلم قليلاً على حور عينيها وخيّل اليه أنّ «فلورنسا» بأرضها وسمائها لم تخلق إلاّ لتكون زينة هذه الشابّة الغيداء .

فأثنى على بساطة ملبسها ومعارف وجهها وتأنّقه ، وحسن تثنّيها ورشاقتها ، وأعجب بالخفة الخلاّبة التي تصدر عنها كل حركاتها ، وقال أنه قد أحبّ فيها حتّى أثوابها ، تلك الأثواب الحيّة ، الرخيصة الرقيقة ، الفضفاضة ، الروحية ، التي نادراً مايراها المرء ، ولايمكن أن ينساها حين يراها .

ومع أنّ «تريز» كانت مدلّلة وطالما سمعت ضروب المديح والإطراء لم تسر قط سرورها بهذا الثناء . وكانت تعرف أنها تتقن زينتها إتقاناً تامّاً ، ولها ذوق جريء على أنه صائب سليم . غير أنّ أحداً لم يمتدحها قط في هذا ، ماخلا والدها ، امتداح خبير... وكانت تعتقد أنّ الرجال أهل لتقدير أثر الثياب السطحي دون فهم تفاصيله الدقيقة . ومنهم من يقال إنهم يفهمون الخرق المهلهلة ، وهؤلاء نفّروها وأثاروا اشمئزازها بما هم عليه من خنوثة وذوق مشكوك فيه . وسلّمت بألا تجد ملبسها يقدّر قدره إلاّ من النساء اللواتي كان حكمهن معوجّاً مزوّراً خباثة وحسداً . أمّا إعجاب «دي شارتر» الفنّي ، وهو إعجاب رجل ، فقد أدهشها وسرّها . وتقبّلت ثناءه راضية مغتبطة . ولم يخطر لها قط اعتبار ذلك إفراطاً في المودّة كاد يكون دون حيطة ، فقالت :

ـ أنت تعنى إذاً بالهندام يا «مسيو دي شارتر» ؟

ـ كلا . إنه قلّما ينظر اليه . فما إن تزال النساء اللواتي يتقنّ ملبسهن ويحسنّ زينتهنّ حقاً معدودات حتّى في هذا الزمن الذي أصبح النساء يجدن فيه الملبس إجادة فعلية ،لعلّها أحسن منها في أي وقت مضى . ولم يكن يعجبه رؤيتهنّ سائرات أسراباً ، لكن كان يشعر بعرفان الجميل نحو المرأة التي تمرّ أمامه عادلة القوام متّزنة الخطوات حتّى كأنّ خطواتها نغمات... .

وعقّب على ذلك ، وقد رفع قليلاً من صوته ، قائلاً :

ـ لايسعني أن أذكر المرأة التي تعنى كلّ يوم بتبرّجها وزينتها دون أن أفكّر في الدرس الذي تلقيه علينا نحن رجال الفنون . فهي لميقات قليل

ترتدي ثيابها وترجّل شعرها ، وتلك منها عناية غير ضائعة . فعلينا أن نحذو حذوها فنزيّن الحياة دون تفكير في مستقبل الأيّام . وما الرسم والحفر والكتابة للأجيال القادمة سوى محض من سخف الغرور ؟

فسأله الأمير «البرتنلي» :

ـ وما رأيك يا مسيو «دي شارتر» في قميص لمس بل بلون الأرجوان ذي أزاهير من فضّة واستبرق ؟

قال «شولت» :

ـ أمّا أنا فأقل ما أكون عناية بالمستقبل الأرضي حتّى لقد دوّنت أبدع أشعاري على ورق السجاير . فهو سهل العطب سريع التلف لايبقي على شعري ولايذر الاّ نوعاً من البقاء المعنوي...

وفخر بهذ الظهور بعدم العناية بمنشآته... وإن كان لا مرية في أنه لم يفقد سطراً واحداً منها . وكان «دي شارتر» أشدّ إخلاصاً . فلم يكن راغباً في خلود الصيت .

فلامته «مس بل» على ذلك بقولها :

ـلكيما تكون الحياة عظيمة موفورة يا مسيو «دي شارتر» أرى أن تضم بين دفّتيها الماضي والمستقبل معاً . فعلينا أن ننظّم أشعارنا وتخرج أعمالنا الفنّية على ذكر من أولئك الذين ماتوا عنّا ، ناظرين الى الأمام ، الى أولئك الذين سيأتون بعدنا ويقتفون أثرنا ، وبذلك نشترك فيما كان ، وفيما يكون ، وفيما سيكون ، ألست ترغب يامسيو «دي شارتر» في الخلود! فحذار لئلا يستجيب لك الله!...

فأجاب :

ـ حسبي أن أعيش أيضاً لحظة أخرى من دهري .

واستأذن في الانصرف ، واعدا بعودة باكرة في الغداة ليصحب «الكونتس مارتن» الى معبد «برانكانشي» .

●

بعد ساعة ، في حجرة مؤثّثة على أحدث طراز ، مزدانة الجدران بنسيج موشّى بصور أشجار ليمون تحمل ثماراً ذهبية كبيرة الحجم فكوّنت ضرباً من الغابات الشيطانية الخرافية ، كانت «تريز» مضطجعة ورأسها على الوسادة ، وقد ألقت فوقه ذراعها العارية الجميلة ، واستسلمت في ضوء المصباح لأحلام ومرّت أمام عينيها ، بلا انتظام ، صور حياتها الجديدة . فرأت «مس بل» وأجراسها وتلك الأشكال الخفيفة كالظلال ، من السيدات والفرسان في عزلة وبلا مبالاة لما حولهم من المشاهد الدينية ، أو بالحري يغلب الحزن عليهم وينظرون الى القادمين اليهم ، على أنهم أكثر مايكونون أنساً وانشراحاً بما هم فيه منسبات ساحر . ثمّ رأت «تريز» المساء في «فييزول» والأمير «البرتنلي» ، والاستاذ «الريغي» و«شولت» ، والحديث الحار واللعب الغريب بالأفكار ، وأخيراً «دي شارتر» يرنو بعينين يتألّق فيهما الشباب ، وله محيا يغلب عليه الوهن ، وهيئة افريقي لبشرته السمراء ولحيته المدبّبة...

وذكرت مخيلته الفاتنة ، وعقليّته الغنيّة ، الأغنى من كل ماعرفته من قبل ، وجاذبيّته التي لم تعد تستطيع مغالبتها أو مقاومتها وقد عرفت لأوّل وهلة أنه أوتي موهبة الإرضاء والآن عرفت أنه أراد أن يعجب . فاهتزّت اعطافها طرباً لهذه الفكرة ، وأغمضت عينيها كأنما أرادت لتحتفظ بها . ثمّ انتفضت فجأة ، وأحسّت في أعماقها نفسها صدمة صمّاء وألماً حاداً . وقامت أمام ناظريها رؤيا مباغتة غير منتظرة ، فتمثّل لها عاشقها في الغابة يتأبط بندقية . وكان سائراً بخطوته الثابتة المنتظمة في طريق طويل . فلم تستطع أن تتبيّن وجهه وساءها ذلك . وذهبت عن نفسها موجدتها عليه واستياؤها منه . بل أنها الآن عادت مستاءة من ذات نفسها . وكان «روبير لومنيل» ـ في الرؤيا ـ سائراً في سبيله ، لا يلتفت ولا يلوي ، ماضياً دوماً قدماً ، حتّى صار نقطة سوداء في الغابة الموحشة . فشعرت أنها عنّفت عليه وكانت جدّ قاسية إذ تركته دون كلمة وداع ، بل دون كتابة خطاب . وقد

كان حبيبها ، حبيبها الواحد الذي لم يكن لها قط حبيب سواه ، فقالت في نفسها : « لابدّ أن يشقى بسببي » ثمّ مالبث أن سكن روعها وإطمأنّ قلبها . إنه قد أحبها ، على أنه لم يكن قوي الحسّ . كما أنه لحسن الحظ غير سريع القلق والتعذيب : « إنه يصيد ، وهو بصيده سعيد! ولعلّه الآن مع عمّته « دي لانوا... التي هو معجب بها... » .

فنسيت قلقها واستردّت رباطة جأشها . وأسلكت نفسها مرّة أخرى الى أفراح فلورنسا ومداعباتها...

وذكرت صورة « هرقل » الصغير في أحد المتاحف من صنع « انطونيو بولا يولو » وكانت قد عرضت عليها ولم تحفل بها واستحسنها « دي شارتر » ، وقال عنها إن الرائي يرى فيها فن « ليوناودو دافنشي » لأنّ المصوّر أودعها شعوره وحسّه وروحه ونفسه .

ففي تلك اللحظة ذكرتها ، وأسفت على أنها لم تقدّرها قدرها بادئاً كما يجب ، وشعرت بالتلهّف على مشاهدتها ثانية . وعلى هذه الرغبة أطفأت مصباحها وراحت في سبات... .

وعند الفجر ، حلمت بأنها لقيت « روبير لومنيل » في كنيسة خالية ، وكان يرتدي معطفاً من الفرو لاعهد لها به ، فانتظرها . لكنّ جمعاً من الرهبان والمصلّين ظهر بغتة فحال بينهما ، فلم تعلم ما جرى له ، وعجزت عن تبيّن وجهه ، فتبرّمت بذلك ، ولمّا استيقظت سمعت عند نافذتها المفتوحة صيحة ذات نغمة واحدة متّسقة صغيرة حزينة... ورأت في الفجر اللبني خطّافاً طائراً... وعندئذ ، بلا سبب ولاعلّة ، بكت وأراقت على نفسها الدمع الهتون .

١١

بكّرت ، وسرّها أن ترتدي ثيابها بعناية . وكانت غرفة زينتها إحدى عجائب «مس بل» المستظرفة : بخزفها ذي الطلاء الخشن ، وقواريرها النحاسية الكبيرة ، ومربّعات بلاطها المصنوع من الصيني «فايّنزا» ، فما كان أشبهها بمطبخ ، ولكن مطبخ شيطان لا إنسان!

وبينما وصيفتها ترجّل لها شعرها ، سمعت «دي شارتر» و «شولت» تحت نافذتها يتحدّثان . فأفسدت كل مارتّبته الوصيفة ، وأبدت بجرأة منبت الشعر من عنقها الذي كان جميلاً . ثمّ ألقت نظرة أخيرة على نفسها في المرآة ، ونزلت الى البستان .

وهناك ، في الروضة المظللة بأشجار السرو حتّى كأنها مقبرة هادئة ، كان «دي شارتر» ينظر الى «فلورنسا» ويردّد أشعاراً من نظم «دانتي» :

«في الساعة التي يكون فيها روحنا أشدّ اجتناباً للجسد...» .

وبقربه «شولت» جالس على السور ، متدلّي الساقين ، وأنفه طيّ لحيته ، منكبّاً على حفر وجه «البأساء» على مقبض عصاه ، عصا جوّاب الآفاق!

ردّد «دي شارتر» كلمات النشيد :

«في الساعة التي يكون فيها روحنا أشد اجتناباً للجسد وأقل اختبالاً بالفكر ، يكاد يكون الهيّأ في رؤاه...» .

فأقبلت متهادية تمشي الهوينا تحت مظلّتها ، في ثوب بلون الذرة ، وقد كستها شمس الشتاء الضعيفة نوراً عسجدياً شاحباً . فحيّاها «دي شارتر» تحية الصباح مبتهجاً ، فقالت :

ـ سمعتك تردّد أشعاراً أجهلها ، فلست أعرف من شعراء الطليان غير «متاستازيو» ، لأنّ استاذي الذي علّمني الايطالية كان يعجب به كثيراً ، ولم يكن يحبّ سواه . فما هذه الساعة التي يكون «الروح فيها إلهيّاً في رؤاه» ؟ ؟

ـ إنها مطلع الفجر ياسيّدتي ، أو قد يكون أيضاً فجر الإيمان أو الحب...

فقال «شولت» إنه لايظنّ الشاعر قد عنى بكلامه أحلام الصباح التي تترك عند اليقظة تأثيراً قوياً وأحياناً أثراً أليماً ، وهي لاتعد منفصلة عن الجسد . على أنّ «دي شارتر» لم يردّد هذه الكلمات إلا في حالة التجلّي التي عرته لدى مشاهدته في ذلك الصباح منظر الفجر الذهبي فوق الروابي الشعراء...

وكان مايأتينا ليلاً في نومنا من رؤى موضع حيرته منذ بعيد . فوصل آخراً الى اعتقاد أنها تأتينا ، لا ممّا يشغل أذهاننا سحابة نهارنا أكثر من كل شيء ولكن ، على الضد من ذلك ، من الفِكَر التي ننبذها وننأى بجانبنا عنها .

وعندئذ تذكّرت «تريز» حلمها في ذلك الصباح بالصائد الضال في طريق الغاب المغول...

قال «دي شارتر» :

ـ أجل ، إنّا نرى في الليل الأثار الحزينة لما أهملناه في الصحو . وطالما كان الحلم انتقاماً لأشياء بخست أو عتاباً على خلائق هجرت . ومن ههنا تجيء مباغتة ، وأحياناً كابة .

فظلّت لحظة صامتة تفكّر ، ثمّ قالت :

ـ قد يكون ذلك حقّاً .

والتفتت مشوّقة الى «شولت» فسألته أأتمّ حفر وجه «البأساء» على

يد عصاه . لكنّ «شولت» رغم أنه قد عرف في وجه «البأساء» صورة «العذراء»! وسرّه إطلاق هذا الاسم عليها حتّى لقد أنشأ رباعية لتكتب تحتها ، وقبل أن يلقيها...

فاستندت «تريز» كما فعلت يوم وصولها ، الى سور المشرف ، ونظرت الى بعيد ، باحثة فيما وراء أقيانوس النور عن قمم «فالمبوروزو» التي تكاد تكون كالعهن المنفوش...

وكان «دي شارتر» يلحظها ، فخيّل اليه كأنه رآها لأوّل مرّة ، فمثل هذا الحسن الظريف البديع قد استكشفه على محياها الرقيق الذي وإن خطّطه جهد الحياة والفكر ، لم يسلبه بهاء الفتوّة ولا سنا الصبوّة . أمّا الضياء الذي كانت تحبّه ، فقد ستر قصورها وزاد جمالها . وكانت فاتنة فعلاً ، وضيئة المحيا ، وقد استحمّت في ذلك النور الفلورنسي الناعم الذي يعزّز الأشكال الجميلة ، ويغذو الأفكار النبيلة ، وكان على خدّيها الأسيلين وردتان ، وفي حدقتيها الممزوج لونهما الرمادي باللون السماوي : ضحكتان . فإذا تكلّمت أشرق بياض ثناياها الناصع ، فكانت له عذوبة حارّة تصلي الفؤاد .

وبلمحة منه قدّر تقاطيع غصنها الرطب كافة ، من صدر ناهض ، وثدي ناهد ، وخصر واهن ، وردف مقوّس مهيل .

وكانت قد أخذت بيسراها مظلّتها ، وبيمناها المتجرّدة من قفّازها جعلت تعبث ببنفسجات...

وكان لدى «شارتر» ميل ، بل شغف ، بل جنون بالأيدي الجميلة... وكان يرى أنّ في اليد روحاً ، ولها سمة وسحنة ناطقة كالمحيا... وقد سبته يدا «تريز» وفتنتاه ، لأنهما كانتا يدين شهوانيّتين روحانيّتين معاً . وظهرتا له كأنهما عاريّتان تشويقاً وإغراءً . فعبد أصابعهما الدقيقة والأنامل ، وأظافرهما العنّابية ، وبشرتهما الرقيقة المخططة بسطور أنيقة كالنقوش العربية الصاعدة عند أسفل الأصابع نحو العقد بلطف واتّساق... فظلّ يحدّق بيدها مبهوتاً مفتوناً حتّى ضمّتها على مقبض مظلّتها .

وعندئذ جاء خلفها قليلاً ، عاد ينظر اليها ، الى نصفها الأعلى ، وذراعيها الجميلتين العبلتين ، وفخذيها الغنيّين المسبوكتين ، وكعبيها الدقيقين الملفوفين . فبهذا ، وبشكلها الجميل كلّه : راقته وأعجبته . قالت :

ـ أليست تلك البقعة السوداء التي هناك في حدائق «بوبولي» يامسيو دي شارتر ؟ إنّي رأيتها منذ سنوات ثلاث ، بأشجارها الكبيرة الحزينة .

وكانت الدهشة تغلب على «دي شارتر»لدى رؤيتها متفكّرة أو سماعها متكلّمة . وكأنّما أنغام صوتها الجليّة الرنّانة لم تطرق سمعه من قبل .

فأجابها بما عرض له من كلم . وابتسم جاهداً محاولاً إخفاء ثورة عواطفه وهيجة لواعجه . لقد عاد مبلبلاً مرتبكاً . فلم يبد عليها أنها لاحظت ذلك ، بل بدت عليها علائم الغبطة . فذلك الصوت العميق الذي غطّاها وأعوزها قد لاطفها دون علم منه وعزّزها...

ففاهت مثله بكلمات عاديّة :

ـ ياحبّذا المنظر الشائق والجوّ الرائق!

١٢

كانت «تريز »في الصباح ملقية رأسها على وسادة مطرّز عليها شعار على شكل الجرس ، تتأمّل فيما رأته من نزهات أمسها : من العذارى الجميلات المصوّرات محوطات بالملائكة ، أو الأطفال الذين لاعدد لهم مصوّرين أو محفورين ، وكلّهم جميل وكلّهم جذل وكانوا يغنّون بسذاجة في شوارع المدينة أهازيجهم . وهناك ، في معبد «برانكاتشي» المشهور وأمام تلك التصاوير المنقوشة على الجص الأبيض ، الشاحبة الساطعة كأنها فجر إلهي - حدّثها عن المصوّر الفلورنسي «مازاتشيو» حديثاً طليّاً حماسيّاً حتّى خالت أنها ترى الشباب ، استاذ الأساتذة ، واقفاً يستمع مفتوح الفم قليلاً أزرق العينين مأخوذاً مشدوهاً... وشغفتها عجائب ذلك الفجر الذي هو أبهى من النهار الصباحي... . وكانت ترى في «دي شارتر» روح تلك الأشكال الشائقة وعقل تلك الأشياء الرائعة... . فإنها بدي شارتر وفي دي شارتر قد فهمت الفن والحياة ولم تكن مشاهد الحياة تروقها الاّ بقدر ماكانت تروقه! فكيف نما ذلك العطف والوجدان وحدّة الحسن بينهما ؟ لم تعرف تماماً . في البدء حين أراد «بول فانس» تقديمه اليها لم تجد من نفسها رغبة في معرفته ، ولم تتسلّف شعور الميل إليه ، وذكرت تماثيل البرنز الجميلة وأشكال الشمع البديعة الممهورة باسمه التي لفتت نظرها في صالون «شان دي مارس» وعند «دوران رويل» . على أنها لم تتصوّر قط أنه يمكن أن

يكون مستميلاً أو جذّاباً أكثر من غيره من الفنّانين والهواة العديدين الذين طالما دعتهم الى مائدتها ، فلمّا رأته أكبرته ومالت اليه . وصحت عزيمتهاعلى اجتذابه والاكثار من رؤيته . وفي الليلة التي تعشّى عندها فيها تبيّنت أنّ ميلها اليه كان ضرباً من الميل العقلي النبيل الذي سرّها وأرضى كرامتها . ولكنه لم ينشب أن ضايقها نوعاً ما . فقد ضاقت برؤيته شديد الإنكماش والتحفّظ ، مشغولاً بنفسه ، عاكفاً على ذاته كثيراً ، منصرفاً عنها غير معنيّ بها إلاّ يسيراً . فودّت أن تجد الى لمس قلبه سبيلاً . وعلى هذه الحال ، غير الراضية ، المنغّصة بأسباب أخر ، وشعورها بوحدتها في الوجود ، قابلته ذات مساء أمام «متحف الأديان» فحدّثها عن «رافنّا» والملكة التي استوت في ضريحها على عرشها المصنوع من ذهب . ورأته في ظلام الليل رزيناً فاتناً بما في صوته العذب من حرارة ، وما في نظراته الوديعة من حنو . لكنّه بتحفّظه وانقباضه جعلها تحسّ الضيق والضجر . وهاهي ذي حتّى هذه اللحظة التي تماشيه فيها على مشرف القصر ، ماإن تزال غير قادرة على الحكم أتريد رؤيته دائماً أم لاتريدها بعد أبداً .

ومذ قابلته في «فلورنسا» كانت مسرّتها الوحيدة أن تراه على مقربة منها وتسمعه متحدّثاً اليها . فقد جعل حياتها جذّابة بما أدخله عليها من تغيير وطلاوة وجدّة ، وكشف لها عن أفراح الفكر وأحزانه العذبة ، وأيقظ شهوات المسرّات التي كانت فيها كامنة راقدة ، فعزمت عزماً قاطعاً على الإحتفاظ به ورعايته . لكن كيف ؟ ؟ لقد استبانت الصعوبات سلفاً . وعرضها عليها جميعها عقلها النيّر وشعورها القوي . فحاولت أن تخدع نفسها لحظة من وقتها . فقالت قد يكون رجلاً متحمّساً من أهل الخيال ، تائهاً في عالم الأحلام ، غارقاً في دراسات الفن ، فلا يكون له جمّ الشغف بالنساء فيظل سائراً مثابراً دون أن يتطلّع ليكون مطالباً جائراً ، لكنّها سرعان ماهزّت فوق الوسادة رأسها الجميل الغارق في جدائل شعرها الأشقر المتموّج الرجراج . ثمّ نبذت هذه الفكرة . فلو أنّ «دي شارتر» كان من غير أهل العشق لفقد

كل فتنته لها . فكفّت عن التفكير في المستقبل خاشية . ستعيش في الحاضر ، وذلك حسبُها ، هانئة قلقة متلهّفة مغمضة العينين...

كذلك كانت تتأمّل في الظلمات التي كانت تشقّها أشعة النور ، حين دخلت عليها وصيفتها حاملة رسائلها وشاي الصباح ، فميّزت خط «لومنيل» السريع البسيط على غلاف موسوم باسم نادي شارع رويّال ، وكانت قد توقّعت وصول هذا الكتاب ، ولشدّ ماعجبت من صدق حدسها ، شأنها وهي طفلة إذ تدهش عندما تدقّ الساعة دقّتها التي لاتخطىء معلنة ميقات درس الموسيقا . وكان «روبير» في رسالته يعتب عليها ، عتباً معقولاً ، إنها سافرت دون أن تخبره أو تترك له كلمة وداع . فما علّة ذلك ؟ وقد ظلّ منذ عودته الى باريس ينتظر كلّ يوم رسالة منها بلا جدوى . على خلاف ماكان في العام الماضي إذ كان أسعد حظّاً لأنه كان يجد مرّتين أو ثلاثاً في الأسبوع عند صحوه من نومه تلك الرسائل الرقيقة البليغة الى حد جعله يأسف على عدم إمكانه نشرها!...

فقلق ، وخفّ الى بيتها ، قال :

ـ «ولقد بهتّ لسماع نبأ رحيلك ، واستقبلني قرينك ، فأخبرني أنّك سافرت لتمضية أيّام الشتاء الأخيرة عند «مس بل» في «فلورنسا» طوع مشورته . لأنه كان منذ حين قد لاحظ عليك الذبول والنحول ، فرأى في تغيير الهواء ما يفيدك . وعلى أنّك لم تكوني تريدين السفر تمكّن من إقناعك لأنّ حالتك كانت تتفاقم وتزداد سوءاً . أمّا أنا فلم ألحظ أنّك كنت تزدادين نحولاً ، بل على الضدّ من ذلك كان يبدو لي أنّك من الصحة بمكان . فضلاً على أنّ «فلورنسا» لا تعد مشتى . ولست أفهم منك هذا الرحيل . إنه يعذّبني كثيراً .

«فاكتبي اليّ من فورك ، إنّي أتوسّل اليك ، فدعيني أطمئن... ولعلّك تزعمينني مرتاحاً لسماع أخبارك من فم زوجك وإيداعه إيّاي أسراره ؟ إنه يشقّ عليه غيابك ويحزنه أن تضطرّه واجباته العامة الى البقاء بباريس في هذا

الوقت . وسمعت في النادي أنّ هناك أملاً في دخول الوزارة ، فعجبت ، إذ ليس من المألوف اختيار الوزراء من الزعماء » .

ثمّ حكى لها حكايات صيده وقنصه... وذكر لها أنه أحضر لها جلود ثلاثة ثعالب أحدها بديع جداً لأنه جلد حيوان باسل أخذه بذنبه وأخرجه من جحره ، فارتدّ اليه وعضّه في يده . وقال : «ومع هذا كلّه فالحيوان كان يدفع عن نفسه محقّاً!» .

وقال إنه متضايق في باريس . فابن عمّه الصغير يريد أن ينتخب عضواً في النادي ، ويخشى إخفاقه ، على أنّ ترشيحه أعلن ، فلم يجرؤ على النصح له بالانسحاب ، وتلك تبعة كبيرة فيما يرى كم أنّ الخيبة منكرة كريهة!

وختم رسالته ملتمساً منها أن تكتب وتعود بلا تأخير .

فلمّا قرأت الخطاب ، مزّقته ببطء وألقت به في النار ، ونظرت اليه وهو يحترق ، محزونة واجمة مفكّرة...

أنه محقّ على يقين . وقد قال ماكان ينتظر منه أن يقوله . وشكا إذ كان ذا حق في الشكاية . فبم تجيبه ؟ أتطيل معه النزاع وتظل تتجنّى عليه وتتجهّم له ؟ على أنّ الأمر لم يعد أمر تجن وتجهّم . فإنّ موضوع نزاعهما قد أصبح في نظرها تافهاً الى حد أنها كانت لاتتذكّره من تلقاء نفسها . إلا أنها لم تعد ترغب في مضايقته بتاتاً . بل على النقيض من ذلك كانت كثيرة الشعور بالشفقة عليه!... أمّا إدراكها أنه أحبّها واثقاً منها مطمئناً كل الإطمئنان اليها فقد حزنها وأزعجها . أنه ، هو ، لم يتغيّر . فلا يزال كما كان من قبل . ولكنّها ، هي ، لم تعد كما كانت . لقد فرّقت بينهما أشياء غير محسوسة وإن كانت قوية التقلبات الجوّية المحيية المميتة......

ولم تكن بدأت بعد في كتابة الرد عندما جاءت وصيفتها لإلباسها وتزيينها . كانت مشغولة الفكر تقول في نفسها : «إنه واثق منّي مرتاح البال» . وهذا أشدّ مافتّ في عضدها وعيّل له صبرها . فطالما ضايقها أولئك السذّج البسطاء الذين لايرتابون في أنفسهم ولا في غيرهم .

ولمّا نزلت الى بهو الأجراس وجدت «فيفيان بل» جالسة تكتب . فقالت لها الشاعرة :

ـ أتريد عزيزة أن تعرف ماكنت أفعل في انتظارها ؟ لا شيء وكلّ شيء! كنت أنظّم شعراً! فلا مراء يا عزيزة في أنّ الشعر فيض النفس الطبيعي وازدهار الروح...

فقبّلت «تريز» «مس بل» وقالت ، ولقد ألقت رأسها على كتف صاحبتها :

ـ أفأنظر ؟

ـ انظري يا عزيزة ؟ إنها أشعار نظّمت على طريقة أغاني وطنك الشائعة .

فقرأتها «تريز» ثمّ قالت :

ـ هذه الأبيات رمزية يافيفيان ، ففسّريها لي .

ـ ولمَ أفسّرها ياعزيزة ؟ لماذا ؟ يجب أن يكون للصورة الشعرية معانٍ كثيرة . والمعنى الذي تختارينه منها يكون هو المعنى الصادق في حسابك . على أنّ معنىً منها ياحبيبتي شديد الوضوح ، هو أنّ علينا ألاّ نتخلّص باستخفاف ممّن وضعناه في حبّة قلبنا وجعلناه قرّة أعيننا .

●

أعدّت العربة ، فركبتاها إذ كانتا على موعد زيارة معرض الصور «البرتنلّي» في شارع «دلمورو» . وكان الأمير في انتظارهما وكانتا على وعدٍ من «دي شارتر» للقاء في القصر .

وبينما العربة تجري على حصباء الطريق المرتفع الفسيح ، تحدّثت «فيفيان» حديثاً قصيراً بصوت غنائي ينبعث سروراً وانشراحاً .

فقالت :

ـ كنت قد ذهبت يا عزيزة الى «كرمين» بصحبة «مسيو دي شارتر»

وتركت «مدام مارميه» بفييزول . فوجدت منها سيدة عجوزاً وديعة معتدلة الآراء طيبة الأخلاق تعرف كثيراً من نوادر كبار الباريسيّين وخاصّتهم . فإذا جعلت تقصّها فعلت مثل طاهي «ياميالوني» حين يبعث بالبيض المقلي من غير أن يملّحه فيترك المملحة الى جانب الصحن . «فمدام مارميه» سيدة حلوة اللسان ، لكنّما الملح هناك ، على جنب ، في عينيها! أنها ياعزيزة صحن «ياميالوني» وكلّ يأكله على ذوقه ومشتهاه!...

لشدّ ما أحبّ «مدام مارميه»!

فابتسمت «الكونتس مارتن» ، لكنها كانت تستشعر الملل وبدا لها الجو قاتماً والطرق موحشة والسائرون من الدهماء .

قالت «مس بل» :

ـ سيبتهج الأمير باستقبالك في قصره ياعزيزة!

ـ ماأظن!

ـ ولمَ يا عزيزة ؟

ـ لأنّي لا أروقه!

فأكّدت «مس بل» أنّ الأمير على الضد من ذلك من أشدّ المعجبين «بالكونتس مارتن» .

ووقفت العربة أمام قصر «البرتنلّي» . وكانت على الواجهة الغوطية القاتمة حلقات من البرنز ممّا كان يتّخذ لحمل الشعل في ليالي العيد في الزمن الغابر . وهذه الحلقات في «فلورنسا» عَلَم على مساكن الكبراء . فجعلت للقصر منظر عجرفة ومظهر غطرسة . وفي الداخل ، بدا فارغاً مهملاً كأنه غير آهل .

فخفّ الأمير للقائهما وسار بهما بين قاعات استقبال غير مؤثّثة ، حتّى بلغ بهما بهو المعرض . فاعتذر بقلة إمتاع مايريان من الصور . ورأت «الكونتس مارتن» بلمحة منها أنّ المعرض لا قيمة له وإنه لم يكن إلاّ مخزناً لبيع الصور المشهورة الزائفة لرجال المال كالّتي طالما عرضت على

أبيها فكان يرفضها بخبرة المالي أكثر مما يرفضها بخبرة الفنّان .

وأتى خادم ببطاقة زيارة . فقرأ الأمير بصوت مرتفع اسم «جاك دي شارتر» فأدار ظهره نحو زائرتيه وظهرت على سحنته هيئة الكلوح والغضب المر ، تلك التي تبدو على وجوه قياصرة الرومان . وكان «دي شارتر» على صحن الدرج الكبير ، فتقدم الأمير الى ملاقاته ببسمة فاترة .

فقالت «مس بل» :

ـ إنني أنا التي دعوت «مسيو دي شارتر» أمس الى المجيء الى قصر «البرتنلّي» عارفة ماينشئه لك من سرور ، فقد أراد أن يرى معرض صورك .

وكان «دي شارتر» قد رغب حقّاً في الحضور ليلقى «الكونتس مارتن» .

وكانت «مس بل» تغنّي الأمير ألحاناً عن صور أولئك الشيوخ والعذارى الذين هفّت الرياح بثيابهم الزرقاء فرفعتها...

ودنا «دي شارتر» من «تريز» كمداً متهيّج الأعصاب ، قائلاً لها همساً :

ـ هذا المعرض مخزن أودعه تجّار الصور في العالم من أقصاه الى أقصاه نفاة مخازنهم ، وهنا يفلح الأمير في بيع ما استعصى على اليهود أن يبيعوه...

وسار بها الى صورة «العائلة المقدّسة ـ عائلة يوسف النجّار» ، وكانت معروضة على نصب مغطّى بالمخمل الأخضر ، وعلى هامشها اسم «ميكيل انجلو» وقال :

ـ رأيت هذه الصورة عند تجّار الصورة بلندره وبال وباريس . ولمّا أعياهم أن يحصلوا منها على الخمسة والعشرين «بنتوا» التي تساويها ، عهدوا الى آخر سلالة «البرتنلّي» أن يحصل منها على خمسين ألفاً من الفرنكات!!!

وإذ رآهما الأمير يتهامسان وحزر ما كانا يقولان ، دنا منهما متلطّفاً متعطّفاً قائلاً :

ـ توجد من هذه الصورة نماذج طبق الأصل معروضة للبيع في كلّ مكان . ولست أؤكّد أنّ هذه هي الأصلية . لكنّها كانت دوماً موجودة عند أسرتي . والفهارس القديمة تنسبها الى «ميكيل انجلو» وهذا كل مايسعني أن أقوله .

وعاد الأمير الى «مس بل» التي كانت تبحث عن صور الفنّانين الأوائل .

وضاق صدر «دي شارتر» . وكان من أمسه يفكّر في «تريز» وقد حلم بها سواد ليله واشتغل في حلمه بتصويرها وها هو ذا الآن ألفاها شائقة ولكن من وجهة أخرى ، مشتهاة الى حدّ لم يحلم به في رؤى الليل ، فشكلها الهيولي القوي له جاذبية لا تغالب ولاتقاوم ، وروحها المكنون الخفي أشدّ غموضاً وخفاء فلا يكشف ولا يدفع .

وكانت مكتئبة ، فخالها غير مكترثة ، أو ساهية لاهية ، فقال في نفسه : إنه لم يكن عندها شيئاً مذكوراً وسيصير ثقيلاً عليها هزءاً في عينيها .

فاغتمّ واهتاج ، وغمغم بمرارة هامساً في أذنها :

ـ لقد توقّعت ذلك ، فلم أرد المجيء . فلماذا أتيت ؟

ففهمت من فورها ما عناه ، وأدركت أنه الآن يخافها ولذلك كان ملولاً خجولاً .

هكذا أعجبها ، وقد شكرت له ماكان عليه من عناء واشتهاء رأت أنها نفثتهما فيه ، وخفق فؤادها ، لكنّها تظاهرت أنها فهمت أنه يأسف على تحمّله عناء الحضور لرؤية صور رديئة ، فأجابت أنّ المعرض في الواقع لاقيمة له بتاتاً ، وكان في جزع خشية أن يكون لم يعجبها ، فاطمأنّ ، واعتقد حقّاً أنها كانت عنه ساهية لاهية ، فلم تفطن لنغمة صوته ، أو لدلالة الكلمات التي أفلتت منه . فردّد قولها :

ـ «ولا قيمة له بتاتاً» .

ودعا الأمير زائريه الى الغداء ، ورجا من صديقهما أن يبقى معهما .

فاعتذر «دي شارتر» . وخرج يقطع الصالون الكبير الخالي من كل شيء إلاّ من خُزُن مكدّسة عليها علب الحلوى الفارغة ، فإذا به يرى نفسه منفرداً بالكونتس مارتن . وكان قد ارتأى تجنّبها فلم يعد يفكّر إلاّ في متى يعود فيراها . فذكّرها بأنّ الغداة موعد زيارتها قصر «بارجاللو» وقال :

ـ وقد تفضّلت فسمحت لي أن أصحبك .

فسألته ألا يراها اليوم ممرورة كئيبة ،

ـ كلاّ! إنه لم يرها كذلك ، لكنه يحسبها حزينة نوعاً ما...

وأضاف :

ـ ويا أسفاً عليّ ألاّ حق لي في معرفة أحزانك وأفراحك... ؟

فنظرت اليه نظرة عجلى ، فيها من القسوة مافيها ، وقال :

ـ لايدور بخلدك أنني سأجعلك موضع سرّي ، أليس كذلك ؟

وغادرته بغتةً عَمْدَ عَيْن .

١٣

في بهو الأجراس ، وتحت المصابيح المحجّبة الضوء الاّ قليلاً ، جلست «مدام مارميه» بعد العشاء تصلّي وعلى ركبتيها قطّة بيضاء . وكان المساء بارداً . وهناك «الكونتس مارتن» ماتزال مملوءة العينين بما شاهدته في يومها من قمم الروابي البنفسجية ، والسماء الصافية ، وشجر البلّوط الأثري العتيق الذي لوى أذرعه الهائلة ومدّها على الطريق ، وكانت تبسم من تعب هنيء ، وقد ذهبت الى «شارتر يزايما» برفقة «مس بل» و«دي شارتر» و «مدام مارميه» والآن ، في نشوة رؤاها ، وثمل ذكريات نهارها ، نسيت مشاغل اليومين الماضيين ، والرسائل المضجرة ، والعتب النائي ، وخيّل اليها أنّ ليس في الدنيا غير المعابد المنقوشة الأروقة والأبهاء ، المصوّرة الأركان والأرجاء ، وغير القرى ذوات سقوف البيوت الحمراء ، والطرقات التي بينما سمعت فيها عذب التمليق والاطراء رأت منها انبثاق صبح الربيع في كبد السماء...

وكان «دي شارتر» قد فرغ لساعته من صنع دمية صغيرة من الشمع للآنسة بل تمثّل «بياتريس»[(١)] وفيفيان ترسم ملائكة وقد انحى عليها الأمير «البرتنلّي» في رخاوة وخنوثة ، وهو يداعب لحيته ، ويلقي على ما حوله كنظرات الغانيات...

---

(١) فلورنسية مشهورة ١٢١٦ ـ ١٢٩٠ خلّد (دانتي) الشاعر العظيم ذكرها في كتابه «المهزلة الإلهيّة» .

فقال رداً على ملاحظة من «فيفيان بل» في الزواج والحب :

ـ على المرأة أن تختار ، فإمّا مع رجل تميل اليه النساء فلا تكون معه راحة قط ، وإمّا مع رجل لا تميل النساء إليه فلا تكون معه في سعادة قط .

فقالت الشاعرة :

ـ وأنت ياعزيزة ؟ أي نصيب تختارينه لصديقة عزيزة عليك ؟

ـ أتمنّى يا «فيفيان» أن تكون صاحبتي هانئة ، كما أتمنّى لها أن تكون بمنجاة من الهم ، وهي تريد أن تكون كذلك كراهة للخيانة والشكوك المذلة وإساءة الظن الدنيئة .

ـ لكنّ الأمير ياعزيزة قال أنّ المرأة لاتستطيع أن تحظى بالسعادةوراحة البال في وقت واحد ، فقولي أيّهما تختارين لصاحبتك ياعزيزة ؟

ـ ما من إنسان يختار يافيفيان ، ما من أحد يختار . فبربّك لا تدعيني أقول رأيي في الزواج .

وعندئذ ظهر «شولت» بهيئته الوجيهة كهيئة أولئك السائلين الذين يشرفون أبواب المدن القديمة!

وكان آتياً من إحدى حانات «فيبزول» حيث كان منذ قليل يلعب والفلاحين لعبة الورق .

فقالت «مس بل» :

ـ هو ذا مسيو «شولت»! وهو الذي يدلّنا على الرأي في الزواج ، وإنّي أتوق الى سماعه كما لو كان هاتفاً أو ذا رأي معصوم!! فهو لايرى مانراه ، ويرى مالا نراه . فيا أيّها السيد «شولت» ما رأيك في الزواج ؟!

فجلس ورفع سبابته ، سبّابة «سقراط» ، ثمّ قال :

ـ أتتكلّمين يا مدموازيل عن العقد المشهود ؟ بهذا يكون الزواج سرّاً دينياً . ومن هنا يحدث أنه يكاد يكون دائماً حراماً! أمّا فيما يختصّ بالزواج المدني فمحض رسميّات . والقيمة التي يعلّقها عليه مجتمعنا الحالي حماقة تضحك منها نساء الزمن الخالي . ونحن مدينون بهذا الحكم الخاطئ ، ككثير

غيره ، لتلك الحركة التي قام بها الفلاحون ، والطفرة التي طفرها رجال المال والقانون ، واطلقوا عليها اسم «الثورة» ، الثورة التي تبدو جديرة بالأعجاب في عيون الذين ينتفعون منها ويرتزقون . وهي الام الولود لكل حماقة . ومنذ جيل وهي تخرج لنا مع مطلع كل شمس سخافات جديدة من جببها المثلثة الالوان[1]!

فليس الزواج المدني ، في الواقع وحقيقة الامر ، سوى تسجيل كغيره من التسجيلات الكثيرة التي انشأتها الحكومة لتتأكد من حال رعاياها . ففي الحكومة المتدينة يجب ان يكون لكل فرد بطاقته ، ولهذه الطاقات كافة قيمتها عند ابن الله!!!

اما أدبيا ، فليس هذا الادراج في سجل كبير بكاف لحمل امرأة على اتخاذ عشيق . فمن ذا الذي يتردد في الحنث بيمين حلفها أمام عمدة بلد ؟ فيجب ان تكون المرأة تقية لتتمتع بلذات الفحشاء الحقيقية!!

فقالت تريز :

ـ لكننا ياسيدي قد تزوجنا في الكنيسة .

ثم عقبت أعمق اخلاصا :

ـ لست أفهم كيف يمكن الإنسان ، رجلا كان أو امرأة ، بلغ سن الرشد والتمييز التي يعرف فيها ما يصنع ان يرتكب هذه الحماقة الزواج...

فنظر اليها الأمير «البرتنلي» متشككاً ، وكان على حدة ذهنه لايتصور ان أحداً ينطق عن غير الهوى ، لابداء الرأي في مسألة عامة مثلا . فظن ان «الكونتس مارتن» قد استكشفت مشروع زواجه بمس بل فاعتزمت معاكسته ففكر في الدفاع عن نفسه والاخذ بثأره . فاختلس اليها النظر الشرر ، وخاطبها في ظرف وتودد قائلا : ـ انك يا سيدتي تبدين دلال الفرنسيات الجميلات الذكيات اللواتي يثقل النّير كاهلهن ويهيجهن .

---

(١) اشارة الى علم الثورة الفرنسية ، وهو علم الجمهورية الحالي .

فالفرنسيات يعشقن الحرية ، ولا أرى منهن من يستحقها أكثرمنك . وأنا نفسي عشت زمنا في فرنسا ، وعرفت المجتمع الباريسي الانيس ، وأعجبت به ، سواء في أبهاء الاستقبال أم على موائد الطعام ، وفي المحافل والملاهي والملاعب . لكننا ، نحن الطليان ، هنا بين جبالنا وتحت أشجار زيتوننا ، نعود الى خشونة الريف ، ونرجع الى طباع بلادنا القروية ، فنرى الزواج أنشودة حب تفيض حلاوة وطلاوة .

وكانت «فيفان بل» تفحص الدمية التي صنعها «دي شارتر» وتركها على المنضدة ، ثم صاحت :

- اني واثقة من ان هذه صورة «بياتريس» الناطقة! فهل تعرف يامسيو «دي شارتر» ان هناك أشراراً يقولون ان «بياتريس» لا أصل لها ؟

فأعلن «شولت» أنه من أولئك الأشرار ، فهو لا يعتقد أن «بياتريس» كان لهامن الأثر أكثر مما كان لغيرها من النساء اللواتي أشاد بذكرهن شعراء الحب القدماء .

ولما كان «شولت» لا يحتمل سماع اي مديح غير مغدق عليه وكان كثيرة الغيرة من «دانتي» ومن العالم قاطبة ، وكان كذلك أدبيا أريباً ، حسب أنه استكشف نقطة الضعف ، فقال :

- اني أشك في ان تكون «بياتريس» عاشت في غير مخيلة أمير الشعراء المجدبة . وحتى في هذه المخيلة تلوح رمزاً خالصاً نقياً أو بالحري تعداداً حسابياً أو تمرينا فلكياً . لأن «دانتي» ، والكلام بيني وبينكم ،كان طبيباً متخرجاً في «بولونيا» لابأس به ، وهذا الاستاذ في علم الجبر قد حلم بالأرقام فكانت «بياتريس» زهرة حسابه ، وحسب!

ثم أشعل غليونه ، فاحتجت «فيفان بل» عليه صارخة :

- صه! لا تفه بمثل هذا الكلام «شولت» ، انك تؤلمني ، ولو سمعك صديقنا مسيو «جبهار» لخاصمك أشد الخصام . وعقاباً لك سيتلو عليك الأمير «البرتنلي» النشيد الذي تعلل فيه «بياتريس» وجود الكلف فيوجه

القمر . فخذ (المهزلة الالهية) يا «أويزبيو» ، انه الكتاب الأبيض الذي تراه على المنضدة فافتحه واتْل علينا .

وفي المطالعة ، تحت المصباح ، كان «دي شارتر» جالساً بالقرب من «الكونتس مارتن» يحدثها همساً عن «دانتي» متحمساً ، مطلقا عليه اسم «مثّال الشعراء الأعظم» .

فاعترفت «تريز» بانها ترى «دانتي» غامضا جهد الغموض ، وليس يستهويها الأ قليلا . اما «دي شارتر» الذي تعود مشاركتها في كافة آرائه في الشعر والفن ، فدهش واستاء منها نوعا ، وخاطبها بصوت مرتفع ، قائلا :

ـ هناك أشياء قوية عظيمة لا تشعرين بها!

فرفعت «مس بل» رأسها ، وسألت عن هذه الأشياء التيي لا تشعر بها «عزيزة» . ولما سمعت أن منها عبقرية «دانتي» صاحت بغضب كذب :

ـ وي! أفلا تجلين الأب الأستاذ الحقيق بكل ثناء ، النهر المعبود ؟ فلست أحبك ياعزيزة بل أكرهك!

وذكرت في معرض العتب على «شولت» ، و«الكونتس مارتن» حكاية ذلك المواطن الفلورنسي التقي الذي أخذ من الهيكل الشموع المضاءة تمجيداً ليسوع المسيح ووضعها أمام تمثال «دانتي»...

وعاد الامير بعد هذه المقاطعة الى القراءة .

فأصرّ «دي شارتر» على رغبته في جعل «تريز» تعجب بمالا تفهم ويمينا ، لقد كان من أجل خاطرها يضحي بدانتي والشعراء على بكرة أبيهم مع الدنيا كلها قائمة برأسها!

على أن تريز كانت بقربها منه ، ورؤيته إيّاوها هادئة مشتهاة ، قد هاجته ، على غير علم منها ، بفتنة جمالها البسّام .

فشعر بالعتاد يدفعه ليحملها أفكاره وعواطفه بل أهواء وهواجسه... فضيّق عليها الخناق ، فى صوت خافت ، وكلمات على عجل ، فيها الحجة والبرهان ، فصاحت به :

ـ رباه! ماأشد بأسك وعنادك!

وعندئذ أسرَّ إليها ، وهو مضطرم الصوت حارُّه ، وقد حاول عبثاً أن يخمده :

ـ عليك أن تأخذيني بروحي ، فلن أفرح بأن أنالك بروح غريب مني لم يكن روحي .

فسرت مع هذه الكلمات في «تريز» رعدةٌ من الخوف والفرح معا .

١٤

في اليوم التالي ، عندما استيقظت من نومها ، قالت لنفسها إن الواجب يقضي عليها بالرد على رسالة «روبير» . وكان الجو ماطراً ، فصغت بفتور الى قطرات الماء تساقط على مشرف القصر . وكانت «فيفان بل» قد جهزت المنضدة بذوق سليم ، بجميع أدوات الكتابة الفنية ، فمن ورق رسائل يماثل ورق الكتب التي دونت فيها صلوات المسيحيين ، الى ورق بنفسجي شاحب ملمَّع بالفضة ، الى أقلام من العاج الصناعي بيضاء خفيفة تمسك كالفرشاة ، الى حبر قُزحي اللون يتحول على الصفحة الى لون سماوي ذهبي...

فذهب صبر «تريز» ورمت بهذه الأدوات الظريفة غير العادية التي رأتها غير متناسبة مع الخطاب البسيط الصريح الذي تريد كتابته . ومّرت بشفتيها بسمة واهنة عندما فطنت الى ان لفظ «صديق» الذي خاطبت به «روبير» في السطر الأول قد اتخذ على القرطاس المفضّض المموّج بلون الصدف ورقاب الحمام شكلاً شاذاً لاعباً... وعانت صعوبة في صياغة الجمل الأولى . وعجّلت في تحبير بقية الكتاب . فكتبت طويلا عن «فيفان بل» والامير «البرتنلّي» ، وقليلا عن «شولت» ، وذكرت أنها رأت «دي شارتر» في مروره بفلورنسا . وأطرت بضع صور في المتحف لم تكن راقتها فعلا ولكنها ذكرتها لمجرد ملء الصفحات ، وكانت تعرف أن «روبير» لا يفهم في التصوير شيئا ، وان كل ما كان يعجب به صورة رجل صغير وراع .

وعادت فرأت بعين بصيرتها ذلك الدراع الصغير الذي أراها إياه ، فخورا به ، في حجرة نومه بقرب المرآة تحت صور أفراد أسرته . فبدا لها هذا كله ، على ما بينها وبينه من البعد ، تافها مملا محزنا . وختمت خطابها ببضع كلمات ودية خالصة . ففي الحق لم تشعر قط من قبل نحو حبيبها بمثل ما شعرت به الآن من طمأنينة ورأفة .

وفي الصفحات الأربع قالت قليلا وعَنَت أقل ، واكتفت بأخباره بأنها ستبقى شهراً آخر في فلورنسا حيث ينفعها الطقس ، ثم كتبت الى أبيها وزوجها والأميرة «سنيافين» . ونزلت الدرج وفي يدها رسائلها ، ووضعت ثلاثا منها على الصحن الفضي المعد للورد ووضعت خطاب «لومنيل» في جيبها حَذَرَ عين « مدام مارميه» الفضول المتجسسة ، على نية أن تضعه بنفسها في احد صناديق البريد في الطريق عند خروجها للتنزه .

ولم ينشب «دي شارتر» ان جاء ليصحب الصديقات الثلاث الى المدينة ، وبينا كان ينظر في الردهة رأى الرسائل على صحن الفضة .

ودون اعتقاد منه بالاستدلال على الخُلق بخط اليد ، تأثّر بشكل الحروف التي بدت له في جلاء وتأنق خاص كأنها نوع من الرسم . فقد فتنه خط «تريز» لأنه أذكره إيّاها وكان منها كذخر حميد! وقدّر أيضاً مافيه من صراحة بالغة وبساطة باسلة ، ونظر باعجاب شهواني الى العنوانات من غير أن يقرأها...

وفي تلك الصبيحة زاروا «سانتا ماريا نوفلاً» ، وكانت «الكونتس مارتن» قد ذهبت اليها من قبل برفقة «مدام مارميه» ، غير أن «مس بل»» عيّرتهما أنهما لم يريا «جنرفا دابنشي» الجميلة على لوح من الجص في صدر الكنيسة ، وقالت لهما :

- يجب أن تشاهدا هذا الوجه الصبيح على نور الصباح .

وبينا كانت الشاعرة وتريز تتحدثان معا ، كان «دي شارتر» يساير «مدام مارميه» صاغياً بصبر الى ما تقصّه عليه من نوادر أعضاء الأكاديمي

مع ظريفات النساء . وشارك السيدة الصالحة همومها لما بذلته عدة أيام من جهود ذهبت أدراج الرياح في سبيل الحصول على نقاب من «التُلّ» . ولم تجد في حوانيت فلورنسا كلها نقاباً واحداً يلائم ذوقها ، فهي لذلك تحن الى شارع «دوباك» بباريس...

ولما خرجوا من الكنيسة مروا بتخشبية الخصَّاف الذي اتخذه «شولت» أستاذاً . وكان الرجل الصالح يرتق حِذَاء قروي ، وغصن الريحان الأخضر الى جانبه ، والعصفور ذو الساق الخشبية يزقزق بقربه . فسألت «الكونتس مارتن» الشيخ عن صحته ، وهل لديه من العمل كفايته ، وهل هو بخير ، فأجاب عن كل هذه الأسئلة بكلمة «نعم» الأيطالية الجميلة : «سي»! «Si» التي تخرج من فمه الأدرد موسيقية شجية .

فطلبت اليه أن يروي لهم قصة عصفوره ، فقال إن الطائر الصغير المسكين الطائش وضع رجله ذات يوم في الشمع المغلي :

ـ فصنعت للرفيق الصغير ساقاً خشبية من عود ثقاب ،وهو الآن يستطيع أن يجثم على كتفي كما كان يفعل من قبل .

فقالت «مس بل» :

ـ هذا شيخ طيب القلب يعلّم مسيو «شولت» الحكمة ، وكان في«أثينا» خصَّاف يُدعى «سيمون» وضع أسفاراً في الفسلفة ، وكان صديقا لسقراط ، ولقد وجدت مسيو«شولت» دائماً شبيها لسقراط .

فسألت «تريز» صانع الأحذية أن يخبرهم باسمه وبقصته . فقال إنه يدعى «سرافينو ستو بيني» من «مستيا» ، وقد بلغ من الكبر عتيّاً ، وكانت حياته تعباً كلها .

ورفع عويناته فوضعها على جبينه ، كاشفاً عن عينين زرقاوين تفيضان وداعة ورقة ، ويكاد يغشي بصرهما تحت جفونهما الحمراء وعاد يقول :

ـ كانت لي زوجة وكان لي اولاد ففارقوني وأنا أعيش اليوم وحدي ، وقد عرفت أشياء غابت الآن عني...

١٥

تركت «تريز» «دي شارتر» وذهبت برفقة صديقها «مس بل» ومدام مارميه «لتناول الغداء عند سيدة فلورنسية عجوز وهن العظُم منها واشتعل الرأس شيباً . وقديماً هام بها الملك «فكتور عمانوئيل» إذ كان دوقاً لسافوي . ومذ ثلاثين عاماً وهي لم تغادر مرة واحدة قصرها القائم على شاطىء «الارنو» حيث انقطعت لتلوين وجهها بالمساحيق البيضاء والحمراء ، ووضع الشعر البنفسجي اللون على رأسها والعزف على القيثارة في ساحات القصر الفسيحة وكانت تستقبل فيه خاصة أهل فلرنسا ، وكثيراًما كانت «مس بل» تذهب لتزورها .

وعلى المائدة ، أخذت هذه المعتزلة البالغة من العمر سبعاً وثمانين سنة ، التى أدبر غريرُها وأقبل هريرُها ، تسأل «الكونتس مارتن» عن البيئات الباريسية اللاهية الأنيقة التي تتبع أخبارها في الصحف والاحاديث ، في تصاب وخفة جعلها مرور الأيام جلالا وحشمة! . فإنها على وحدتها ، مازالت بما تحمله للمسرات وأهلها من إكبار وإعجاب .

ولما خرجن من القصر ، وأردن تجنب الرياح العاصفة عبر النهر ، سارت «مس بل» بصاحبتيها في أزقة ضيقة عتيقة مبنية بيوتها بحجارة سوداء ، تفضي إلى ساحة فسيحة بها رابية وثلاث شجرات ذاهبة في الجو الصافي .

فسرن حتى كنيسة «أورسان ميكيل» حيث كان «دي شارتر» على وعد منهن .

وكانت «تريز» تفكر فيه إذ ذاك بالتذاذ واهتمام فائقين ، على حين أن ما كان يشغل بال «مدام مارميه» هو البحث عن نقاب «التُّل» ، فقد منوّها بأنها تجده في محل بشارع «الكورسو» فذكرتها هذه الحاجة بحكاية جرت للمسيو «لاجرانج» صديقها ذات يوم وهو يلقي محاضرته ، إذا أخذ من جيبه نقاباً موشّى بحبات من الخرز الذهبي ، فمسح به جبينه ، واهماً أنه منديله! فقهقه الحضور دهشين . وكان هذا النقاب لابنة أخته الآنسة «جان ميشو»التي عهدت اليه به وقد أخذها الى حفلة موسيقية في الليلة السابقة . ووصفت «مدام مارميه» لصاحبيها كيف انه لما وجد النقاب الموشّى في جيب معطفه أخذه معه على نية أن يرده الى ابنة أخته ، وكيف حدث أن سها فنشره ملوّحاً به أمام النظارة المبتسمين .

فذكرّ اسم «لاجرانج» «تريز» بالمذنب الملتهب الذي تكهّن به ذلك العالم . فقالت لنفسها بحزن وتبكيت ، إن هذا وقته ، فليته يجيء وينهي العالم ويخلصها من ورطتها!... لكنها التفتت فشاهدت السماءَ وقد اقتحمها هواء البحر فتلألأت زرقاء في شحوب وجفاء .

فلفتت «مس بل» نظر «عزيزتها» الى تمثال من تماثيل البرنز التي تحلي واجهة الكنيسة قائمة في كواتها المحفورة . وكان تمثال «سان جورج» ، لكن «عزيزة» رأت أن شكله عادي ممل عنيد . فتذكرت في تلك اللحظة الخطاب الذي في جيبها...

واذ بالصالحة «مدام مارميه» تقول :

ـ أظن هذا هو المسيو «دي شارتر»!

وكان في طلبهم ، فالتقوا وإياه ، وبينا كانوا يقتربون من تمثال «سان مارك» رأت «تريز» صندوقاً للبريد مثبتاً في حائط الطريق الضيق الذي يقوم التمثال في نهايته . وتخّير «دي شارتر» موقفاً يرى منه جيداً تمثال

صاحبه« سان مارك » ، وتحدث عنه كما لو كان صديقا حميماً فقال :

ـ إني أزوره دوماً كلما بلغت فلورنسا وقبلما أذهب الى أي مكان آخر فيها . لم أغفل ذلك إلا مرة واحدة ، لكنه سيغتفرها لي ، فهو رجل فاضل . وسواد الناس لا يقدره قدره ، وقليلا ما يلفت نظره ، أما أنا ففرح بصحبته ، وهو حيٌّ عندي . وفي وسعي أن أفهم الصيحة التي صاحها صانعه « دونتانلّو » بعد ما نفخ فيه من روحه ، قائلاً « أيها القديس مارك! كيف لا تتكلم ؟ » .

فبرمت « مدام مارميه » بسماع الاعجاب بسان مارك فأخذت « مس بل » الى شارع « كالزايولي » في طلب النقاب ، وفضّلتا ترك « عزيزة » و« دي شارتر » يتعبدان وحدهما للتمثال ، واتفقوا على اللقاء عند بائعة القبعات .

واستطرد المثّال حديثه قائلاً :

ـ لقد أحببته ، لقد أحببت هذا القديس « مارك » لأني وجدت فيه أكثر مما وجدت في تمثال « سان جورج » يدَ « دونتانلّو » وروحه ، هذا الصانع الذي عاش طوال أيامه فقيراً مستقيما . وأجدني اليوم أشدّ ما كنت حبّاً له ، لأنه بحيائه ووقاره البالغين يذكرني بذلك الشيخ خصّاف « سانتا ماريا نوفلاّ » الذي كنت صباح اليوم تتحدثين اليه في رقة تفوق الوصف...

فقالت : آه!... لقد نسيت اسمه! ونحن ومسيو « شولت » ندعوه « كانتان ماتسيس » ، لأنه يذكرنا بصور الشيوخ التي رسمها المصور! المدعو بهذا الاسم .

ولما دارا حول زاوية الكنيسة ليشاهدا واجهتها التي تقابل محلج الصوف القديم الذي له مظلة من القرميد الأحمر معلق تحتها (الحَمَل) وهو شعار المحلج ، ألقت « تريز » نفسها أمام صندوق البريد الذي كان يعلوه الصدأ والغبار الى حد يلقي في النفس أن ساعي البريد لم يقربه قط!

فدسّت فيه خطابها ، تحت عيني « سان مارك » الصافيتين الساهيتين...

ورآها «دي شارتر» ، فشعر لساعته كأنما أصابت قلبه طعنة . نجلاء . فحاول أن يتكلم أو يبتسم ، لكن اليدالمسكوة بقفازها ، التي ألقت بالخطاب ، ظلت ماثلة له . وتذكرت أنه رأى في ذلك الصباح رسائل «تريز» على الصحن الفضي في الردهة . فلِمَ تضع هذه مع تلك ؟

لم يكن حزرُ السبب بعسير .

فوقف جامداً ، مشَّرداللب ، شاخص البصر الى غير شيء... وحاول أن يسكن روعه بقوله : «قد يكون خطاباً غير ذي بال وإنما أردت إخفاءه اتقاء فضول «مدام مارميه» الملحاح!» .

قالت تريز :

ـ يا مسيو دي شارتر ، لقد حان وقت لقائنا صاحبتينا عند تاجرة القبعات .

كان لايزال يفكر في نفسه يقول :

ـ لعلها كتبت الى «مدام شمل» التي شجر الخلاف بينها وبين «مدام مارميه» تريد اصلاح ذات بينهما .

وما لبث ان تبين هبل هذه الظنون .

لقد برح الخفاء!... إن لها عاشقا!... وقد كتبت اليه ، ولعلها قالت : «رأيت اليوم دي شارتر ، وصاحبنا المسكين مُدَلَّه بي» .

وأياً ما كان كتابها ، فلها عشيق . ولم يكن لها مثل ذلك الخاطر قط . وأحدثت له فكرة أنها لسواه ، هذه الفكرة المباغتة آلاماً مبّرحة بجسمه ورحه معا .

وظلت تلك اليد ، اليد الصغيرة ملقية الخطاب ، ماثلة أمام ناظريه ، باقية في عينيه تلهبهما لهيبا موجعا...

ولم تدرك «تريز» سِّر سكرته ووجومه الباغتين ، بيد انها وقد رأته ينظر قلقا الى صندوق البريد ، حزرته من فورها . فعجبت أن يغار بلا حق ، على أنها لم تشعر باستياء .

ولما وصلا الى «الكورسو» رأيا من بعد «مس بل» و «مدام مارميه» خارجتين من حانوت القبعات .

فقال «دي شارتر» مخاطبا «تريز» لهجة الآمر المتوسل :

ـ لي معك حديث ، ويجب أن ألقاك على حدة ، فكوني غدا في السادسة مساء بلونجارنو أتشياؤلي!

فلم تحر جوابا .

١٦

في نحو السادسة والنصف ، وصلت الى «لونجارنو أتشياؤلي» متشحة بمعطفها الصوفي ، فاستقبلها «دي شارتر» بنظرة منكسرة براقة ، أثرت في نفسها ، ومست شغاف قلبها . وكانت الشمس الجانحة الى المغيب تصبغ «الارنو» المتلاطمة بلون الارجوان . فمكثا هنيهة صامتين . ثم سارا نحو «بونت فيو» . متتبعين صف القصور القائمة على نسق ونظام .

وكانت هي التي بدأت الحديث بقولها :

ـ ها أنت ذا ترى انني جئت ، إذ رأيت واجبا علي أن أجيء ، فلست أشعر بانني بريئة مما حصل ، فانا عارفة باني قد فعلت كل ما يجعل موقعك حيالي هو موقفك الآن ، وقد أوحى اليك تصرفي افكاراً ما كانت لولا تصرفي لتخطر لك في بال...

فبدا عليه كأنه لم يفهم ، فعادت تقول :

ـ كنت أنانية ، وكنت غير حازمة ، فقد أعجبني واستهواني ذكاؤك ، فلم أعُدْ استطيع إفلاتك ، فبذلت كل ما في طاقتي لأجتذبك وأحتفظ بك فتطرّفت لك ، ولم افعل ذلك ببرودة قلب أو قصد الخديعة ، ولو انني فعلاً تظَرفت...

فهزّ رأسه منكراً أنه لا حظ ذلك او فطن له ، فقالت :

ـ أجل! لقد تظرّفت لك ، ولم يكن من ديدني ان أتظرف لأحد ، ولست أزعم أنك حاولت استغلال ذلك وأن كان من حقك أو أزعم أنك لمحاولتي هذه

قد ذهبت بك الخيلاء او لعب بِعطفك الكبرياء ، وقد يجوز أنك لم تلحظ ذلك ، لأن ذوي المواهب العالية ينقصهم أحيانا الدهاء . بيد اني أعرف جيدا انني لم أكن ، كما ينبغي أن اكون . فصفحاً جميلا! وهذا ما أتيت من أجله ، فلنبق صديقين حميمين ما بقينا على قيد الحياة .

فقال لها في رقة حزينة ، إنه قد أحبها وبدأ حبه سهلا مفرحا لذيذا ، واجتمعت أمانيه في ان يراها ثم يعود فيراها ، لكنها مالبثت ان اهتاجت مشاعره واسترقّت فؤاده ، وجعلته بمعزل عن نفسه . فانفجر بأس هواه بغتة وبقوة في ذات يوم على مشرف قصر «فييزول» والآن اصبحت تعوزه الشجاعة ليألم صامتا ، وهاهوذا صرخ ملتمسا معونتها ، وهاهوذا اتى بغير خطة مرسومة ، واذا كان قد باح لها بحبه فذلك لانه لم يعد يستطيع الكتمان ، وعلى الكره منه ، وبضغط الاحتياج القاسي للتحدث عنها ، واليها ، لانها فيما يتعلّق به المخلوقة الوحيدة الكائنة فحياته لم تعد فيه ، وانما فيها . فلتعرف إذاً أنه يهواها ، وليست عواطف هواه بالرقيقة بل إنه كَلَفٌ جارف وشغف جارح ، وانه ولعٌ شديد وعشق مبيد!...

ووا أسفا! ان له مخيلة كاملة محكمة ، فهو يعرف ، ويعرف بالدقة ، ويعرف على الدوام مايريده ، وهذا عذاب .

وعنده انهما باجتماعهما وامتزاجهما سيتمتعان بالمسرات التي تجعل للحياة قيمة ، وسيكون وجودهما عملا من أعمال الفن الخبيئة الجميلة ، وسيفكران معا ، ويفهمان معا ، ويشعران معا . وستكون دنياهما التي يعيشان فيها دنيا عجيبة بما فيها من مشاعر وما فيها من خواطر :

ـ سنجعل الحياة جنة وارفة الظلال .

فتظاهرت بتفسير هذا الحلم على وجه بريء ، فقالت .

ـ ما أشدّ افتتاني بعقلك حتى لقد عاد من أخص حاجاتي أن أراك وأن أسمعك ، وقدأوضحت لك هذا بكل جلاء . فكن واثقاً من صداقتي ، وكن مطمئناً .

ومدت اليه يدها ، فلم يأخذها ، واجابها مغتاظا :

ـ لا أريد صداقتك! لا أريدها! يجب أن تصيري لي بكليتك ، وإلاّ فلن أراك مرة أخرى . وأنت تعرفين ذلك حق المعرفة ، فلماذا تقدمين لي يدك مصحوبة بكلمات ساخرة ؟... سواء أقصدت أم لم تقصدي فقد نفثت فيّ اشتهاء موئساً وشوقاً لاعجاً ، وصرت لقلبي ألمه وعذابه والآن تسألينني أن أكون صديقك ؟ إنك القاسية المتظرفة الآن!... فإذا كان لايسعك أن تحبيني فدعيني أفارقك ، وسأذهب ، ولست أعرف إلى أين ،لأنساك وأكرهك ، فإني أشعر نحوك في صميم قلبي بالكره والكدر معاً . أواه إني أحبك! ولشدّ ما أحبك!

فصدقت قوله وخشيت هجره ، وروعتها سلفاً كآبة الحياة المظلمة من دونه ، فقالت :

ـ لقد وجدتك في حياتي ، ولا أريدأن أفقدك ، كلا! لا أريد!

فحاول في استحياء وتأثر أن يغمغم شيئاً ، لكن الكلمات طعنته في حلقه ، وكان الشفق ينحدر على الجبال البعيدة ، وأشعّة الشمس الغاربة الأخيرة تتضاءل وتتلاشى في الشرق على رابية «سان ميناسو» .

فعادت تقول :

ـ لو عرفت حياتي ، لوأنك رأيت إلي أي حدّ كانت فارغة من قبلك ، لفهمت منزلتك مني ، ومكانتك عندي ، ولما فكرت في أن تفارقني...

لكن نغمات صوتها الهادئة ، وحركة خطواتها المتوازنة ، على حصباء الطريق ، هاجت حنقه وأثارت غيظه ، فصاح بها أنه في كرب وضيق ، وان اشتهاءها يروي ضلوعه وجوانحه ، وهذا هو الفكر الثابت الواحد الذي يملكه ويعذبه . وأنه في كل آن . وفي كل مكان ، في ظلمة الليل ، وفي وضح النهار ، يراها فيناديها ، ويمد ذراعيه اليها ، وقد عرف الآن الداء الإلهي...

ـ انني استنشق جمال فكرك ووحي ذهنك وسمّو روحك وعزّة نفسك ، استنشاقي عطور جسمك . فإذا تكلمت خيل إلي أنني أكسبهما أرفهما

بفمي!... فما روحك عندي إلا شذا جمالك . وكانت ميول القدماء كامنة في نفسي ، فنبهتها وأيقظتها من سباتها ، وإني لأشعر بأني أحبك بسذاجة وحشية...

فنظرت اليه في رقة ولم تجب . وفي تلك اللحظة رأيا أنواراً وسمعا أناشيد محزنة تشق كبد الظلام دانية منهما ، ثم ظهر لهما رهبان في مسوح سوداء ، كأنهم أشباح تدفعهم الرياح ، حاملين الصليب أمامهم ، واولئك كانوا رهبان «رحموت اليسوع» مقنعي الوجوه بالخُمرُ ، ممسكين بالمشاعل ، مرتلين المزامير ، حاملين جثة الى المقبرة ، على ما جرت بها العادة في ايطاليا من ان يكون موكب الجنازة ليلا مع احتثاث الخطا . وظهر الصليب والتابوت والرايات على الميناء المقفرة . فتنَّحى «دي شارتر» و«تريز» الى جانب الحائط ليمكنّا من المرور ذلك الاعصار الجنائزي المؤلف من جمهور الرهبان المقنَّعين والغلمان المرتلين ، وفي وسطهم يجري معهم ذلك الميت الذي يزعج الناس فلا يرضى عنه أحد في هذه الارض عاشقة المسَّرات والملذَّات . ومرّ مجرى ذلك السيل الأسود ، والنساء المُغْولات يهرولن من خلف التابوت المحمول على أكتاف أولئك الأشباح المنتعلين نعالاً من حديد...

فتنهدت «تريز» ، وقالت :

ـ ترى ... فيم تعذيب أنفسنا في هذا الوجود ؟

فكأنه لم يسمعها ، وعاد يقول ، في هدوء صوت :

ـ لم أكن شقياً قبل معرفتك ، فقد أحببت الحياة وربطتني بها رغبات المعرفة والاستقصاء ، كما وصلتني بها الأحلام والأوهام . ولذَّ لي منها الأشكال وروحها ، تلك الظواهر التي تستهوي النفس وتطيّب الخاطر . وكانت مسرتي أن أرى وأن أحلم ، وتمتعت بكل شيء ولم أتعلّق بشيء . وحملتني أجنحةُ أهوائي دون أن يعتريها وهن . وطابت لي الأشياء كافة ، فلم أرغب في شيء بل طبت عن كل شيءَ نفساً . فإنما منشأ الألم الرغبة .

واليوم أدركت ذلك . وليست رغبتي عن ميل سوداوي ، فقد كنت سعيداً قبل أن أعرف رغبتي . أجل ، إني حصلت على قليل ، لكنه كل ما كان ضرورياً ليجعلني قانعاً بعيشي ، أما الآن فقد فقدته . فضروب الهناء والمسرات التي كنت أجدها في صور الحياة وفي تخيّلات الفن ، والفرح العميق الذي كنت أشعر به إذ أخلق بيدي شكلاً يعبّر بالمادة الملموسة عن وحي الخاطر : كل هذه قد سلبتني منها جميعاً دون أن تدعي لي أي محل للأسف عليها . وأراني لم أرغب في حريتي ، أو في العودة الى هدوء أيام خلت!... وانه ليلوح لي كأنني لم أعش قط حتى لقيتك . والآن إذ أستطيع أن أعيش وأعرف معنى الحياة حقا ، لا أجدني قادراً على العيش قريباً منك أو بعيداً عنك ، فأنا أشقى حظاً وأعثر جَدّاً من اولئك السائلين الذين رأيناهم على قارعة طريق «ايما» ، فلدى هؤلاء الهواء الذي يستنشقونه ، أما انا فليس لي ما أستنشقه ، لأنك أنت نسيم حياتي ، وأنت لست لي . ومع ذلك فأنا مغتبط ، بأني قد عرفتك ، فهذا هو كل ما يعتدُّ به في وجودي ، ومنذ هنيهة حسبت أني اكرهك ، وكنت مخطئا فإني أعبدك ، وإني اباركك لما سببت لي من ألم ، فإني أحب كل ما يأتيني منك على الاطلاق .

وكانا يقتربان من الاشجار السوداء القائمة على مدخل جسر «سان نيكولا» وهناك على ضفة النهر الاخرى ، بدت لهما الاراضي القاتمة اللانهاية لها حزينة حزنا ضاعفته الظلمات... فلما رأته عاد هادئا وادعاً ظنت أن عاطفة غرامه في خياله ، ولهذا انطوات طي أقواله ، وحسبت أهواءه لم تكن الاّ خيالاً وحلماً ، وما كانت تتوقع مثل هذا التقهقر السريع ، فكاد يبلغ اليأس منها ، لنجاتها من الخطر الذي خافته ذلك الخوف الشديد!

فمدت اليه يدها ، بشجاعة أكثر من سابقتها ، وقالت :

ـ هلمَّ ولنمهر عهد الصداقة بيننا! وأرى الوقت متأخراً فهيا نعد . سر بنا الى عربتي التي تركتها في ساحة «السنيوريا» ، وسأكون دوماً كما كنت من قبل صديقتك الودود ، فانك لم تكدرني ولم تثر استيائي .

لكنه أخذها نحو الريف ، على ضفة النهر التي كانت تزداد اقفاراً :

ـ كلا فلن أدعك تذهبين حتى أقول لك ما أريد . على أنني لا أستطيع وصف ما يقوم بنفسي ، لأن الكلمات تعوزني فلا أجدها . اني أحبك! وأريدك! وأتوق الى معرفة أنك لي! واقسم لك أنني لن أمضي ليلة أخرى في هول الشك ورعبه!

وأخذها بين ذراعيه ، وضمها إليه ، وألصق وجهه بوجهها ، وحدّق تحديقاً في عينيها ، من وراء حجابها الرقيق :

ـ يجب أن تحبيني! أريد ذلك! وقد أردته أنت أيضاً . فقولي إنك لي! قولي ذلك!

فتخلصت بلطف من حضنه ، وأجابت بصوت خافت متردد :

ـ لا أستطيع! لا أستطيع! وأنت ترى أنني معك صريحة في الغاية ، وقلت لك منذ قليل إنك لم تكدرني ، على أنني لا أستطيع أن أكون عند إرادتك .

وتذكرت العاشق الغائب الذي ينتظرها ، فكررت قولها :

ـ لا أستطيع!

فمال عليها ، وسأل بتهلف وقلق نظرتها الزائغة المنكسرة :

ـ لماذا ؟ إنك تحبينني ، فلماذا تسيئين الي وتعذبينني برفضك أن تكوني لي ؟

وذهب يضمها الى صدره ، وحاول أن يضع فمه وروحه على شفتيها المحّجبتين يقبلهما...

وفي هذه المرة ، انسحبت منه بسرعة وعزمة ، وقالت :

ـ لا أستطيع! فلا تسألني في ذلك ، فلا أستطيع أن أكون لك . فارتعشت شفتاه ، وارتجف جسمه ، فصاح :

ـ إن لك محبّاً تحبينه ، فلم تهزئين وتلعبين بي ؟

ـ اقسم أني لم أفكر أبدا في السخر منك أو العبث بك ، واذا كنت سأحب في هذه الدنيا إنساناً فلن يكون سواك .

لكنه لم يكن يسمعها ، وصرخ فيها :

ـ دعيني!...دعيني!...

وفرَّ نحو المزراع المظلمة ، وكان نهر «الأرنو» قد غمر شاطئه فأنشأ من الأرض المعشبة مستنقعات سكب عليها القمر ، الذي كان يحجبه السحاب ، أضواءه المرتعشة...

فسار في طريق هذه المستنقعات على التربة الميثاء ، سريع الخطا ، مغمض العينين ، مهتاج الفؤاد...

فجزعت ، وصرخت ، وأهابت به تناديه فلم يلتفت اليها أو يرد عليها . ومضى لِطِّيته بثبات مخيف لا يلوي على شيء... فأُفرِعَتْ من خلفه تجري تَرْضُّ قدميها الأحجار ، وتُثقِلُ ثوبها المياه ، حتى وصلت اليه ، وشدته نحوها قائلة :

ـ ماذا كنت ذاهباً لتفعل ؟

فلما نظر الى عينيها ، طالع فيهما الخوف الذي تملكها فقال :

ـ لا تخافي ولا تجزعي ، فقد ذهبت بغير وعي ، وثقي أنني لم أكن أريد الموت . أوه! ألا بالله ليطمئن قلبك وليسكن روعك! نعم إني فاقد الرجاء لكنني ساكن الجأش ، وقد هربت منك فسامحيني ، بيد أنني غير قادر على احتمال رؤيتك . لا! إنني غير قادر ؛ فأتوسل إليك أن تدعيني وشأني . وداعاً!

فأجابت مضطربة خائرة :

ـ تعال ، وسنرى ما يمكن عمله . .

لكنه مالبث صامتاً مغموماً ، فكررت قولها :

ـ هيا بنا ، هلمَّ!

وأخذت بذراعه ، فأنعشته لمسة يدها الرقيقة ، فسألها :

ـ هل لك... ؟

ـ لا أريد أن أفقدك .

ـ أتعدينني... ؟

ـ لا مناص...

وبسمت قليلاً ، برغم قلقها وانفعالها ، لفكرة أنه نجح هذا النجاح في نيل مُنيته بفضل جنونه...

فسألها :

ـ غداً... ؟

فأجابت بحدة ، كمن تدفع بالفطرة عن نفسها :

ـ لا! ليس غداً!

ـ أراك لا تحبينني ، وقد ندمت على وعدك . .

ـ كلا . لم أندم . ولكن...

فمازال يتضّرع لها ويتضرَّع ، حتى نظرت إليه ملياً ، وزوت وجهها ، وترددت ،ثم قالت بصوت أعزّ ما يكون خفوتاً :

ـ السبت!

١٧

جلست «مس بل» في بهو الاستقبال بعد الغداء ترسم على «الجنفيص» أشكالاً لتطرزها «مدام مارميه» على وسادة .وكان الأمير «البرتنلي» يتخير ألوان الصوف بذوق أنثوي . وكانت السهرة قد طالت عندما ظهر «شولت» للحاضرين ، عائداً من المطعم حيث كان يلعب الورق مع الطاهي كعادته ، وظهر جذلان مَرِحاً ، بادية حصافته وفصاحته ، كأنه ممدود بروح من إله!

فجلس على (الكنبة) بجانب «الكونتس مارتن» ، ونظر إليها حناناً ، وعيناه الخضروان تشعّان ببريق الشهوة الفائرة...

وغمرها ، وهو يحدثها ، بضروب الثناء الشعرية المونقة ، فكأنه كان ينظم في مديحها أنشودة غرام... ووصف الجمال الذي به اجتذبته ، والحسن الذي به فتنته ، في مقاطيع مقتضبة قصيرة متألمة غريبة!

فقالت في نفسها : «حتى هو!» .

وسرت عن نفسها بمداعبته ، فسألته ألم يستكشف في أحياء فلورنسا البنيسة إحدى أولئك المخلوقات اللواتي تلذّ له صحبتهن وتحلو له مودتهن . ذلك أن ميوله من هذه الوجهة ، في تفضيله هؤلاء النسوة ، معروفة مشهورة . وما كان إنكاره لينفعه أو يشفع له ، وليس من يجهل في أي باب من الأبواب وجد زنّار القديس «فرنسوا» ؛ وكذلك طالما رآه صحبه في «بوليفار سان

ميشل» مع نساء الشوارع ، وقد أعرب في أحسن أشعاره عن تعلقه بهذه الخلائق الشقية . وأضافت :

- أي مسيو «شولت» ! إنني حكمت على هوى ما سمعت ، أن صواحبك المختارات آثمات خاطئات...

فأجاب برزانة ووقار :

- سيدتي! إنك تستطيعين أن تجمعي بذور الثلب والافتراء التي بذرها مسيو «بول فانس» وتلقيها بالحَفَنات في وجهي ، فلن أدفع عن نفسي ، فليس لزاماً أن تتحققي نقاء عرضي ، لكن ناشدتك الله ألاّ تتسرعي بالحكم على من سميتهن خاطئات ، وهن جديرات أن تعديهن مقدسات لأنهن تعسات . .

إي وربي! إن النفاية ، الفتاة المحتقرة المنبوذة ، هي الصلصال اللّين بين أصابع الخزّاف الجبّار ، وهي كفّارة الأثم ، وهي القربان المضحّى به على مذبح الخطيئة...

إي وربي! إن العاهرات أقرب إلى الله من الطاهرات ، فقد فقدن الغرور والخيلاء ، وتجردن من الصلف والكبرياء ، ولسن مكرمات عند تلك النافلة من الرجال فخر القوّادات...

وتجدين من طبعهن الخضوع ، وهو حجر الزاوية في صرح الفضائل السماوية . وستكفيهن ندامة يسيرة وتوبة قصيرة ليكن أول الداخلين الى دار السلام . . فقد ارتكبن خطاياهن بلا مكر ولاخباثة ولا فرح ولا لذاذة ، فهي لذلك تحمل في ذاتها الكفّارة والغفران . فخطاياهن التي هي أحزان وعذابات لها أجر الحزن كما ان لها ثواب العذاب... أولئك النسوة اللواتي حرمن أنفسهن اللذات والمسرّات ، لأنهن للشهوات البهيمية مستعبدات مسخرّات ، أصبح مَثَلُهنُ مَثَل الرجال الذين يخصون أنفسهم ليدخلوا ملكوت الله...

حقاً إنهن مثلنا من الخاطئين . لكن الخزي الذي يصيبهن ينزل كالبلسم على خطيئتهن ، فهن يكفِّرن بعارهن وفضيحتهم عن إثمهن وجزيرتهن ، والإثم

يطهّر كالنار . لهذا فأول دعاء يوجهنه الى الله يستجاب ، وقد أعد لهن سبحانه عرشاً عن يمينه ؛ وفي سمواته العلية ستكون ذوات التيجان سعيدات بجلوسهن تحت أقدام نسوة الأرصفة وبنات الشوارع . فلا تحسبي البيت السماوي مشيداً طبقاً للتصميم البشري ، كلا يا سيدتي ، فهو يخالفه من كل وجه ، ومع ذلك فقد أوافق على أن هناك أكثر من سبيل للخلاص ، فيمكن اتباع سبيل الحب ، مثلا...

ثم قال :

ـ حب الرجال خسيس ، وليس سوى جرف هار أو طريق أشجان ، لكنه يؤدي الى الله...

فنهض الأمير ، وقبل يد «مس بل» ، قائلاً :

ـ الى يوم السبت!

فكررت «مس بل» قوله :

ـ نعم ، الى بعد غد ، الى يوم السبت .

فانتفضت «تريز» . «السبت»!... انهما يذكران «السبت» هادئين كأنه ككل الأيام ، وكأنه قريب آتٍ لا ريب فيه!

ولم ترد ، حتى لحظتها تلك ، أن تعتقد أن يوم السبت لن ينشب أن يجيء عاجلا وبطبيعة الحال .

●

وكان قد مضى نصف الساعة على انصراف الجماعة و «تريز» مستلقية في فراشها ذاهلة متعبة تفكر... واذا بها تسمع نقراً على باب حجرة نومها ، ثم فتح وظهر رأس «فيفان» الصغير ، قالت :

ـ ألست أزعجك يا عزيزة ؟ أنائمة أنت ؟

كلا! فليست «عزيزة» نائمة ، بل مؤرّقة ساهرة .

فنهضت على مرفقها ، وجلست «فيفان» على السرير فكانت من خفة الوزن بحيث لم تعلّم عليه ، وقالت :

ـ أعرف ياعزيزة انك عاقلة جداً ، واني لواثقة بذكاء نفسك ودقة حسّك وثوقي بصواب رأيك وصحة حكمك ، لذلك أتيت استشيرك في أمري .

فبغتت «تريز» ، وأحست شيئا من القلق يخامرها ، فأنكرت بكل قواها تهمة العقل التي ألصقتها بها صاحبتها ، لكن «فيفان» لم ترعها سمعاً وعادت تقول :

ـ لقد قرأت كثيراً «فرانسوا رابليه» يا عزيزة ، وعنه وعن «فيلون» أخذت الفرنسية ، فهما أستاذان ضليعان من أساطين اللغة القدماء . لكن ألا تعرفين «بانتاجرول» يا عزيزة ؟ لا حرج عليك فانا أرويها لك ، ففي هذه القصة يتساءل «بانورج» أيتزوج أم يظل أعزب ، وهو في هذا أبله مستوجب السخر ، لكن لا ضير يا عزيزة ، فانا بلهاء مثله ، لأنني أوجه اليك هذا السؤال بعينه .

فأجابت «تريز» بتبرّم لم تُخْفه :

ـ أما عن ذلك يا صديقتي فلا تسأليني ، فقد صارحتك برأيي فيه من قبل .

ـ لكنك يا عزيزة لم تقولي الاّ أن الرجال يخطئون بزواجهم ، فلا أستطيع أن آخذ هذه النصيحة لنفسي!

فنظرت «الكونتس مارتن» الى رأس «مس بل» الصغير كرأس الصبي ، وقالت وهي تقبلها :

ـ ليس في الدينا رجل من الكفاية في الظرف واللطف بحيث يستأهلك!

ثم أتمت قولها برزانة وحنان :

ـ انك لست طفلة ، فاذا كنت محبة فافعلي مابدا لك صواباً ، ولا تعرقلي مسير الحب بالماديّات والترتيبات التي ليس لها في العواطف شأن ولا دخل ، وهذه نصيحة صديقة .

فلبثت «مس بل» لحظة مترددة في الفهم ، مبهوتة ، ثم احمر وجهها ، ونهضت ، وقد صُدِمَتْ .

١٨

في الساعة الرابعة من يوم السبت ذهبت «تريز» ، وفاق وعدها الى باب مقبرة الانجليز ، فلقيت «دي شارتر» عند سياجها ، وكان جاداً مضطرباً ، ولم يتكلم الاّ قليلا ، ففرحت بأنه لم يبد لها حبوره...

وسار بها خلف المقبرة الى طريق ضيق تجهله ، وقرأت على لوحه : «شارع الفيبيري» .

وبعدما سارا نحو خمسين خطوة ، وقف أمام دهليز مظلم ، وقال :

ـ هنا!

فنظرت اليه بكآبة لاحدّ لها ، وقالت :

ـ أتريد أن أدخل ؟

ولما رأت إصراره ، تبعته صامتة في ظلام الدهليز الرطب ، فاجتاز فناءً مُعِشْباً في آخره بيت صغير ذو أعمدة ونوافذ ثلاث ، منقوشة واجهته العليا بصور المعز وبنات الغاب ، فأدار المفتاح في القفل ، فاستعصى وكان له صرير ، فغمغم قائلا :

ـ صِدىء!

فأجابت غير واعية :

ـ كل المفاتيح في هذه البلاد صَدِئة!

وصعدا سلماً مخيما عليها السكون ، ففتح باب حجرة دخلت «تريز»

اليها ، فذهبت توآ ، دن أن تلقي على محتوياتها نظرة ، الى النافذة المطلة على المقبرة . وكانت تعلو الجدار رؤوس أشجار الصنوبر التي لا تعد خاصة بالمدافن في تلك البلاد حيث يمتزج الحداد بالفرح من غير أن يعكر صفوه ، وحيث يمتد التلذذ بالحياة حتى الى العشب النابت فوق القبور...

فأمسك بيدها وسار بها الى مقعد كبير ، فظلّت واقفة تتأمل الحجرة التي نسّقها على وجه لا تشعر معه بأنها غريبة عن بيتها ، أو أنها امرأة مخاطرة مغامرة . وكان قد ثبت بالحائط بعض عروض من قماش هندي قديم ، عليه رسوم هزلية تمثل مسرات الزمن الخالي وهناك مقعد مريح وكراسي بيضاء ، وعلى منضدة بضعة كؤوس ملونة وأقداح فينيسية .

وكانت في جميع الأركان حواجز «برافانات» من الورق الملون ، عليها رسوم وجوه مستعارة وتصاوير مضحكة ، وحظائر أغنام ، تلك الأشكال التي تمثل ما كانت عليه مدائن فلورنسا وبولونيه والبندقية ، في عهد كبار الأمراء وآخر الأدواق ، من نفسية مرحة جَذْلى .

ولحظت أنه قد عُني باخفاء السرير وراء أحد تلك «البرافانات» البديعة رسومها . وكان كل ماهناك أيضاً مرآة وسجادة ، ولم يجرؤ على أن يقتني أكثر من ذلك في مدينة يقتفي فيها الباعة الحذّاق أثره دون هوداة .

فأغلق النافذة ، وأوقد النار وجلست هي في المقعد الكبير معتدلة القامة ، فجثا أمامها ، وأخذ بيديها فقبلهما ، وشَخص اليها باعجاب يتنزعه الخوف والفخر ، ثم انحنى فلثم طرف حذائها...

فصاحت فيه :

ـ ماذا تفعل ؟

فأجابها :

ـ أقَبِّل القدمين اللتين جاءتا بك إليّ!...

ونهض ، وضمها إليه برقة ، والتمس شفتيها ، ثم طبع قبلة طويلة على ثغرها .

فلبثت ساكنة لا حراك بها ، ناكسة الرأس ، مغمضة العينين ، وانزلقت قبعتها وانسدل شعرها...

لقد وهبته نفسها واستسلمت بغير دفاع .

وبعد ساعتين ، إذ كانت الشمس الغاربة تبسط الظلّ على فناء البيت ، وكانت «تريز» قد رغبت في العودة الى المدينة وحدها ، ألفت نفسها أمام مسلتي «سانتا ماريا نوفلاّ» دون أن تعرف كيف أتت حتى ذلك المكان .

ورأت في زاوية الميدان الخصّاف الشيخ يشدّ خيطه على تلك الوتيرة الواحدة التي لا تتبدّل ، وكان يبتسم ، وقد حطّ عصفورةُ على كتفه .

فدخلت «تخشيبته» ، وجلست على كرسي واطيء بلا مسند ، ثم قالت بالفرنسية :

ـ كانتان ماتسيس! يا صاحبي! ما الذي فعلتهُ ؟ وما الذي سيؤول أمري إليه ؟

فنظر اليها بهدوء وطيبة بسّامة ، من غير أن يفهم أو يشغل باله ، فلم تكن تجد الدهشة إليه سبيلا .

فهزّت رأسها ، وعادت تقول :

ـ إن ما فعلته ، يا عم «كنتان» إنما فعلته لأنه كان يتألم ، وقد أحببته ، فلست نادمة على شيء .

فأجاب على عادته ، بكلمة «نعم» الايطالية الرنّانة :

ـ «سي»! «سي»!

ـ انني لم آت أمراً إداً يا «كنتان» ، أليس كذلك ؟ لكن الآن ماذا عسى أن تكون يا ربّاه!

ونهضت للرواح ، فأشار اليها أن تنظر هنيهة ، ثم قطف بعناية عوداً من الريحان ، قدمه اليها قائلاً :

ـ خذيه... لرائحته الزكيّة... يا «سنيورا»!

١٩

كان اليوم التالي .

وكانت «الكونتس مارتن» جالسة عند النافذة تقرأ ، فأتى «شولت» فحيّاها ، بعد أن وضع على المنضدة عصاه المعقدة وغليونه وكيس سجادته الأثري . وكان على وشك السفر الى بلده «اسيز» لابساً سترة من جلد المعز جعلت منظره شبيها بالرعاة القدماء المذكورين في قصة الميلاد . قالت :

ـ استودعك الله يا سيدتي فإني تارك «فييزول» وتاركك ، و«دي شارتر» ، و«الأمير البرتنلي» الحلو خالصاً... وتلك السعلاة الظريفة «مس بل» ، لأنني ذاهب الى زيارة جبل «اسيز» الذي يجب ، على حد قول الشاعر ، ألاّ يسمى «اسيز» بل الشرق ، لأن منه أشرقت المحبة . وسأجثو أمام ذلك الناووس المسجّى في حوضه الحجري جثمان القديس «فرنسوا» العاري ، متخذاً وسادة من حجارة ، إذ لم يرد أن يأخذ من هذه الدنيا ، من هذه الدنيا التي كشف لها عن حقيقة سر السعادة والقداسة ، حتى ولا الكفن!...

ـ في رعاية الله «يا مسيو شولت»! هات لي معك أيقونة من أيقونات القديسة «كلير» ، فلشدّ ما أحب «كلير القديسة»!

ـ أنت على حق يا سيدتي ، فلقد كانت سيدة ممتلئة قوة وفطنة ، ولما

جاء القديس فرنسوا وهو مريض يكاد يكف بصره ، ليمضي بضعة أيام في «سان دميان» بقرب صاحبته ، بَنَت له بيديها صومعة في الحديقة ، فطاب نفساً ، وكان اعياؤه المؤلم وانحطاط قواه والتهاب جفونه قد اجتمعت عليه فأقضت مضجعه . وفي الليل هاجمته الجرذان الضخمة وآذته ، فنظم تلك الترنيمة الجزلة في تمجيد «الشمس» الفخمة و«المياه» اختنا الطاهرة النقية النافعة . ولعمري ان ابداع أشعاري حتى التي منها في ديوان «البستان المغلق» ليعد دونها جمالا وروعة وصدق لهجة . وعدل أن يكون كذلك ، لأن روح القديس فرنسوا أسمى من روحي ، وعلى أني أفضل جميع معاصري الذين اخبرتهم وامتزت بمعرفتهم ، لا قيمة لي ولست أساوي شيئا فقال «الكونتس مارتن» إنك تجد في القسيس فرنسوا أولى القديسين بالمحبة ، فعقّب شولت :

ـ ان عمله قد هدم وهو حي يرزق ، ومع ذلك مات قرير العين ، لأن الفرح والتواضع كانا من صفاته . ولقد كان على التحقيق مغنّي الله الرقيق!... فليت شاعراً فقيراً آخر يأخذ على عاتقه تتمة عمله ويعلم الناس الدين الحق والفرح الحق ، وسأكون أنا يا سيدتي ذلك الشاعر ، لو أتيح لي التجُرد من العقل والحكمة واستطعت نبذ الكبر والعجرفة ، لأن كل جمال أدبي في هذه الدنيا إنما تتمخَّض عنه تلك الحكمة غير المفهومة التي تأتي من الله وهي شبيهة بالجنون...

ـ لن أثبط همتك يا مسيو شولت ، لكنني مشغولة البال على نصيب النساء المسكينات في عالمك الجديد ، لعلك تضمهن جميعاً الى أديرة! ؟

فأجاب شولت :

ـ أفرض أن النساء يعقن كثيرا مشروعي في سبيل الاصلاح المنشود ، لأن الشدة والجنّة اللتين بهما يتعشقهن الرجال هما شدة مريرة وجنّة شريرة . أما اللذة التي يمنحنها فلا تأتي بهدوء ولا تسبب راحة ولا تؤدي الى سرور . وقد اقترفت في حياتي لأجلهن جريمتين أو ثلاث جرائم فظيعة لا

يعلم بها إنسان . إني أشك يا سيدتي فيما اذا كنت سأدعوك يوماً الى العشاء في«سانت ماريا ديز آنج » الجديدة!...

ثم تناول غليونه وكيس سيجارته وعصاه ، وقال :

ـ لسوف تغتفر هفوات الحب وزلآته ، أو بالحري أن الانسان لا يسيء ولا يزل إذا أحب فحسبُ ، فأما الحب الشهواني فمزيج من البغض والأنانية والسخط ، بقدر ماهو مجتمع من الحب . وحدث في احد الأمساء انْ كنتِ جالسة على هذه (الكنَبَة) ، فبدوت لي جميلة ، فاكتنفتني غيوم من خواطر هائجة ، وكنت عائدا من « البرجو » حيث سمعت طاهي « مس بل »يرتجل في وصف الربيع مائتي بيت من الشعر الطلي ، فغُمر روحي بفيض من الفرح السماوي الذي انمحى عند مرآك ، فلا بد أن تكون (لعنة حواء) تتضمن حقيقة عميقة ، لأنني شعرت في حضرتك بحزن وخبث ، وكانت على شفتي كلمات رقيقة ، فلم تتحركا بغير الكذب والبهتان ، ودهمني من رؤيتك ما شدّ وثائق صدري وأنفد صبري ، فشعرت بأني خصمك وغريمك ، فأبغضتك ، ولما رأيتك تبسمين أردت قتلك!

ـ أحقا ؟!

ـ أوه! إنه يا سيدتي إحساس طبيعي للغاية . ولا بد انك شعرت به غير مرة ، لكن الرجل العادي يشعر به دون أن يدرك كنهه ، على حين تصفه مخيلتي النيرة وصفاً جلياً . فمن عادتي التمعّن في ذاتي ، فأجدها أحيانا مزقّوة فرحا . وغالباً مخيفة سمجة ، ولو كشفت لك عنها في ذيّاك المساء لصرخت جزعاً وهلعاً...

فابتسمت تريز وقالت :

ـ مع السلامة يا مسيو شولت!... لا تنس أيقونة القديسة كليرا فوضع كيس سيجارته على الأرض ، ومدّ ذراعه ، ورفع سبابته كمن يلقي درساً ، وقال :

ـ ليس ثمة ما يخيفك مني ، لكن ذاك الذي ستحبينه ويحبك هو الذي سيكون عدوك . فيا سيدتي أستودعك الله!

ـ وأخذ متاعه ، وخرج ، فرأت قامته الريفية الطويلة تختفي وراء شجر البستان .

●

وبعد الظهر ذهبت الى « سان ماركو » حيث كان « دي شارتر » في انتظارها ، مدفوعة اليه بالحنين والخوف من العودة الى لقائه على عجل كذلك . وأخمد كربها وسكّن ألمها شعورٌ جديد مجهول بلذة عمقية وعذوبة فائقة . ولم تعد اليها تلك الغشية التي ألمّت بها أول مرة ، تلك الرؤيا الفاجئة ، رؤيا ما لا يمكن إصلاحه أو تلافيه ، عندما أسلمت نفسها شغفاً وهياماً مذعنة للحب إذعاناً... لكنها الآن أصبحت رهن مؤثرات أبطأ عملاً و أشد فعلاً و أكثر غموضاً والتباساً... ففي هذه المرة تنقّبت ذكرى الملاطفة ، وقوة العاطفة ، بنقاب تخيلات أخّاذ بالألباب . فكانت منهوكة خائرة ، قلقة حائرة . لكنها لم تكن خجلة مستنكفة ، ولا نادمة متأسفة . ولم تكن في كل ما فعلت مندفعةبمحض إرادتها بقدر ما كانت مطيعة قوة أعلى من قوتها . وبرّرت عملها بخلوه من الغاية . فلم تكن متكلة على شيء أو متوقعة شيئاً . ولاشك في أنها أساءت باستسلامها في حين كانت غير حرة القياد . لكنها كذلك لم تكن تطلبت شيئاً . ولعلها لم تكن تجد عنده ، عند « دي شارتر » ، إلاّ ميْلاً طارئاً وقتياً وإن كان خالصاً قوياً . لم تعرفه . لم تكن عرفت تلك التخيلات البديعة المحلقة ، التي هي في الخير كما في الشر أعلى وأسمى من مستوى الاعتدال العادي . ولو حدث أنه هجرها فجأة واختفى ، لما عتبت عليه أو وصمته بل إنها كانت تحفظ له في نفسها ذكرى ما يُعَدُّ أندر وأثمن شيء في الوجود . فقد يكون صاحبها غير أهل لعلاقة وثيقة ، علاقة حب مقيم ثابت ، وحسب أنه أحبها ، وقد أحبها ساعة من دهره ، ثم انتهى . فانها لم تجرؤ على أن تأمل أكثر من ذلك وهي واقعة في ورطة الموقف الكاذب الزائف الذي انْتُهكت في حرمة كبريائها وسلامة نيتها كما تكدّر به صفو فكرها ورزانتها .

وبينما كانت المركبة سائرة بها الى «سان ماركو» تَعللت بأنه لن يشير في حديثه معها الى ما وقع بالأمس ، كما أن ذكرى تلك الغرفة المطلة على أشجار الصنوبر الزمردية العالية لن تكون بالنسبة لكليهما إلاّ حلم ، حلم في الكرى أو خلسة المختلس!...

●

مدّ إليها يده وهي تنزل من العربة ، فرأت في نظرته ، قبلما يتكلم ، أنه يهواها ، وأنه مازال يريدها ، وكذلك أحسَّت في الوقت نفسه أنها أيضاً تريده!

قال :

ـ أنت! أنت! أحقاً أنك أنت! لقد كنت هنا منذ الظهر ، منتظراً ، عالماً بأنك لمّا تأت بعد ، ولكنني كنت شاعراً أنني لا أستطيع العيش بعيداً عن المكان الذي أتوقع فيه رؤيتك . ها أنت ذي! ناشدتك الله أن تتكلمي لكي اراك وكي اسمعك!

ـ أفلا تزال تحبني ؟

ـ انه الآن إذ أحبك! فقد حسبت أنني أحببتك إذْ لم تكوني إلا شبحاً متبوعاً باشتهائي وخيالاً في أثره أهوائي... والآن أراك الجسم الذي فيه روحي . أحقاً وقولي! أحقاً أنك لي وخاصتي ؟ وماذا فعلت لأتملك أبهى نساء العالمين ؟ ثم يحسب غيري من الرجال الذين يغطون سطح الغبراء أنفسهم أحياء ؟! إنني وحدي الذي يحيى قولي ماذا فعلت لأتملكك وأفوز بك ؟

ـ أوه! أنا التي فعلت! وإذا قد جئنا الى هذا فإني أصارحك القول بأن الذنب ذنبي . واعلم أن النساء لا يعترفن به دوماً لكنه ذنبهن على الدوام . لذلك مهما حدث فلن أعتب عليك ولن ألومك .

وخرجت إليهما من رواق الكنيسة فرقة زائطة مهرولة من الشحاذين والمرشدين ، وأحاطت بهما في لجاجة يصانعها شيء من اللطف المعروف

عن الطليان الرشقاء . وكانوا من الدهاء بحيث أدركوا أنهم إزاء حبيبين ، وقد عرفوا بالاختيار أننا لمحبين مسرفون . فألقى دي شارتر بضع قطع من الفضة ، فقفلوا جميعاً راجعين الى كسلهم الهنيء . وقابل الحبيبان حارساً ، فأسفت الكونتس مارتن على أنه ليس راهباً!

قال دي شارتر :

ـ أتذكرين المساء الشتوي ، إذ التقيت وإياك على الجسر الصغير القائم فوق أخدود تجاه متحف « جويميه » ، فصحبتك حتى ذلك الشارع الصغير المنمق الجانبين بالرياض ، المؤدي الي « كي دوبيلي » ثم لما وقفنا هنيهة قبلما نفترق عند حافة السياج الممتد على طول شجر البقس ، فنظرت الى الشجر الذي أذبل الشتاء عوده وأذوى غصنه . فوقفت بعدما ذهبت ونظرت اليه طويلاً... ؟

ـ وماذا استطعت أن تراه فيَّ معجباً لك في ذلك اليوم الذي كاد يكون حالكاً ؟

ـ رأيتك سائرة ، وبالحركات تتكلم الاشكال . وباحت لي كل خطوة من خطواتك بأسرار جمالك الفاتن المنسجم . إلا أن مخيلتي فيما يتصل بك لم تقف قط عند حد محدود من تعقل أو حذر . نعم إنني لم اجرؤ على مخاطبتك ، وملأني منظرك رهبة وأوجست خيفة امام التي كان يسعها أن تفعل لي كل شيء . ففي حضرتك عبدتك مرتعداً فَرَقاً ، وفي غيبتك شعرت بكل فجور الاشتهاء...

ـ ما خطر لي هذا على بال ، لكن أتذكر أول مرة التقينا فيها عندما قدمك اليَّ « بول فانس » ؟ وكنتَ جالسا تنظر الى الصور الصغيرة المعلقة ، فقلت لي : (هذه السيدة المرسومة بريشة « سيكادري » تشبه أم « اندريه شنييه »[1] فأجبتك قائلة : (ان هذه جدة زوجي ، فكيف كانت أم « أندريه شنييه ») ؟ فقلت : (لدينا صورتها : شرقية خسيسة!) .

---

(١) شاعر فرنسي مشهور

فاحتج بأنه لم يتكلم بمثل هذه القحة ، فقالت :

ـ بل فعلت! وذاكرتي أقوى من ذاكرتك!

●

ثم سارا في سكون الدير العميق ، وزارا الصومعة التي زانها «انجليكو» بأبدع الرسوم . وهناك أمام صورة العذراء التي تتلقى التاج الأبدي من الرب في صحو السماء الزرقاء ، أخذ «تريز» بين ذراعيه ، وضمها اليه ، وقبلها في ثغرها تقبيلاً كاد يكون بمشهد من سائحتين انكليزيتين كانتا تجتازان الممشى تطالعان دليل السفر .

فقالت له :

ـ أحسبنا سننسى زيارة صومعة القديس أنطونيوس

ـ إيهاً ياتريز! اني لا أحتمل ان يفلت منى أي جزء منك . انني أتألم لفكرة انك لست عائشة فيَّ ولي وحدي . إنني أريد أن أتملكك وأتملكك بكليتك حتى في ماضي أيامك!

ـ وي! الماضي!

ـ الماضي وحده هو الحقيقة البشرية ، الماضي وحده هو الكائن!فرفعت إليه عينيها ، الشبيهتي الحدقتين بتلك السموات الفاتنة التي تمتزج على صفحتها الشمس الساطعة والغيث المنهمر... وقالت :

ـ خيراً وأستطيع أن أقول لك إنني لا أشعر قط بالحياة إلاّ وأنا معك...

●

ولما عادت الى «فييزول» وجدت خطاباً قصيراً من «لومنيل» كله تهديد ووعيد . تقول فيه انه لم يقدر أن يفهم معنى لغيابها المطَّول ، أو لسكوتها . فاذا لم تحدد له حالا يوم عودتها أتى الى لقائها بفلورنسا .

فقرأت الخطاب بغير دهشة البتَّة . ولو أنها جزعت لوقوع ما كان

منظورا وحدوث ما كانت تخشاه وليس منه مناص .

على أنه لا يزال في وسعها أن تهدئه وتطمئنه ، ووما كان عليها الاّ أن تكتب اليه بأنها تحبه ، وأنها عائدة الى باريس على جناح السرعة ، وأنه يجب أن ينبذ هذه الفكرة الحمقاء ، فكرة لقائها بفلورنسا التي ليست الا قرية لا يلبثان أن يُعرفا فيها . لكن كان عليها أن تكتب له : «اني أحبك!» . كان عليها أن تطيب خاطره بعبارات التمليق والمودة ، وتخدر أعصابه وتثبط عزيمته بكلمات التعزيز والمحبة . فلم تجد من نفسها شجاعة . وتركته يحزر الحقيقة . واتهمت نفسها بنفسها بعبارات غامضة ، وكتبت اليه كلاماً مبهماً عن النفوس التي تحملها أمواج الحياة بعيداً ، وعن عجز الانسان عن المقاومة في محيط الدهر الحُوّل القُلّب... وسألته في حزن ولين أن يحفظ لها ذكراً طيباً في ركن صغير من فؤاده .

وحملت الرسالة بنفسها الى صندوق البريد بميدان فييزول ، حيث كان بضعة أولاد يلعبون على ضوء الشفق .

فأشرفت من قمة الرابية على الحوض البديع الذي تستقر في جوفه مدينة فلورنسا كالجوهرة . ونفضهاسلام المساء وهدوءه كما ينفض القطر العصفور . فألقت الخطاب في صندوق البريد ، وعندئذ ، فقط ، أدركت جليّاً حقيقة ما صنعت ، وما قد يؤدي اليه هذا الصنيع .

٢٠

كانت شمس الربيع الساطعة تسكب أشعتها الذهبية على ميدان «السنيورا» ، لما أخذ عندالظهر تجار الحبوب والمكرونة الذين جاؤوا الى السوق ينصرفون .

هناك ، تحت تمثال «لانزي» ، وامام مجمع التماثيل ، أقام باعة الحلوى المثلجة الجوّالين على مناضد مغطاة بنسيج قرمزي قصوراً صغيرة مكتوباً على قواعدها :

مشروبات مثلجة

Bibite Ghiacciate

وكأنما الفرح والهناء هبطا الأرض من السماء! وكانا ، تريز وجاك ، عائدين الى البيت بعد أن قضيا نزهة الصباح في حدائق «بوبولي» . وجعلت تريز تنظر الى تمثال«الفتاة المسبية» من صنع «يوحنا البولوني» ، وتنظر بذلك الاهتمام الفضولي الذي تفحص به المرأة امرأة سواها . لكن «دي شارتر» كان شاخصاً ببصره صوب «تريز» وحدها ، فقال :

ـ يا عجباً لنور النهار يقبّل بشغف بياض خديك اللؤلؤي فيزيدك جمالا على جمال...

ـ نعم ، أن ضوء الشموع يخشن سحنتي ، وقد لاحظت ذلك . ومن سوء حظي أنني لست من نساء المساء ، ففي الامساء تتاح غالباً الفرصة للنساء ليبدين زينتهن فيعجب بهن . وفي المساء تبدو «الاميرة سينافين» ذات وجه جميل ملوّن ، مذهّب ، فاذا طلعت الشمس حالت صفراء كالليمونة . ويجب أن نسلم بأن ذلك لا ينال منها ولا يزعجها ، فليست غندورة!

ـ وأنت غندورة أنت!

ـ أوه!... صحيح!... كنت فيما مضى غندورة لنفسي ، أما الآن فلك...

وعادت تنظر الى « الفتاة المسبية » التي تحاول بقوامها العادل وجسمها القوي الفرار من عناق الجندي الروماني . ثم قالت :

ـ أيعوز المرأة لكيما تكون جميلة مثل هذه الصلابة في الجسم وهذا الطول في الاعضاء ؟ انني لست كذلك ، أنا... فبادر «دي شارتر» يطيب خاطرها ، لكنها كانت مطمئنة . وأخذت بعد ذلك تنظر الى قصر بائع الحلوى المثلجة الجوّال ، ذي الحيطان النحاسية اللامعة فوق غطاء المنضدة القرمزي ، فأحست فجأة ميلا الى تذوق الحلوى ، هناك ، وهي واقفة الى جانب المنضدة مثلما رأت عاملات المدينة يفعلن منذ قليل . فقال لها .

ـ مهلاً هنيهة .

وجرى الى شارع عن يسار تمثال «لانزي» ، واختفى فيه ، وعاد بعد دقيقة وقدم اليها ملعقة صغيرة مذهّبة محا الزمن بعض طلائها ، ويدها منتهية على شكل زنبقة فلورنسا مصنوعة من الميناء الحمراء ، فتذكرت الملعقة ، وكانت حلية صغيرة لفتت نظرها بالامس في واجهة حانوت عاديّات بقرب «لانزي» ، فقال :

ـ هذه لك لتأكلي بها حلواك ، فليس عند البائع ملاعق ، وكان عليك أن تلعقي الحلوى بلسانك وكان ذلك يكون شائقاً بديعاً ، لولا أنك لست معتادة إياه .

كانا موفوري الحظ من السعادة ، يبدو هناؤهما في أقوال لا معنى لها . وقد ضحكا عندما طفق بائع الحلوى الفلورنسي يقص عليهما بتمثيله الهزلي الموروث أقاصيص قدماء الطليان ، على أنها لم تفهم كل أقواله ، فسألت جاك :

ـ ما الذي قاله ؟

ـ أتريدين أن تعرفي ؟

فأرادت . فقال لها :

ـ حسن! يقول ماأشدّ ما يكون سعيداً لو ان براغيث فراشه خُلقت على مثالك ، وكان لها جمالك!

ولما أكلت حلواها ، استعجلها للذهاب الى زيارة «أورسان ميكيل» مرة أخرى فهما قاب قوسين أو أدنى ، فذهبا ، ونظراالى تمثال «سان جورج» و«سان مارك» المتخذين من البرنز ، فرأى «دي شارتر» على حائط الدار المنزوع طلاؤه صندوق البريد ، فذكر بحزن شديد اليد الصغيرة المكسوّة بقفازها وهي تلقي الخطاب فيه ، وبدا له ذلك الفم النحاسي الذي ابتلع سر تريز بشعا مخيفا ، فلم يستطيع أن يحول عنه ناظريه ، وغاب سروره ، على حين أنها كانت تبدي إعجابها بتمثال «البشير» (L'evangeliste) فقالت :

ـ يقينا ، إنه يبدو صريحاً أمنيا ، ولو استطاع النطق لكان كل ما يقوله حقاً وصدقاً...

رد عليها«دي شارتر» بمرارة بقوله :

ـ نعم! فليس فمه فم امرأة!...

ففهمت ما جال بفكره ، وقالت بصوت رخِيم عذب :

ـ لمَ تقول لي ذلك يا صديقي وأنا صريحة ؟...

ماذا تسمى كونك صريحة ؟ وانت تعلمين ان المرأة مضطرة الى الكذب... فترددت ، ثم غامرت :

ـ حين لا تكذب المرأة كذباً ليست منه فائدة ، تكون صريحة!

٢١

تغلغلت تريز تحت الخمائل ، في ثياب رمادية قاتمة ، وكانت النجوم الفضية المتساقطة من أشجار الحناء الحمراء تغطي طرف المشرف المنحدر ، ونثرت الغار على سفوح الروابي أزاهيرها ذات الشذى الزكيّ واللون الناريّ . وكان الوادي الفلورنسي كله مفروشاً ببساط من الورد .

وجاءت «فيفان بل» في ثياب بيضاء الى الحديقة التي كانت تنطف عطراً ، وقالت :

ـ ها قد رأيت يا عزيزة ان فلورنسا هي في الواقع مدينة الزهر . ولم يكن عبثاً أن تتخذ «الزنبقة الحمراء» رمزاً وشعاراً لها . واليوم يا عزيزة يوم عيد .

ـ آه! اليوم عيد ؟

ـ أفلا تعرفين يا عزيزة أننا في أول مايو ؟ أوَلم تسيقظي هذا الصباح في أرض الاحلام ؟ أفلا تشعرين أنك فرحة جذلة أنت يامن تحبين الازهار ؟ إني أعلم أنك يا عزيزة تحبينها ، وتشعرين بالميل اليها ، وقد قلت لي مرة إنها تحس الفرح والحزن وتتألم مثلنا سواء بسواء .

ـ آه! أقلت أنها تتألم مثلنا ؟

ـ نعم قلت ذلك . أما اليوم عيدها فلنحتفل به كعادة أسلافنا على المذاهب التي قدسها أهل الفن القدماء .

وكانت تريز تسمع دون أن تعي ، وعركت في قفاز يدها خطابا كان قد أتاها ساعتئذ ، وعليه البريد الايطالي ، وليس به غير سطرين ، هما :

(نزلت الليلة في فندق «لاجراند بريطانيا» بلونجارنو تشياؤلي واني منتظرك صباح الغد . رقم ١٨)

قالت الشاعرة :

ـ أي عزيزة ألا تعلمين ان العادة قد جرت بالاحتفال في فلورنسا بفصل الربيع في الأول من كل عام ؟ ألم تدركي اذاً ماأراده الفنان «بوتشلي» بصورة عيد الزهور البديعة البهيجة الخيال التي أسماها «الربيع» ؟ وقديما في مثل هذا اليوم أن السرور يعم المدينة ، وتسير بنات فلورنسا مرتديات ثياب العيد ، متوجات بالشملة ، في موكب حتى «الكورسو» فيرقصن تحت أقواس الزهر عند شجر الغار ، على العشب السندسي النضر . وسنحذو اليوم حذوهن فنرقص في الحديقة مثلهن .

ـ آه! أنرقص في الحديقة ؟

ـ نعم يا عزيزة! وسأعلمك بعض رقصات تسكانية يرجع عهدها الى القرن الخامس عشر ، وقداستكشفها المستر موريسون شيخ كتبي لندرة في متن مخطوط . فعودي سريعاً يا حبيبتي لنضع من الزهر قبعات ونرقص...

ودفعت باب الحديقة ، وأسرعت في الممر الصغير الذي مهده هبوط مياه الامطار ، واختفت حصباؤه تحت براعم الورد ، ثم قفزت الى أول عربة صادفتها ، وكان الحوذي قد وشّع بالزهر قبعته ومقبض سوطه . قالت :

ـ فندق لاجراند بريطانيا . لونجارنو أتشياؤلي!... «لونجارنو أتشياؤلي»!...

إنها كانت تعرف أين هو رصيف النهر ذاك الذي ذهبت اليه في أحد الامساء ، ورأت بعين بصيرتها ألواح الذهب تمزّقها الشمس على غطاء النهر الخفاق... ثم دخول الليل ، وخرير المياه المبهم في ذلك السكون الشامل .

وذكرت الأقوال والنظرات التي هاجتها ، كما ذكرت قبلة العاشق الأولى التي كانت فاتحة غرام لا يمكن تلافيه .

إي والله! لقد ذكرت «لونجارنو أتشياؤلي» وشاطىء النهر بعد «بون فيو» .

... فندق «لاجراند بريطانيا»!

أنها تعرفه : نُزلاً واجهته حجرية على الميناء .

أما وقدوجب حضوره ، فان من سعد الطالع نزوله بهذا الفندق ، وإلا فقد كان يمكن ان يذهب الى فندق «دي لافيل» بميدان منّان حيث يقيم دي شارتر . وكذلك من حسن الحظ ان غرفتيهما ليستا متلاصقتين ، في ممشى واحد...

«لونجارنو أتشياؤلي»!...

وتلك الجثة التي شاهداها تمر مسرعة يحملها الرهبان المقنعون ، قد ثوت الآن واستراحت ، في جهة ما ، من حديقة مقبرة صغيرة مزهرة...

ـ رقم ١٨

وكانت حجرة نزل مجردة ، بها مصطلى ، على الطراز الايطالي وقد نظمت على المنضدة عدة كاملة من فرشاة لرسم ، والى جانبها دليل سكة الحديد . وما من كتاب أو جريدة .

وكان هناك...

فقرأت ما ارتسم على وجهه النحيل من سطور الألم المبرح وعوارض الحمى ، فانتابها من ذلك ضيق...

ولبث ينتظر كلمة أو اشارة ، لكنها ظلت لا تجرؤ على شيء ، كأنها غريبة عنه . فقدم اليها مقعداً أبعدته جانباً وبقيت واقفة ، فقال :

ـ تريز! ان وراء الاكمة ما وراءها... فتكلمي!

فأجابت بتردد موجع ، بعد لحظة سكوت :

ـ سبحان الله! ولم رحلت عن باريس لما كنت فيها ؟

فجعلته نغمة الحزن التي في صوتها يعتقد ، وأراد أن يعتقد ، أنها تعتب عليه عتب المحبة . فتورد وجهه ، وأجاب بحمية :

ـ يا ليتني كنت حزرت! وأنت تعرفين مبلغ عدم اكتراثي بتلك الجماعة المتصيدة! لكنك أنت... وخطابك المؤرخ ٢٧ (وكانت له موهبة حفظ تورايخ الأيام!) أنه أوقعني في قلق مروع ، فقد جدّ عندما كتبته أمر من الأمور ، فاخبريني بكل شيء . ـ حسبت ياصديقي أنك لم تعد تحبني .

ـ والآن وقد عرفت ما ينفي ذلك ؟

ـ الآن...

وكانت مرتخية الذراعين ، مشتبكة اليدين ، فقالت بهدوء مصطنع...

ـ رباه! لقد قامت علاقتنا على جهالة ، فيا ويح الانسان ما أجهله! إنك في ريعان شبابك ، أنضر مني عوداً ، ولديك بلا شك مشاريع لمستقبل حياتك .

فحدق في وجهها بغطرسة ، فأتمت كلامها ، وقد قلّ اطمئنانها :

ـ ان لدى أهلك ، من أمك وعماتك وعمك الجنرال ، مشروعات لك ، وهذا أمر طبيعي في الغاية ، ويمكن أن أكون عقبة في طريقها ، فالأولى أن أختفي من حياتك وأذهب عن طريقك ، وسيحمل كل منا لصاحبه طيب الذكرى .

ومدت اليه يدها ، في قفازها ، فشبك ذراعيه على صدره ، وقال :

ـ فأنت على ذلك لا تريدينني ؟ وتحسبين أنك بعدما جعلتني أسعد رجل في الدينا عرف معنى السعادة ، تستطيعين ان تضعيني جانباً ، وينتهي بذلك كل شيء! أحقاً تحسبين أنك قد انتهيت مني ؟! وماذا الذي أتيت تقولينه لي ؟ لابأس! وها أنذا أقول لك : كلا! إنك لست من نوع النساء الذي يفترق منه الانسان... أنت!

ـ نعم ، يجوز أنك أحببتني حباً أقوى مما جرت به العادة في مثل هذه الاحوال ، فكنت لك اكثر من سلوى وملهى . لكن ماذا يكون الرأي لو أني لم

أكن المرأة التي زعمتني ؟ لو أني كنت عابثة خدعتك ونكثت عهدك ؟ نعم! فماذا يكون لو أني لم أكن معك ما كان ينبغي ان اكون ؟...

وترددت ، ثم عادت تتكلم بلهجة جدية رزينة تناقضت وأقوالها :

ـ لنفرض أنني لما كنت لك استسلمت الى جاذبيات وتعلقت بأميال أُخر ؟... أحسب عواطفي لم تخلق للجد .

فقاطعها بقوله...

ـ تكذبين ؟

ـ أجل ، أني أكذب ، ولا أحسن الكذب ، أردت أن أتلف ماضينا ، فكنت مخطئة ، فهو الذي تعرفه... ولكن...

ـ لكن ؟...

ـ ذلك الذي قلته لك دوماً ، وهو أنني لست مستوثقة من ذات نفسي ، فان هناك كما يقولون نساء سيدات مشاعرهن وأمرهن بين أيديهن ، وقد أنذرتك أنني لست مثلهن ، فلست ممن يضمنَّ عواطفهن...

فلّوى عنقه يمنةً ويسرةً ، كحيوان هيج هائجه ، وما إن يزال يتحفّز للوثوب ، وقال :

ـ ما قصدك ؟ إني لا أفهم ، إني لا أفهم شيئا...فأفصحي ، أفصحي في ضميرك . فإن فيما بيننا شيئاً لا أعرفه ، لكنني مصّر على معرفته . ما هو ؟

ـ قلت لك يا صديقي انني لست بالمرأة الواثقة من نفسها . فما كان لك قط أن وتعتمد عليّ أو تركن اليّ .لا! ما كان لك ذلك ، إنني لم أعدك بشيء ، وعلى فرض أني كنت قد وعدتك ، فما قيمة الألفاظ ؟

ـ أراك لم تعودي تحبينني .أواه! . . أرى جلياً أنك زهدت في حبي . لكن سوأة لك فالغبن عليك! إني أحبك ، وماكان لك أن تهبيني نفسك ، فلا تؤملي استرداد هبتك ، اني مستهام بك واني لحفيظ عليك...

اذاً قد زعمت أن في إمكانك تسوية الأمر في سكون والتخلص مني بسهولة ؟ الآن اصغي الّي قليلا . لقد بذلِت مافي وسعك كيما أحبك وأهيم بك

ولا أستطيع العيش من دونك . ولقد عرفنا معاً مسرات الحب التي لا يتصورها عقل أو يحيط بها فكر ، فلم ترفضي نصيبك منها بل تمتعت به ونحن في عالم من اللب المخلوب والعقل المسلوب . ولم أنلك قسر إرادتك بل عن طيبة خاطرك . ومنذ ستة أسابيع لم تكوني تطلبين خيراً مما كنت فيه . وكنت لي كل شيء كما كنت لك كل شيء ، ومرت بنا لحظات امتزجت فيها روحانا واختلطت فيها نفسانا ، حتى لم نعد نعرف إذا كنت أنا أنت أو أنت أنا!!

ثم يبدو لك فتأتين تسألينني على غرة مني أن أنساك وأتجاهلك وأعدك غريبة عني لا تجمع بيننا إلا محض معرفة ؟! اللّه! اللّه! ماأجمل ثبات جنانك!... أنت يا هذه! يا أيتها الأخّاذة النبّاذة! خبريني! أكنتُ حالما ؟ قبلاتك!... أنفاسك التي كانت على عنقي!... صيحاتك!... ألم تكن تلك إذاً حقائق! ؟ تكلمي! رُدّي علي الجواب! أخترعت ذلك كله باطلاً وتوهمته ؟ ؟ ؟ أجل . ليس شك في أنك أحببتني ، وإني لاأزال أشعر بغرامك لاصقاً بكياني آخذاً بجَنَاني . فلا ضيْر! إنني لم أتغير ولم أتبدل خلقاً آخر . إنني الرجل الذي كنته . وليس لديك ماتؤاخذينني به ، فلم أخنك قط مع امرأة غيرك ، وليس الفضل في ذلك لي ، فما كنت لأقدر على الخيانة لأن الذي يعرفك لا يرى أجمل النساء بالقياس إليك إلا تافهة . ولم تخطر أصلاً على بالي فكرة خديعتك ، ولقد سلكت معك دائما مسلك الرجل الشريف . فليت شعري! كيف انصرفت عن حبي ؟ وماصدّك عني ؟ أجيبيني! بربك تكلمي! قولي أنك مازلت على محبتي! قولي ذلك مادام حقاً وصدقاً . تعالي اليَّ تعالي!...

ثم ألقى بنفسه عليها بشوق وحرارة ، وطوقها بذراعيه الشرهتين القويتين ، فدفعته عنها في برود ، وعيناها مملوءتان بالذعر .

ففهم ، وتوقف ، وقال :

ـ ان لك عاشقاً!

فأطرقت في بطء ، ثم رفعت رأسها في وقار وصمت .

فذهب يضربها في صدرها وكتفها ويلطمها على وجهها . وما لبث أن

تراجع خجلا ، وأطرق لا ينبس بكلمة . ووضع أصابعه بين شفيته يقرض أظافره . فلاحظ ان بيده خدشاً من دبوس في مشد وسطها أدماها . فألقى بنفسه على مقعد وأخرج منديله يضمد جرحه وظل كأنه غير مكترث ، وكأنه قد فقد الحواس .

أما هي فقد استندت الى الباب ، شاحبة اللون ، رافعة الرأس زائغة البصر تحل نقابها الممزّق ، وتعيد وضع قبعتها بالاعتناء الغريزيّ في بنات حواء .

وعندما سمع حفيف ثيابها الخفيف ، ذلك الحفيف الذي كان الى عهد قريب يلذّه سماعه ، أجفل وحدجها بنظرة مرتعداً ، وارتدّ هائجاً محتدًا ، يسألها :

ـ من يكون ؟ اريد أن أعرفه!

فلم تحرك ساكناً ، وظهرت على محياها الناصع علامة ملتهبة من أثر اللكمة التي أصابتها . وأجابت في رقة وحزم :

ـ لقد أخبرتك بكل ما يسعني أن اخبرك به ، فلا تكثر من سؤالي . لانه يكون عبثاً لايجدي نفعاً .

فنظر اليها نظرة قاسية ، لم تر منه مثلها من قبل ، وقال :

ـ لا حاجة لأن تخبريني باسمه ، فلن تصعب عليّ معرفته . فلبثت صامتة مغتمة ، قلقة على سواه... وملء نفسها كرب ورعب ، لا أسف معهما ولامرارة ولا أسى ، فقد كان فؤادها في غير ذلك المكان...

وبدا عليه كأنه يشعر شعوراً خفيا بما يخالجها . ولما رآها بالغة هذا المبلغ من الملاحة والصفاء ، لما رآها هكذا جميلة ، لكن لا كما عرفها ؛ لأن جمالها لم يعد له لأنه لسواه ، استخفتّه طيرة الغضب ، وشعر في وطيس غضبه بالرغبة في قتلها ، فصرخ فيها :

ـ اذهبي! اذهبي!

ثم غلبته على أمره عاطفة ذلك البغض ، الذي كان خارجا على طبعه ، فاعتمد رأسه بيديه ، وظل يبكي ويصعد الزفرات من كبد حرّى...

فأثر فيها هذا الحزن ، ومدّ لها في أمل أن تهدئه وتروّح عنه وتخفف من وطأة فراقها إياه ، فيكون أقل إيلاماً . وخيل إليها أنها قد تجد سبيلاً الى عزائه عن فقدها فجلست الى جانبه آمنة متوددة ، وقالت :

ـ لك عليّ يا صاحبي الملامة ، فاني جديرة بها ، وان كنت بالشفقة أجدر . فاحتقرني اذا شئت واذا كان في مكنة امرىء أن يحتقر مخلوقة شقية تُعَدُّ العوبة في يد الحياة ، ثم احكم علي بما تشاء ، لكن احتفظ لي في سَورة غضبك بشيء من الصداقة ، ودعني اكون ذكرى حلوة مرة كأيام الخريف تلك التي تكون فيها الشمس ساطعة وريح الشمال عاصفة . هذا ما استحقه . فلا تكن صلباً مع الزائرة الخفيفة الطائشة التي عبرت سبيل حياتك ، وودعني كما لو ودعت امرأة راحلة الى حيث لا تعلم ولا تدري وهي حزينة... فليس أحرّ من يوم الفراق . وقد كنت الآن غاضباً مني ، ولست أعتب عليك في ذلك ، ولكن غضبك آلمني ، فاظهر لي من الشفقة شيئاً... فمن يدري ؟! ان المستقبل مجهول ابداً ، وهو أمامي مظلم غامض ، فقدرني على أن أقول لنفسي انني كنت معك طيبة القلب سليمة القصد صريحة القول ، وانك لم تنسني . وسوف يهيء لك الزمن أسباب الفهم والصفح . أما اليوم ، فحنانيك كن رحيما!

أما هو فلم يكن صاغيا لها ، الاّ ان نغمة صوتها العذبة الرخيمة وحدها سكّنت من حدته وكسرت من شِرَّته ، فقال منفزعاً :

ـ انك لا تحبينه! ولكني أنا الذي تحبين!... وعلى ذلك ؟...

فترددت ، ثم غامرت :

ـ وا لهف نفسي!... ليس باليسير على المرأة ان تقول من ذا الذي تحبه ومن ذا الذي لا تحبه ، أو على الاقل ليس هو عليَّ هيِّنا ، فماا أعرف حال الأُخريات . وأرى الحياة غير رحيمة فيها نُقذف ، ونُدفع فنتخبط...

فنظر اليها بهدوء تام ، وقد عنّت له فكرة واعتزم امراً كان غاية في البساطة... ذلك أنه سيعفو وينسى على شريطة أن تعود إليه تواً :

ـ تريز! انك لا تحبينه! أليس كذلك ؟ لقد كانت غلطة ، لحظة نسيان... شيء مروع أخرق فعلته ضعفاً ودهشاً وربما كان نكاية وكيداً . انك ما كنت إلا أسيرة فِتْنة وأخيذة محنة! فاقسمي انك لن تريه مرة أخرى .

وأمسك بذراعها قائلا :

ـ اقسمي!

فلزمت الصمت ، وصَرّت على أسنانها ، واكمدّ وجهها ، وهو يلوي ذراعها ، حتى صرخت :

ـ إنك توجعني!

فلم يكف عنها ، وجرّها على المنضدة ، حيث كانت الى جانب فرشاة الرسم دواة وورق رسائل مزدان بصورة زرقاء تمثل واجهة الفندق ذات النوافذ العديدة ، وقال :

ـ اكتبي ما أمليه ، لأبعث بالخطاب .

فلما قاومته ، قهرها على الجثو على ركبتيها ، فقالت في سكون وعزّة :

ـ لا أقدر! لا أريد!

ـ ولماذا ؟

ـ لأنني ... أتريد أن تعرف ؟... لأنني أحبه!...

فأفلت ذراعها ، ولو ان مسدسه كان في متناول يده ، فربما كان أرداها قتيلة . لكن سخطه ما عتم أن تبدّل حزناً ؛ فحار قانطاً آيسا ، فودّ لو يضع لذات حياته حداً...

ـ أتقولين حقاً ؟... أهذا ممكن ؟ أهذا صحيح ؟

ـ وهل أعرف أنا ذلك ؟ وهل أنا أستطيع أن أقول ؟ وهل يسعني أن أفهم ؟ وهل في قدرتي ان افكر ، أو أن اشعر ، أو ان أرى للنور أي شعاع ؟ هل في قدرتي ؟

ثم أضافت بشيء من الجهد :

ـ وهل أشعر في هذه اللحظة بغير حزني ويأسك ؟

فزعق قائلاً :

ـ أنت تحبينه! أنت تحبينه! فما عنده ؟ وما هو حتى تعشقيه ؟ وخبلته الدهشة وغمرته الحيرة ، على أن ما قالته قد صرم حبالهما وفرق بينهما ، فما عاد يجرؤ على أن يمسها في خشونة ، أو يمسك بها ، أو يضربها ، أو يعاملها كشاة له إن كانت عنيدة فهي له دون منازع .فكرر قوله :

ـ أنت تحبينه! تحبينه! فما قال لك ؟ وما فعل بك لتعشقيه ؟! انني أعرفك ، ولم أخبرك بما صدمني من أفكارك ، فأراهن على أن عشيقك ليس بالرجل ذي المكانة . أفتحسبين أنه يحبك ؟ أهذا زعمك ؟ ألا ساء فألك! فانت مخطئة ، فهو لا يحبك ، وهو بكل بساطة قد خُدع عنك ، وسينبذك عند أول فرصة نبذ النواة ، وسيصدّ عنك حين يجعلك مضغة في الأفواه ، فتتمرغين وتتدهورين بانتقالك كل يوم في شأن . وسيقولون فيك في العام القابل :

« إنهـــا لا ترد يد لامس » ، وهذا مـــا يســـوؤني لأجل أبيك ، وهو صديقي ، وسيبلغه سلوكك ، فلا أمل لك في أنّ تخدعيه... هو...

فصفت مستخذية ، ولكن متعزية ، إذ فكرت في عظم ما كان ينالها من الألم لو أنها وجدت في صاحبها هذا شهماً كريماً...

أما هو فقد ازدراها حقا ، ورفه عنه هذا الازدراء ، فاحتسى كأسه حتى الثمالة . وعاد يسألها :

ـ كيف وقع ذلك ، أخبريني ولا تكاتميني شيئاً .

فهزت كتفها بإشفاق ظهر حتى لم يعديجسر على الاسترسال في نغمته فعاد يقول بمرارة :

ـ أيقع في وهمك أنني أعينك على التستر وإخفاء الحال ؟ أو أنني أعود فأزور بيتك ؟ أو أتردد على زوجك ؟ أو أمسك الشمعدان ؟!

ـ أعتقدأنك ستفعل ما تقتضيه شهامة الرجال . ولست أسألك شيئا . وأحب أن أعتز بذكرك باعتبارك صديقاً كريماً . وقد كنت أحسب أنك

ستكون متسامحاً معي رؤوفاً بي ، وهذا عسير فاني أرى الُفرقة دائماً مَرَّة . على أن رأيك فيَّ فيما بعد سيكون خيراً منه اليوم . فاستودعك اللّه .

فنظر اليها ، وقد اغبَّر وجهه من الحزن أكثر مما اغبر من الحقد ، ولم ترقط عينيه كما رأتهما وقتئِذ جامدتين ذابلتين ، ولا صدغيه كما بصرت بهما غائرين ضامرين ، وكما يبدو عليه كأنه شاخ وهرم في ساعة ، قال :

ـ أوثر محاذرتك . فمحال عليَّ أن ألقاك بعد اليوم . فلست بحيث يمكنني بعد ما كان بيننا أن ألقاك بين الناس . لانك كما قلت لك ، امرأة غير الأخريات . ان فيك سمّاً بين وقد نفثته فيَّ ، واني لأشعر به في باطني وفي عروقي وفي كل موضع . فلماذا قُدّرت عليَّ معرفتك ؟

فنظرت اليه عاطفة عليه وقالت :

وداعا! هوِّن عليك ، انني لا أستحق مثل هذه الحسرات...

فلما رآها ويدها على مفتاح الباب ، وشعر أنه على وشك أن يفقدها ، وأنه لن يحظى بها بعد ، صرخ ووثب جزعا ، ولم يعد يذكر شيئاً ، وإنما كان كل ما أحسّه ذلك الدوار الذي ينشأ عن مصاب عظيم أو عن خسارة لاتعوض . وزيَّن له الخبلُ فهمَّ بها ، ويريد الحظوة مرة أخرى بالعشيقة الذاهبة التي لن تعود...

فشدَّها اليه ، وأراد منها ، بكل ما في طبيعته الحيوانية من رغبة وقوة فذهبت تقاومه بكل قوى إرادتها الحاضرة الطليقة اليقظة الحذرة ، وتملَّصت منه دون أن تستشعر أي خوف ، بعدما تشعَّث شعرها ، وتمزَّق ثوبها .

فأدرك أن كل محاولة لا نفع منها ، وذكر بقية الحقائق المنسية ، وأنها لم تعد له ، لأنها صارت لسواه . . فارتدَّت عليه أوجاعه ، فكال لها الشتائم جزافاً ، ورماها بكل سبة ، ثم دفع بها خارج الغرفة...

فتوانت في الممشى هنيهة منتظرة في كبرياء كلمة أو نظرة خليقة بأن تُلقي على غرامها الماضي .

لكنه صرخ فيها صرخة أخرى :

ـ إمشي!

ودفع الباب بشدة .

●

شارع الفيبيري!...

ها هي ذي قد عادت الى البيت الصغير القائم في آخر الفناء حيث ينبت العشب الأخضر الباهت . فتمثّلته في سلامه وسكونه ، وفيّاً لمن سكنه من العشاق منذ الأيام الخالية . وأحسّت أنها نجت من عالم موجع وحشي ، فكأنها حُملت خلال الأحقاب الى حيث لم يعرف نكد العيش وبأساء الحياة .

وكان دي شارتر في انتظارها ، عند أول السلم المفروشة درجاته بالورد .

فارتمت بين ذراعيه ، ولبثت في حضنه مستسلمة اليه ، غائبة عن الصواب . فحملها وهي ساكنة كأنها الغنيمة التي غنمها من تلك المرأة التي وقف مرة شاحباً مرتعشاً أمامها...

وذاق ، وهي مغمضة العنيين قليلا ، خضوع العاتية الشاعرة بأنها فريسته الجميلة!

أما تعبها وحزنها ومكاره يومها وذكر عنيف مقاومتها وحريتها المستردّة وحاجتها الى النسيان وبعض أثر من خوف مازال بها ، أما هذه كلها فقد أذكت حنانها وأثارت عطفها ، فطوّقت بذراعيها عنق حبيبها ، وهي مستلقية في الفراش على ظهرها .ولما ثابا الى رشدهما ، كانا كطفلين في جذلهما وفرحهما يضحكان ويقولان عبثاً ويلعبان ، وهما يمتصان الليمون والبرتقال والبطيخ الموضوع بقربهما في صحاف مصوّرة بالألوان .

وكانت قد نضت عنها ثيابها وتجرّدت إلا من قميص رقيق هفهاف بلون الورد ، هفت عنه إحدى حمالتي الكتفين ، فكشفت عن ثدي وحجبت ثدياً ،

كانت تتأجّج من وراء النسيج الوردي حلمته البارزة الحمراء...

فتورّد وجهها فخراً وفرحاً ببضاضة الجسم الذي تقدمه على هيكل الغرام . وأبانت شفتاها المفتوحتان قليلا عن لؤلؤ ثناياها . فسألته في دلّ وغنج اذا لم تكن قدخابت آماله فيها بعد كل أحلامه المضطرمة بها...

وكانا في أضواء النهار التي أضعفها وخفضها بالستائر التي وضعها . فأمعن النظر فيها واستوعبها ، بكل مافي شبابه من فرح وحرارة وشغف ، ومزج بالقبلات إطراءه جمالها وثناءه على حسنها .

وقضيا النهار يتلاطفان في رقة ويتحاوران في مودة ، ويتبادلان نظرات الهناء . ثم جدّ بهما الأمر بغتة ، فأظلمت عينها ، والتصقت شفاههما ، تعبداً لذلك الغضب القدسي الذي جعل الحب شبيهاً بالبغض ، وتماسكا... وتمازجا... وهَوَيا في هوة الهوى والهيام...

وكانت ملقاة الرأس على الوسادة ، محلولة الشعر ، عندما فتحت عينيها المغرورقتين . وافترّ ثغرها عن ابتسامة حلوة ، ابتسامة من نقعت غلتها ، وبرئت من علتها!...

فسألها من أين أتتها تلك العلامة الصغيرة الحمراء التي في صدغها . فأجابت بأنها لاتعرف وليست شيئاً وتكاد هذه لا تكون كذبة منها ، لأنها في الحق لا تعرف... لقد نسيت!

وذكرا حكايتهما الهنيئة ، القصيرة على أنها شغلت كل حياتهما ، لأن حياتهما بدأت من يوم لقائهما الأول ، فقالت :

ـ أتذكر يوم كنا على المشرف غداة وصولك ، وحدثتني بكلام متقطع غامض ، فحزرت أنك أحببتني!

ـ خشيت ان تكوني حسبتني غبياً غبياً!

ـ لقد كنت كذلك هَوناً مّا... لكن ذلك كان فوزي ، فاني كنت بدأت أتبرّم بتحفظك ورزانتك في حضرتي ، وقد أحببتك قبلما أحببتني ، ولست من هذا خجولا!

ثم صبَّ بين ثناياها قطرة من النبيذ اللؤلؤي المزبد . وكان على الخوان زجاجة من سُلافة «ترازيمين» . فأرادت تذوّقها تذكاراً لتلك البحيرة ، المعروفة بهذا الاسم ، التي رأتها راقدة مساءً في كأسها الطبيعية ، حزينة جميلة ، منذ ست سنين عند زيارتها ايطاليا أوّل مرة .

فعتب عليها تقديرها واعتزازها بجمال الاشياء من دونه ، فقالت له :

ـ ولكني من دونك لا أرى قط شيئاً . فلمَ لم تأت إليّ من قبل ؟

فختم على ثغرها بقبلة ثقيلة...

ولما ثابت الى رشدها ، منهوكة القوى ، من فرط الفرح والضنى ، صاحت به :

ـ نعم إني أحبك! نعم ولم أحب سواك!

٢٢

كتب إليها «لومني» :

«أسافر غداً في السابعة مساء ، فأجدك في المحطة» .

فذهبت ، فرأته واقفاً أمام مركبات الفنادق الكبيرة ، هادئاً وادعاً ، فاكتفى بأن قال لها :

ـ آه! أنت هنا ؟

ـ لكنك أنت يا صديقي الذي طلبت مني المجيء!

ولم يكن ليعترف بأنه كتب خطابه مؤملا باطلا انها قد تعود فتحبه ، وأن ما بقي ينسى ويمحى ، وانه قد يسمعها تقول له : «تلك كانت تجربة»!

أجل ، لو أنها خاطبته بمثل هذا لصدقها من فوره ، لكن صمتها أيأسه ، فقال في جفاء :

ـ ما وراءك ؟ عليك أنت أن تتكلي لا عليَّ . فليس عندي أنا ماأوضحه لك أو أبين أسبابه ، ليس عندي خيانة أعتذر عنها أو أتبرأ منها .

ـ لا تكن قاسيا أيها الصديق ، ولاتكن جاحداً حق الماضي ، وهذا ماعندي لك من القول . وأريد أن أقول لك أيضاً إنني أفارقك بحزن صديقة وفية .

ـ أهذا كل شيء ؟ اذهبي فأعيديه على مسمع من الآخر فذلك يلذّه أكثر مما يلذني ويستميله اكثر مما يستميلني .

لقد دعوتني فجئت ، فلا تجعلني أندم على ما فعلت .

آسف لأنني أزعجتك ، ولاشك في أنه كان إمكانك أن تشغلي يومك بخير من هذا ، ولست أستبقيك أو أمنعك ، فاذهبي الى لقائه ، فإني أراك تذوبين شوقاً اليه!

فلما ذكرت تريز ان في هذه الكلمات البئيسة تتمثل لحظة من لحظات الألم الانساني الأبدي ، وأنه قد تكرر في مأساتهما من هذا شيء كثير ، شعرت بمزيج من الحزن والاستهتار ، بدا في تقلص شفتها ، فحسبها تبتسم فقال لها :

ـ لا تضحكي واصغي إليّ إني أردت أول من أمس في حجرة الفندق أن أقتلك ، ودنوت من هذا الفعل دنواً أعرف الآن مبلغه ومعناه ، ولن أفعله ، فيمكنك أن تطمئني . وفضلا عن ذلك ، فلمَ فعله ؟ وما غناؤه ونفعه ؟ إني سأزورك في باريس لأني ـ رغبة مني في الاحتفاظ بكرامتي الذاتية ـ أريد أن أظل محافظا على الظواهر مراعيا ما يليق ، فتبلغيني مع الأسف أنك لا تستطيعين استقبالي ، فأرى زوجك كما أرى أباك ، وتكون تلك لزيارة استئذانا في سفر طويل ، فوداعاً أيتها السيدة!

وما إن طوى كشحه عنها ، حتى رأت تريز صاحبتها مس بل والامير البرتنلي خارجين من محطة البضائع متجهين صوبها . وكان الامير يبدو في جمال وفتنة ، وكانت فيفان سائرة بجانبه في مرَح وغبطة . فقالت مس بل :

ـ إيهاً يا عزيزة! ان لقاءك هنا مباغتة سعيدة! لقد كنت مع الامير في الجمرك في طلب ناقوسي الذي وصل ؟

ـ آه! أوَصَل الجرس ؟

ـ إنه هاهنا يا عزيزة ، ألفيته في صندوقه الخشبي ، لا يدق لأنه سجين ، لكنني سأسكنه برجا في بيتي بفييزل ، فاذا استنشق نسيم فلورنسا العليل سَعدَ بأن يُسمع الرائح الغادي صوته الفضي الشادي!... فيدق معلناً أفراحنا وأحزاننا جميعا . وسيدق لك ، ولي ، وللأمير ، ولمدام مارميه

الصالحة ، وللمسيو شولت ولأصحابنا كافة...

ـ ان الأجراس يا عزيزتي لا تعلن بدقها أفراحا ولا أحزانا . ما الأجراس الآ موظفون أمناء لا يعرفون غير مشاعر الوظائف...

ـ انت مخطئة ياعزيزة ، فالاجراس تعرف أسرار القلوب وخفايا الصدور ، وتعرف الأشياء كلها ما أسعد حظي بلقياك!... أوه! انـي أعلم يا حبيبتي ما جاء بك الى المحطة ، فقد خدعتك وصيفتك ، وقالت لي إنك منتظرة على الجمر قميص نوم وردي اللون ، لما يأت بعد ، فلا تكدري خاطرك ، انك دوماً يا عزيزة آية الجمال الساحر والحسن الباهر .

وأصعدت «الكونتس مارتن» الى العربة قائلة :

ـ هيا يا عزيزة اسرعي! فالمسيو «دي شارتر» سيتعشى معنا الليلة ، ولا أريد أن يطول انتظاره .

وبينما كانوا يسيرون في سكون المساء في الدروب المشبع جوها بعطر أزاهير البرّية ، قالت الشاعرة :

ـ أترين هناك يا عزيزة أشجار سَرو المقبرة ؟... انني أرغب في الرقاد تحتها هناك...

لكن تريز كانت تقول في نفسها وهي مضطربة وجلة :

ـ «لقد شاهداه ، فهل عرفته فيفان ؟ ماأظن . فقد كاد المكان يكون مظلما ، تفرقت فيه الأنوار الصغيرة التي تأخذ بالابصار . وموضع التساؤل هو أتعرفه ؟ لست أذكر هل رأته بمنزلي في العام الماضي ؟» .

وكان أشد ما شغل بالها ذلك الفرح المكتَّم الذي كان يبدو على الأمير . وعادت «فيفان بل» تقول :

ـ عزيزة! هل لك في موضع الى جانبي ، في هذه المقبرة القروية الخلوية ، تحت جزء صغير من الأرض فضاء كبير من السماء ؟ الا اني أعدها جهالة مني أن اوجه إليك دعوة لا يمكنك قبولها . فلن يسمح لك يا حبيبتي بأن تثوي ثواءك الاخير الأبدي عند سفح تلال فييزول ، إذ يجب أن يكون

مثواك بباريس في رمس جميل ، مع «الكونتس مارتن بليم» ، جنباً الى جنب...

ـ ولماذا ؟ أفتحسبين إذاً ياعزيزتي ان واجب الزوجة يقضي عليها بأن تظل مرتبطة بزوجها حتى بعد الموت ؟ ؟

ـ يقيناً يا عزيزة ، ذلك يجب عليها ، فالزواج هو على طول الآماد والآباد...

ولما تجاوزوا «بادوا» بقليل ، رأوا موكبا صاعداً من منحدرات التل . وكان نسيم المساء يطفئ ذبالات الشموع المرتعشة المغروسة في شمعدانات من خشب مذهّب . وكانت البيارق الملونة محيطة بصفوف من البنات المرتديات ثياباً زرقاء أو بيضاء ، تبعاً للجماعات الدينية ، وأولئك كانوا أهل فييزول سائرين أفواجا ، فعرفت «الكونتس مارتن» بينهم «شولت» رافعاً عقيرية بالغناء ، وفي إحدى يديه شمعة وفي الأخرى كتاب ، وعويناته الزرقاء على طرف أنفه ، وكانت الشمعة تلقي ضوءاً أصفر على تقاطيع وجهه المسطحة ونتوء جمجمته البارزة ، وشعره الأشعث الأغبر ، وكانت لحيته المنفوشة تعلو وتنخفض على نغم النشيد . وفي تلك الأضواء الضئيلة والظلال الكئيبة لاح كهلاً قوياً كأولئك النساك القادرين على قضاء قرن تكفير وتوبة . فقالت «تريز» :

ـ لله درّه! إنه شاعر مطبوع وفنان عظيم .

ـ عجباً يا عزيزة! كيف لا تسلمين بأن مسيو «شولت» رجل وَرِع ؟ كيف لا ؟ ان في الاعتقاد جمالا وفرحاً ممتعين . والشعراء يعرفون ذلك حق المعرفة ، ولو لم يكن مسيو «شولت» مؤمناً لما استطاع نظم ما نظم من الشعر المجيد .

ـ أو مؤمنة أنت يا عزيزتي ؟

ـ أجل ، اني أؤمن بالله وبكلام المسيح .

والآن ، وقداختفت المظلّة العالية والبيارق والخُمُر البيضاء في منعطفات

الطريق الجبلي ، كان لا يزال يُرى على جمجمة «شولت» الحاسرة ضوء الشمعة وهو يتفجّر في أشعة من ذهب...

●

في تلك الاثناء كان «ديشارتر» منتظراً وحده في الحديقة ، فألفته «تريز» متكئاً على الشرفة التي أحسَّ فيها قلبه أول هزة من هزات الحب...

وبينا «مس بل» والاميرة يتخيران مكاناً يضعان فيه قبة الجرس الجديد ، أخذ صاحبته لحظة تحت الخمائل ، وقال لها :

ـ مع ذلك قد وعدتني بأن تكوني في الحديقة فأجدك عند وصولي ، وقد بقيت منتظراً ساعة من الدهر حسبتها أبدية غير متناهية ، ولم يكن لك أن تخرجي ، وقد أدهشني وأيأسني غيابك...

فأجابت جواباً مبهماً ، انها اضطرت للذهاب الى المحطة ، وأن «مس بل» عادت بها معها في عربتها . فاعتذر لها مما بدا من قلقه ، لأن كل شيء أزعجه ، حتى هناءه أخافه وروّعه...

وكانوا قد سبقوا فجلسوا الى المائدة ، عندما ظهر «شولت» ، وكأنما وجهه من الدمى الأثرية العتيقة ، وعيناه الفوسفوريتان تبرقان ببريق مرعب غريب... وكان «شولت» قد خالط الناس مذ عودته من «اسيزي» فكان يقضي سحابة نهاره في شرب نبيذ الكيانتي مع بنات الهوى وأهل الحرف يرشدهم الى السرور البريء وينصحهم بكف الايدي عن الاذى ليسعدوا ، ويبشرهم بقرب ظهور المسيح وإلغاء الضرائب والخدمة العسكرية!

وبعد انفضاض الموكب ، جمع الحشد في خرائب التياترو الروماني ، ووقف يعظه بلغة مكرونية هي خليط من الفرنسية والتسكونية وطاب له ان يعود فيكرر عظته ، فقال :

ـ يقول الملوك والنواب الشيوخ والقضاة : «ان حياة الشعوب فينا» كبُرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا! فليسوا سوى النعش

الذي يقول : «أنا المهد»! ألا إن حياة الشعوب هي في الحقول التي تأخذ في الاصفرار عند الحصاد تكلؤها عين الله . وحياة الشعوب في عناقيد العنب المتدلية من الكروم ، وفي البسمات والعبرات التي تسكبها السموات على الثمار والاشجار في الغياض والرياض... ان حياة الناس ليست في اللوائح التي يضعها الأقوياء والأغنياء محافظة على القوة والثروة . ان ذوي السلطان واصحاب التيجان في الممالك والجمهوريات قد وضعوا في ناموسهم ان الحرب هي سُنّة الخلق ، ومجدوا الشدة ورفعوا قدر القوة ، فتراهم يعلون مقام الفاتحين فيقيمون في الميادين العامة تمثالا للرجل وحصانه الظافرين!... لكن معاذ الله . فليس لانسان كائنا ما كان حق القتل ، لذلك يأبى الرجل المنصف سحب رقم قرعته العسكرية أو دفع الضرائب أو إعطاء الجباة شيئا من ماله . أمّا في ظل السلام فيستمتع بثمرة عمله وكده ، فيخبز القمح الذي زرعه ، ويأكل ثمر الشجر الذي غرسه وشذبه .

فقال «الأمير البرتنلي» بوقار :

ـ لا فُضّ فوك يا مسيو شولت! وأراك على حق في التدخل في شؤون مملكتنا الشقية التي نهكتها الضرائب فتركتها خراباً يبابا . إذ ما الفائدة التي يجنيها الانسان من ارض ضريبتها ثلث دخلها ؟ ؟ ولعمري ماالسادة والدهماء إلا عبيد جباة الاموال على السواء!

فدهش دي شارتر والكونتس مارتن من لهجة الاخلاص غير المنتظرة منه ، فزاد على ذلك قوله :

ـ إني أحب الملك ، وليس ثمة موضع للشك في ولائي ، ولكن آلام الفلاحين تحزنني .

وفي الحق إنه كان متمسكا بأهداب غرض واحد وهو استرداد ضيعته . وكان أبوه الأمير كارلو أحد ضباط المدفعية في جيش فيكتور عمانوئيل قد ترك ثلاثة أرباعها في أيدي المرابين ، ولم يدع للرذائل سبيلا الى نفسه إلا

ما كان منها ذا نفع وفائدة فيفضي الى نيل غرضه وهو العود الى صف كبار المموِلين وأصحاب الاطيان التوسكانيين ، فتاجر في الصور وباع خفية سقوف قصره الشهيرة ، وغازل العجائز وترضاهن وأخيراً خطب مس بل التي عرف مهارتها في ادخار المال وتدبير المنزل . فهو قد أحب الارض وفلاحيها حقاً! وأثارت عاطفة هذا الحب عنده أقوال شولت الحماسية التي فهم شيئا منها فذهب يقول ما يجول بفكره :

ـ في البلاد التي يكون فيها السيد المطاع والخدم الأتباع أسرة واحدة ، يتوقف حظ كل منهم على حظ الباقين . إي وربي إن الضريبة تخربنا ، فأنعم بهمة فلاحينا إنهم في عزْق الأرض لا يشق لهم غبار!

فشهدت «الكونتس مارتن» أنها لم تكن تظن ذلك فلم تر الحقول المخصبة والقنوات الوافرة الآ في «لومبارديا» ، أما «توسكانيا» فقد بدت لها روضة بديعة مهملة...

فأجابها الأمير مبتسما أنها غيرت فكرتها إذا شرفته بزيارتها مزارعه في «كزانتينو» على ما عانته هذه المزراع من الدعاوي الطويلة المرهقة . فهناك تجد الفلاح الايطالي القح :

ـ إنني أهتم كثيراً بضيعتي التي كنت عائدا منها في هذا المساء عندما تضاعف سروري بلقاء «مس بل» في المحطة تطلب جرسها ، كما لقيتك يا سيدتي تتحدثين وصديقاً من باريس...

أدرك أنه قد يضايق «الكونتس مارتن» بالكلام عن ذلك اللقاء ، ونظر عاجزاً عن إخفائها ، فمضى في كلامه يقول :

ـ غفرانك يا سيدتي لفلاح مثلي يخدع النفس بأنه أوتي شيئاً من التمييز الاجتماعي . لكني رأيت أن السيد الذي كان يتحدث إليك لابد أن يكون باريسياً لطلعته الانكليزية ، ولأن تكلفه البرود الانكليزي قد شَّف عن خفة روح الفرنسي .

فقالت «تريز» بلا مبالاة :

ـ أوه! إنني لم أره من زمن طويل ، وقد أدهشني كثيراً لقاؤه في فلورنسا ساعة رحيله عنها...

ونظرت الى «دي شارتر» الذي تظاهر بعدم الاصغاء ، فقالت مس بل :

ـ لكني أعرف هذا السيد ، فهو «مسيوو لومنيل» وقد جلست مرتين بقربه على مائدة «الكونتس ، فحدثني حدثياً مستطاباً ، وأخبرني أنه يحب كرة القدم وقد أدخلها في فرنسا فأصبحت الآن شائعة جداً . وكذلك قص علي أنباء رحلاته في الصيد والقنص ، وهو يحب الحيوانات حباً جماً ، وأؤكد لك يا عزيزتي أن «مسيو لومنيل» يتكلم معجباً بالأرانب التي يعرف عاداتها ، وقال لي أن لها ذكاءً حاداً ، وأنه رأى مرة أرنباً طاعناً في السن تطارده الكلاب فأرغم أرنباً آخر على الخروج من مخبئه ومبادلته موقفه!...

فهل حدثك «المسيو لومنيل» حديث الأرانب يا عزيزة ؟

فأجابت «تريز» أنها لا تعرف ، وأنها تجد جميع الرياضيين ثقلاء مضجرين!

فردت عليها «مس بل» قائلة إنها لا تعتقد أن «مسيو لومنيل» يمكن أن تضجر أحداً عندما يصف له الأرانب الراقصة في الكرمة والبرية تحت ضوء القمر... وتود لو أُتيح لها مثل «فنيون» أن تربي أرنباً صغيراً . قالت :

ـ أفلا تعرفين «فنيون» يا عزيزة ؟ اني واثقة من أن «مسيو دي شارتر» يعرفها ، فقد كانت حسناء محبوبة من الشعراء وقد عاشت في جزيرة «كوص» في بيت على سفح رابية مغطاة بأشجار الليمون والتربنتينا ، وعلى شاطىء بحر أزرق ، وقيل إنها كانت تطيل النظر الى الأمواج الصافية الزرقاء . وقد قصصت على «مسيو لومنيل» حديثها فسَّره ذلك . ومداره على أن صياداً أعطاها أرنباً صغيراً ذا أذينن طويلتين أُخذ عن صدر أمه وهي ترضعه ، فوضعته «فينون» في حجرها ، وأطعمته أزهار الربيع ، فأحب «فنيون» ونسي أمه . ثم مات مْن بشم الزهر . فبكته «فنيون» وحزنت

عليه ، ودفنته بحديقة الليمون في قبر كانت تراه من مضجعها... ورثى الشعراء الأرنب الصغير وعزّوا «فنيون» عنه!

فقالت مدام مارميه أن «مسيو لومنيل» يُرضي النفوس بما أوتيه من فطنة ورقة قلما تتوافران للشبان ، وكانت تود من كل قلبها لو اتيحت لها رؤيته ، لأنها تريد أن يسدي معروفاً ، وقالت :

ـ وهذا المعروف لابن اختي ، الكابتن في المدفعية ، الشاب الحسن الأحدوثة ، المحبوب من رؤسائه . وكان قائده في وقت ما تابعا للجنرال «دي لابريش » عم «مسيو لومنيل» ، فلو تفضل «مسيو لومنيل» فسأل عمه بضعة سطور يرسل بها الى القائد توصية بابن أختي لكنت شاكرة له فضله .

وعادت «مس بل» فأبدت شديد أسفها على أن «عزيزة» لم تعرّفها أن «مسيو لومنيل» في فلورنسا ، فقد كانت تود لو علمت ذلك أن تضيّفه في فييزول .

وظلّ «دي شارتر» مكتئباً واجماً بقية السهرة . فلما هم بالانصراف ، ومدت إليه «تريز» يدها ، أحسَّت أنه تحاشى الضغط عليها .

٢٣

في اليوم التالي ، وجدته في بيت شارع «الفييري» الصغير قلقا مشغول البال . فحاولت بادىء بدء أن تسلية بإفراطها في إظهار الفرح ، ومبالغتها في إبداء خضوع العاتية التي تهب نفسها وحنانها ، لكنه على ذلك ظلّ مكتئباً .

وكان قد قضى سواد ليله بتأمل ، ويفكر ويعمل ، ويكون حزنه وضجره ، لأنه وجد أسباباً للألم . وأدرك بثاقب فكره الصلة بين اليد التي ألقت الخطاب في صندوق البريد الذي أمام التمثال البرنزي لسان مارك ، وبين المجهول الخامل المهيب المنظر الذي شوهد في محطة سكة الحديد... وعلى ذلك يكون «جاك دي شارتر» قد وجد لغمه رسما ولألمه اسما .

وكان جالسا على المقعد الكبير المريح الذي أهدته تريز إليه وجلست عليه يوم زيارتها الأولى السار . ولبث ساكنا وقد دهمته التصورات القاتمة واكتنفته الخواطر المظلمة ،في حين كانت تستند إلى ذراعه وقد ألصقت به جسمها الدافىء وأحاطته بروحها المتيم...

وكانت في غير حاجة الى سؤاله عن أسباب حزنه لأنها تعرفها حق المعرفة ، فحاولت أن توجه تيار أفكاره الى ذكريات سعيدة ، فذكرته اسراراً اشتملت عليها جُدُرُ الغرفة التي تحتويهما ، وذكرته جولاتهما في أنحاء المدينة ، وأسرفت في الإلطاف له والعطف عليه ، وقالت :

ـ أتذكر الملعقة الصغيرة المصنوعة يدها علي شكل «زنبقة حمراء» التي أعطيتنيها تحت مثال «لانزي» ؟ إني أشرب بها الشاي كل صباح ، وما استيقظت إلا أذكرتني اللذة التي أحسها حالما أراها مبلغ حبي لك...

فلما أجاب بكلمات غامضة حزينة ، قالت :

ـ انك غير معني بي على قربي منك ، فقد أراك مشغولا بفكرة أجهلها ، ولكني معنّي على أي حال موجودة باقية ، فأما الفكرة فليست شيئاً...

ـ ليست الفكرة شيئاً ؟! أيخيل إليك ذلك ؟ إن فكرة ماقد تجعل المرء سعيدا أو شقيّاً ، ربما أماتته وربما أحيته ولذلك أفكر...

ـ فيم تفكر ؟

ـ ولم تسألينني ؟ وأنت تعرفين انني أفكر فيما سمعت مساء أمس ، مما سترته مني وأخفيته عني . . أفكر في اللقاء الذي تمّ لك بالأمس في المحطة ، والذي ليست للمصادفة يد فيه . لكنما سبق الى ترتيبه خطاب ، خطاب أُلقي ـ أفتذكرين ؟ ـ في صندوقق بريد سان ميكيل ؟... لا واللّه انني لا ألومك ، فلا حق لي في لومك ، ولكن لماذا صرت إليّ مادمت غير خالية ؟

فرأت أن الكذب أولى ، فقالت :

ـ إذا كنت تعني الشخص الذي لقيته في المحطة أمس الدابر فأوكد لك أن ليس لهذ اللقاء قيمة بتاتا .

فلاحظ بحزن أنها لم تجرؤ على أن تسمي الذي تتكلم عنه ، وتجنب هو أيضا النطق باسمه ، وقال :

ـ تريز! أولم يجئ هنا ليراك ؟ أو لم تعرفي أنه في فلورنسا ؟ أليس هو عندك غير رجل تلقينه في المجتمع وتستقبلينه في منزلك ؟أو لم يكن بسببه ، وفي غيبته ، قولك لي ونحن على شاطىء الأرنو «لا أستطيع» أهو لا شيء عندك ؟ ؟

فأجابته بحزم :

ـ إنه يزورني أحياناً ، وقد قدمه إليّ الجنرال لاريفيير . وليس عندي ما

أقوله لك غير ذلك . وثق أنني لا أجد فيه ما يستميلني على الاطلاق . فلا أقدر أن أتصور ما يمكن أن يكون عالقاً بأوهامك...

وشعرت بضرب من المسرة وهي تجحد بهذا السياق معرفة الرجل الذي كان يدعي عليها ، بكل شدة وفظاظة ، حقَّ الملكية!

وسرعان ما عادت الى الصدق ، ووقفت في طريق المين ، فنظرت الى حبيبها بعينيها الدعجاوين الثابتتي النظرات التي في بريقها معاني الانعطاف ، وقالت :

ـ اصغ إليّ! انني من اليوم الذي صرت فيه إليك صارت حياتي كلها خاصة بك ووقفا عليك . وإذا كان يخامرك أدنى ريب أو يساورك أي قلق فاسألني . فان لك الحاضر كله . وأنت تعلم بيقين أن ليس ثمَّ سواك ، وحدك ، فأنت من الحشاشة في الصميم!...

أما ماضيَّ فلو عرفت إلى أيّ حدّ كان فارغاً لابتهجت ، وإني لأعتقد أنه ليس في الدينا امرأة مثلي خلقت للحب كانت تستطيع أن تأتيك بروح أكثر جدة من روحي ، أو تزفَّ إليك قلبا هو بمجامعه لك كقلبي . هذا ما أقسم عليه . وفي خلال الأعوام التي سبقت معرفتي بك لم أذق للحياة طعماً . فلا تدعنا نتكلم عنها أو نشير إليها . وإن لم يكن فيها ما يندى له جبيني . أما الأسف ، فشيء آخر . فأنا آسفة لأني عرفتك هكذا آخراً . . فلماذا ياحبيبي ، لماذا لم تأت إليَّ من قبل؟ فلو أنك أتيت منذ خمس سنوات لو هبتك نفسي ، كما أهبها لك اليوم طيبة الخاطر . لكن صدقني . ولاتجعلنا ننبش مالم يبق له أثر من الماضي ، أو نتعب أنفسنا بسؤال الزمن الخالي . تذكر «لوهنجرين» فاذا أحببتني كنت لك بمنزلة «فارس البجعة» .

إنني ما سألتك في شيء ، وما أردت معرفة شيء . ألم تر كيف لم أجادلك في أمر الآنسة «جان تانكريد» ؟ ذلك أنني رأيت أنك أحببتني ، وأنك قد عانيت ، وهذا يكفيني ، لأنني أحببتك...

ـ لاتقدر المـرأة أن تكون في حالة الغيرة والرجل سواء ..ولا تقدر أن تشعر بما يسبب لنا نحن الرجال أشد تباريح الآلام .

ـ ما أدري! ولماذا ؟

ـ لماذا ؟ لأنه ليس في دم المرأة ، ولا في لحمها ، شهوة الملكية ، تلك الشهوة السخيفة النبيلة معاً! تلك الشهوة الطبيعية ، العريقة في القِدَم ، التي جعلها الرجل من حقوقه ، فما الإنسان إلاّ الإله الذي يريد أن تكون خليقته كلها له وحده ، وحظ المرأة من قديم الأزل أن تُقتنى . هو الماضي ، الماضي القصيّ المجهول الخفيّ الذي يتحكم في عواطفنا ، فنكون حين نولد كأننا بلغنا الكبر!

أما غيرة المرأة فليست سوى تجريح كرامتها ، أما غيرة الرجل فعذاب عميق ، فيه كل مافيه الألم الأدبي من حدة ، كما فيه كل ما في الألم الجسدي من استمرار... أتسأليني لماذا ؟ ؟... لأنه على خضوعي لك واحترامي إيّاك ، وعلى الخوف الذي تسببينه لي ، فأنت المادة وأنا الفكر ، وأنت الجسم وأنا الرُّوح ، وأنت الصلصال وأنا الخزّاف . على أنه لاحق لك في الشكاية . فما قدر الخزاف الخشن الذليل بجانب الزهرية المستديرة المكللة هامتها بالتيجان ؟ هي هادئة جميلة وهو شقي بائس . هو يعاني ، وهو يرغب فيتعذب ، لأن الرغبة هي العذاب . نعم اني غيور . وأعرف ماغيرتي . فاذا حللتها وجدتها مركبة من أحكام موروثة مبتسرة : كبرياء وحشي ، وإحساس مريض ، ومزيج من عنف أحمق وضعف قاس ، وتمرد أخرق أثيم على سنن الحياة والكون . ولكن عبثاً أقف على حقيقتها العارية . فهي كائنة ، وهي ترهقني من أمري عسرا... وما مثلي إلا مثل الكيمائي الذي يدرس خواص الحمض الذي شربه ، فيعرف بماذا يمكن أن يمتزج ، وأية أملاح يمكن أن يكوِّن ، بَيْدَ أن الحمض في خلال ذلك يحرقه وسيحرقه حتى نخاع عظامه...

ـ يا لك حبيباً أبله!

ـ نعم إني أبله ، وأشعر ببلهي أكثر مما تشعرين . فاشتهاء امرأة في زهرة جمالها وذروة ذكائها ، سيدة ذاتها ، مالكة قياد نفسها ، تفهم وتجسر وهي في فهمها وتجاسرها أحلى وأشهى ما تكون ، امرأة تستطيع أن تتخيَّر بحرية وفي غير تقييد ، وأن تختار بمعرفة ودقة نظر ـ يكون اشتهاؤها وحبها كل ما هي عليه ، والتألم لما ليس فيها من سلامة نية الطفلة التي مع ذلك تهول المرء لو وجدها فيها ، اشتهاء امرأة هذه شأنها ، وسؤالها أن تكون في وقت واحد نفسها وليست نفسها وعبادتها لما جعلتها الحياة له ، ثم التأسف مر الأسف على أن الحياة التي جعلتها هكذا جميلة قد لمستها بأن خلقتها... آهًا إن ذلك لبله شديد!

إني أحبك ، أفتدركين ؟ إني أحبك بكل ما تحملين اليّ من مشاعر وعادات ، وكل ما يأتي من تجاريبك ، وكل ماقد اكتسبته منه... منهم... من يدريني ؟ إن في هذا لذتي وفيه تعذيبي . فليس بد من أن يكون ثمة معنى عميق في ذلك البله الشائع الذي يعتبر غرامنا إثماً وأمراً إداً . فالفرح إذا تجاوز حده صار جُرْما... هذا الذي من أجله أعاني وآلم ، أيتها الحبيبة .

فجثت بين يديه ، وأخذت براحيته ، وجذبته إليها قائلة :

ـ إنني لا أحتمل أن أراك متألماً ، ولا أريد ذلك... فهذا جنون . إني أحبك ولم أحب أحداً سواك ، وفي وسعك أن تصدقني ، والله يعلم أنني لا أفتري عليك كذباً .

فقبلها في جبينها ، قائلاً :

ـ إذا كنت تخدعينني أيتها العزيزة فلن أرجع عليك في ذلك باللائمة ، بل على الضد أمتنّ وأشكر . فأي شيء يمكن أن يكون أحلّ وأكثر انسانية ومشروعية من خداع الحزن ؟ ؟ وا ربّاه! ماذا يصير حالنا لو أن النساء لا يشفقن علينا فيكذبن ؟ ؟ فاكذبي يا حبيبتي! اكذبي رحمة منك وإحساناً!... امنحيني الحلم الذي يكشف ليل احزاني! اكذبي في غيرما خوف أو تردد ، فانما أنت لا تضيفين بالكذب الآ وهماً آخر الى وهم الحب والجمال...

وتنهد قائلاً :

ـ آه لما في ذلك المثل السائر من شعور صادق!

فسألته عما يعنيه وعن ذلك المثل السائر ، فأجاب أنه مَثَلٌ رشيد لكنه وحشي ويؤثر الاّ يكرره .

فقالت له :

ـ اخبرني به .

ـ أتريدين أن أقول لك : « الثغر الذي يُقَبَّل لا يفقد طلاوته » ؟

ـ حقاً أن الحب يصون الجمال ، وأن المرأة تغتذي بالإعزاز والملاطفة كما تغتذي النحلة بالزهر...

فأجابته :

ـ أقسم لك لم أحب قط سواك . الا أنه لا الملاطفة ولا الاعزاز هما اللذان صانا هذا القليل من الجمال الذي أنا سعيدة به لتقديمه اليك ، فإني أحبك ، وبالحلف أعزز حبي!

وختمت يمينها بقبلة طبعتهاعلى شفيته . على أنه عاد فتذكر خطاب «سان ميكيل» ورجل المحطة المجهول... فقال :

ـ لو أحببتني حباً صفواً لما أحببت أحداً سواي .

فنهضت متبرّمة ساخطة تقول :

ـ أفتظن اذاً اني أحب غيرك ، ألا ان ما ترميني به هائل فظيع . أذلك تراه فيّ ، وتقول إنك تحبني ؟ إليك! إنني أرثي لك لأنك رجل مخبول!

ـ أحقاً أني مخبول ؟ قولي ذلك! وكرري هذا القول على سمعي...

فجثت ، وأخذت وجهه في يديها الناعمتين ، وقالت له ثانية إنه مجنون لتلك الأكدار كلها بسبب لقاء عادي لا يعتدُّ به ولا يؤبه له . وحملته على تصديقها ، أو بالأحرى على النسيان...

فلم يعد يرى ، أو يعرف ، أو يشعر بغير هاتين اليدين الرقيقتين وتينك الشفتين الملتهبتين ، وذلك الثَّغر الشَّرِهِ المشوق ، والنحر الممتلىء ، وكل

هذا الجسم الرائع الحسن المقدم اليه . وانصرفت كل تفكيراته الى فكرة واحدة ، هي أن يتلاشى ويفنى فيها . وزالت مرارة حزنه وغضبه ، وبقيت الرغبة الشديدة الملحّة عليه في نسيانه كل شيء كذلك ، بسقوطهما معاً في غشية أبدية . ،كذلك هي نخسها القلق والاشتهاء وحرَّضاها ، فأحسَّت العاطفة الأزلية التي نفثتها فيه بكل قوتها وكل ضعفها جميعاً ، فأعطت حباً نظير حب ، في هياج لم تعرفه من قبل ، وفي سُعار غريزي ، وإرادة دفينة صمّاء تدفعها الى بذل أحسن وأكثر مما بذلت في أي وقت مضى ، تجاسرت على ما كانت تحسب في غير إمكانها التجاسر عليه...

وكانت الحجرة في أحضان ظل دافئ ، وأشعة الشمس الذهبية الساقطة على أهداب السجوف تضيء سلالا مملوءة من الشليك موضوعة على الخوان بجانب زجاجة من نبيذ آستي . وعند رأس السرير ، كان يُرى الظل الجلي للغادة الفينيسية التي ارتسمت على شفيتها الذابلتين بسمة . وكانت صور المساخر المرسومة على (البرافان) المصنوعة في«بجرامو» و «فيونا» تجر ذيول فرحها الصامت...

وهناك وردة كبيرة نضرة تتساقط ورقة ورقة . وكان الصمت يفوح حُبّاً . وقد نهكت الشهوات قوى العاشقين...

ونامت على صدر حبيبها ، وأطالت غفوتُها الخفيفةُ تلذذَها بالغرام . فلما فتحت عينيها قالت مبتهجة :

ـ أهواك!

وكان مستنداً بمرفقه الى الوسادة ، ناظراً اليها بكآبة خرساء . فسألته عن سبب حزنه قائلة :

ـ انك كنت سعيداً مغتبطا منذ هُنيهة ، فلمَ لاأراك كذلك الآن ؟ فهزَّ رأسه ولم ينبس .

ـ عزمت عليك إلا ما قلت! فإني أوثر أن أسمعك شاكيا على أن أراك صامتاً .

فقال :

ـ أفتريدين أن تعرفي ؟ فلا تغضبي إذاً! إن حزني أشد منه في أي وقت مضى ، ذلك إذ عرفت الآن ما يمكنك أن تمنحيه... فابتعدت عنه بسرعة ، وامتلأت عيناها ألما وتوبيخاً ، ثم قالت :

ـ أفيمكن أن يدور بخلدك أنني كنت يوماً لانسان كما كنت لك ؟ إنك تصيبني وتجرحني في أرق مشاعري وأخلصها : في حبي لك . ولست أغفر لك ذلك ، فاني أحبك ، ولم أحب غيرك ، وأنت وحدك الذي جعلتني آلم . فاسعد واهناً ، فقد أصابني منك شرٌ كثير... تُرى... أتكون قاسياخبيثاً ؟

ـ تريز! إذا أحب المرء لم يكن شفيقاً!

وكانت جالسة في الفراش ، كمن تستحم ، وقد تركت ساقيها العاريتين متدليتين ، وبقيت طويلا بلا حراك ، وراحت في تفكير...

ثم تضرّج محياها بحمرة الخجل ، وكان الهوى جعله شاحباً واغرورقت عيناها ، فصاح بها :

ـ تريز! أتبكين ؟

ـ عفواً أيها الصديق! إنها أول مرة أحببت وأحببت فيها حبا صادقاً . واني أوجس خيفة وأحاذر!

٢٤

بينا كان دويّ الحقائب وهي تتدحرج علي الدرج يملأ فيلاّ الزجراس ، والوصيفة «بولين» تهبط السلم بخفة وهي محملة حزماً ، و«مدام مارميه» الصالحة ترقب في يقظة هادئة تصدير الأمتعة ،و «مس بل» تُنهي ارتداء ملابسها في حجرتها ـ كانت «تريز» في ثياب السفر الّرمادية متكئة على سياج المشرف تلقي النظرة الأخيرة على «مدينة الزهرة» .

فقد اعتزمت الرحيل ، ذلك أن قرينها كان يريدها على العودة في كل رسالة منه إليها . فاذا عادت الى باريس في أوائل مايو ، كما رجا منها محلفاً ، فانهما يقيمان مأدبتين أو ثلاث مآدب سياسية ، لأن حزبه اشتد ساعده ورجحت كفته ، ومن رأي «مسيو جران» أن صالون «الكونتس مارتن» قد يكون له نفوذ كبير وتأثير في مستقبل البلاد . فلم تؤثر فيها كثيراً أمثال هاتيك الحجج ، لكنها شعرت بالرأفة بزوجها وأرادت ارضاءه . وكذلك أتتها أولم أمس رسالة من أبيها «مونتسوي» الذي لم يتدخل في خطط صهره السياسية ، ولم يوجه الى ابنته نصيحة ما ، وانما جعلها تفهم أن الناس يلغطون فيما بينهم بسفر «الكونتس مارتن» الى فلورنسا وإقامتها فيها ، تلك الاقامة المحوطة بالأسرار ، حيث تعيش في فيلاّ الأجراس عيشة تتقسّمها العواطف والأهواء ، بين الفنانين والشعراء...

وهي نفسها شعرت أنها تُراقب عن كثب في محيط «فيزول »

المحدود ، وقد ضايقها في «مدام مارميه» وسبب لها الامير«البرتنلي» القلق والانزعاج في حياتها الجديدة واخذت مواعيدها في بيت شارع الفييري تمسي صعبة خطرة وحدث ان الاستاذ الريغي وهو صديق الامير وعشيره قابلها ذات مساء في طريق مقفر تسير ملتصقة بدي شارتر عالقة... وكان الاستاذ الريغي وهو واضع رسالة في الزراعة من الطف الحكماء فزوى وجهه الباسل الجميل ذا الشارب الابيض الجلي الجليل واكتفى في اليوم التالي بأن قال للسيدة الشابة : « كنت فيما غبر أستطيع التكهن باقتراب المرأة الجميلة وهي لاتزال بعيدة أما الآن وقد جاوزت السن التي تميل السيدات الى النظر فيها إليّ فإني أرى الله رحيما بي لأنه قد كفاني رؤيتهن وأصبحت عيناي من قصر النظر بحيث لا تستطيعان تعرف حتى أجمل الوجوه... ففهمت كلامه وتقبلته على أنه تحذير . وها هي ذي يلج بها الحنين الى إخفاء سعادتها في لانهاية باريس...

ولما أخبرت «فيفان» بسفرها القريب ، ألحت عليها في البقاء بضعة أيام أخر ،لكن «ترير» ارتابت في ان صاحبتها مازالت متأثرة من صدمتها لها بنصيحتها التي أسدتها اليها ذات ليلة في غرفة نومها فلم تعد جدّ سعيدة بعشرة صفيّة لا توافقها على اختيارها . كما خيل اليها أن الأمير يشبهها بامرأة غندورة ، وربما شبهها بأمرأة خليعة . فحددت لسفرها الخامس من شهر مايو .

وكان اليوم صحواً بسّاماً في وادي الأرنو ورأت تريز من المشرف وهي سابحة في عالم الاحلام نور الصبح غير المحدود منبثقاً بلون الورد على حوض فلورنسا الأزرق . فأشرفت عليه تحاول ان يدرك طرفها في سفح المنحدر المغطى بالزهر تلك البقعة الخفية حيث عرفت الهناء الذي لاحدّ له . هنالك رأت بقعة صغيرة مظلمة هي حديقة المقبرة ، فحزرت بقربها موقع شارع الفييري ، ثم تراءت لخيالها تلك الحجرة العزيزة التي لن تعود قدمها فتطؤها . عادت تلك الساعات التي مضت بلا رجعة فتمثّلت في ذاكرتها مجللة بالسواد . فأحسّت غشاوة في عينيها وارتخاء في ركبتيها ، كما

أحسّت في نفسها خَوَراً وبدا لها كأنما حياتها لم تعد فيها ، وأنها تاركتها وراءها في ذلك الركن من الأرض حيث تُشاهد أشجار السرو القاتمة شامخة الذرى الساكنة . فلامت نفسها على شعورها بهذا الاضطراب الذي لا سبب له على حين كان ينبغي لها أن تطمئن وتفرح . فقد عرفت أنها ستلقى «جاك دي شارتر» في باريس . وكان بودهما لو وصلا في وقت واحد أو بالحري لو سافرا معا . ثم آثرا أن يبقى هو ثلاثة أيام أخرى أو أربعة في فلورنسا ، ذرّاً للرماد في العيون ، على أن يكون لقاؤهما قريباً ، فضُرب له موعد . وكانت تحيا مذ ذاك بالتفكير فيه . وكان حبها حياتها ، مختلطاً بلحمها ، جارياً في دمها . مع ذلك كانت تاركة وراءها جزءاً من نفسها في البيت الصغير ذي الواجهة المزدانة بصور المعز وبنات الغاب ، جزءاً من نفسها لن يرجع إليها أبد الدهر . وفي عزة الحياة وحميّاها كانت تموت شوقاً الى أشياء لا تقدَّر . فذكرت ان «دي شارتر» قال مرة :

«إن الحب إلاّ عبادة أوثان وعقيدة في التمائم والرُّقى... فقد جمعت من الحديقة بعض حبّات سوداء جافة من شجرة التوت ألتي كنتِ قد نظرتِ إليها!...» . فكيف لم يخطر لها أن تتزوّد بحصاة من البيت الذي نسيت فيه العالم ؟!

قطعت عليها أحلامها صرخة صدرت من «بولين» إذ فجأ «شولت» الوصيفة بقبلة وهي حاملة المعاطف والحقائب الى العربة . ثم راح يركض في الممشى مهرولا ، وأذناه منتشرتان على جانبي جمجمته اللامعة كأنهما قرنان ناتئان .

فقال مخاطباً الكونتس مارتن :

ـ إذن وجبَ أن أودعك ياسيدتي ؟

ذلك أنه كان على نية المكث في إيطاليا ، لأن السيدة ـ كما قال ـ قد دعته إليها ، وهذه السيدة هي «روما» ، وهو يريد أن يزور الكرادلة إذ قيل إن فيهم رجلا عاقلا قد يتقبل رأي «شولت» في الكنيسة الاشتراكية الثائرة ،

وكان غرض «شولت» أن يغرس على أنقاض المدينة القاسية الظالمة صليب الجلجلة ، الذي لم يعد عارياً ميتاً ، وانما حيّاً يضوي العالم تحت ذراعيه المزهرتين! ولكيما ينفذ غرضه كان يسعى في تأليف جمعية وتأسيس جريدة ، أما الجمعية فالكونتس «مارتن» تعرفها ، وأما الجريدة فيكون ثمنها صلدياً واحداً ، ومحررة بالجمل المقفّاة وقصائد الشكاة ، فيمكن التغني بها ، وذلك سيكون . فان الشعر السهل سواء أكان ترحاً أم فرحاً ، جدياً أم هزلياً ، هو في الحقيقة اللغة الوحيدة التي تصلح للتداول بين الناس ، أما النثر فلم يجعل لغير ذوي الذكاء الحاد ، ولقد قابل «شولت» فوضويين بين الباعة المقايضين في شارع «سان جاك» ،فكانوا يمضون سهراتهم يلقون ويستمعون المواويل... ثم عقّب على ذلك بقوله :

ـ أن صحيفة تكون مجموعة أغان تصل الى أغوار أفئدة الجماهير . يقولون إنني عبقري ، ولست أعرف هل هم صادقون لكن يجب على الأقل أن تعترفي بأن لي عقلية محنّكة عملية غير نظرية!

ونزلت «مس بل» السلم وهي تلبس قفازها وتقول :

ـ أي عزيزة! إن البلد والوهاد والسماء كلها قد اجتمعت على أن تحملك على بكائها ، فلبست في يومها ثوب الجمال القشيب لتبعث فيك الأسف على مغادرتها فتحن الى لقائها .

على أن «شولت» كان قد ملّ أناقة أصقاع «توسكانيا» اليابسة ، وتاق الى «أومبريا» الخضراء وجوها الرطب . وذكر «أسيزي» ، قائمة كأنها في صلاة ، في مرعاها الخصيب وسط أرض أكثر لينا وأشد اتضاعا... فقال :

ـ هناك غابات وصخور ومعابر ترى فوقها السماء ذات السحب التي كأنها العهن المنفوش... ولقد قفوت أثر القديس «فرانسوا» الصالح ووضعت نشيده «الشمس» في قافية فرنسية عتيقة بسيطة فقيرة...

فأبدت الكونتس «مارتن» رغبتها في سماعها ، وكانت «مس بل»

صاغية سلفاً ، وقد أشرق وجهها حتى كأنه وجه تمثال ملك من صنع «مينو»!... فأنذرهما «شولت» أن قصيدته لا فنَّ فيها ولا صقل لها ، ثم ألقاها بصوت ذي نغمة واحدة .

فصاحت «مس بل» :

ـ أي مسيو «شولت»! ان هذا النشيد يصعد نحو السماء صعود الناسك الذي شوهد في «كامبو سانتو دي بيزا» متسلقا الجبل الذي تحب المعز الرعي فيه ، وكان متكئاً في صعوده على عصا الأيمان ، غير متساوي الخطا ، لان عصاه كانت على أحد جانبيه ، فكانت إحدى قدميه أسرع من الأخرى ، وهذا هو السر في أن أشعارك مرسلة غير منظومة... نعم! أنا فاهمة!...

فتقبل الشاعر هذا المديح مقتنعاً بأنه يستحقه من حيث لا يحتسب!... فقالت تريز :

ـ إنك مؤمن يا مسيو شولت ، فعلام كان يحملك إيمانك لو لم يحملك على نظم ممتع القريض ؟

ـ كان يحملني على الاثم يا سيدتي!

ـ وي! إننا لنرتكب الآثام من دونه!

●

وظهرت « مدام مارميه» متأهبة للرحيل ، وكانت تشعر بمسرة وديعة لعودتها الى مسكنها الصغير في شارع «دي لاشير» ، والى كلبها الصغير «توبي» والى صاحبها الشيخ مسيو«لاجرانج» . وبعد «إيتروسكي فييزول» ستسعد برؤية فارس بيتها الواقف بين علب الحلوى مطلاً من النافذة على ساحة البون مارشيه!

وحملت مس بل صاحبتها في عربتها الى المحطة .

٢٥

أتى دي شارتر الى القاطرة يودع السيدتين الراحلتين... وقد «صَدَّعَ الظعائنُ يوم بِنَّ فؤاده!... » فأدركت تريز وقد حال الفراق بينها وبينه ما كان لها . إنه جعل لحياتها طعماً طريفاً لذيذاً طلياً حقيقياً إلى حد أشعرها بمذاقه على شفتيها . وقد كانت عائشة تحت تأثير سحر ، وفي حلم ، على رجاء أن تعود فتراه .

وجعلت «مدام مارميه» تنازعها أحلامها الهنيئة طوال رحلتهما بما نبديه من ملاحظات كقولها : أظننا نجتاز الحدود! » أو «انظري الى شجر الورد المزهر على شاطئ البحر» .

وظلت تريز محتفظة بهذا الفرح حتى رأت ، بعد ليلة قضتها في فندق بمرسيليا ، أشجار الزيتون الرمادية في حقولها المجرية ، ثم شجر التوت وجبل «بيلات» البعيد ، ونهر الرون ومدينة ليون ، ثم الريف المعهود ، والأشجار الرافعة رؤوسها المضمومة في طاقات ، وكانت منذ قليل قاتمة بنفسجية فحالت خضراء سندسية ، والوهاد تنحدر مفروشة بخطوط صغيرة من الأرض المزروعة ، وصفوف شجر الحور الممتدة على طول ضفاف الأنهار . وكذلك قطعت المرحلة ، وكانت تتذوق ملء الساعات الماضية بالعواطف ودهشة الفرح العميق .

وعندما وقف القطار في نور المحطة الكابي ورأت زوجها المغتبط بعودتها ، حيته بابتسامة المستيقظة من النعاس...

ثم قالت لمدام مارميه الصالحة وهي تقبلها ، إنها تشكرها بكل جوارحها . وحقا أنها كانت تردد الشكر لكل الكائنات .

وبينا العربة تسير والأرصفة على نور الغروب المغبر ، صغت تريز صابرة الى زوجها وهو يفضي إليها بأخبار نجاحه الخطابي ، وخطط حزبه السياسي ، ومشاريعه الخاصة ، وأمانيه ، وضرورة إقامة مأدبتين أو ثلاث مآدب سياسية كبيرة . فأغمضت عينيها لتفكر قائلة في نفسها « سيجيئني منه خطاب غدا ، وسأراه ثانية في ثمانية أيام » . وعندما اجتازت العربة الجسر نظرت الى تلك المياه التي جعلتها الشمس الغاربة كأنها تتأجّج ناراً ،والى تلك الأقواس (البواكي) المظلمة ، والى صفوف أشجار الجنار ، والى رؤوس أشجار الكستناء المزهرة في وسط مخمس أشجار « كورلارين » وأركانه الأربعة .

ان كل هذه المناظر المألوفة لديها قد اكتست ثوباً قشيبا من الملاحة في عينيه . وبدا لها أن حبها قد صبغ الكون بلون جديد . وسألت نفسها ترى أعرفتها الأشجار والاحجار ؟ وعجبت كيف أن صمتها وعينيها وكل جسمها والسماء والأرض جميعاً لم تهتف بسرها ؟!

فظنها الكونت « مارتن بليم » متعبة فأشار عليها بالراحة وفي الليل ، وقد أوصدت حجرتها عليها ، وحاطها السكون الشامل بحيث تكاد تسمع همس خواطرها وخفقان قلبها ، كتبت الى حبيبها الغائب خطاباً فائضاً بتلك الكلمات الشبيهة بالأزاهير في نضرتها الدائمة : « إني أحبك . إني في انتظارك . اني سعيدة . أشعر بك قريباً مني ، وليس في الوجود غيرنا ، أنت وأنا!... أرى من نافذتي نجماً ذا زرقة صافية يتلألأ فأنظر إليه مفكرة في أنك قد تكون ناظراً إليه مثلي من فلورنسا . ولقد وضعت على منضدتي الملعقة المصنوعة يدها على شكل « زنبقة حمراء » . فتعال إنك على بعدك تلهبني شوقاً إليك... إليّ » .

وهكذا وجدت تلك العواطف والخواطر الأبدية دائمة الطلاوة في نفسها ، وظلت تعيش لأسبوع هذه الحياة المقصورة على داخلها ، وتشعر في

صميمها بالحرارة العذبة الباقية بها من غراميات شارع الفييري ، وماتزال تحس أثر مانالها من قبلات ، وشغفت بنفسها لأن إنساناً آخر مشغوف بها حباً . وبذلت العناية العظمى وجهد الذوق المصفى في انتقاء الجديد من ثيابها وزينتها . وبهذا أيضاً أرضت نفسها ، وأصابت . وكانت تجنّ قلقا وتلهفاً اذا لم تجد خطاباً لها بمكتب البريد . وكانت تطير فرحاً عندما تسلم إليها من الكوة الصغيرة في السياج الحديدي رسالة تعرف على غلافها خط صاحبها الجميل . فتلتهمها الذكريات والرغبات والنزعات التهاما... وبذا تمر الساعات الضائعة الحارة اللاعجة سراعاً .

أما صباح اليوم المحدد لحضوره فقد بدا لها بخاصة طويلا طولا ممقوتاً مملاً فذهبت الى المحطة قبل موعد وصول القطار . فأُعلن تأخيره ، فأسقط في يدها ، ولما كانت كأبيها من أهل التفاؤل تعتقد بأن كفة التأخير غير المنظور غدراً!

ولثلاثة أرباع الساعة سقط عليها الضوء الكابي من وراء بلور فناء المحطة كأنه حبات لا عداد لها من الرمل في ساعة رملية تقيس لها دقائق هنائها المفقودة!...

فاغتمت... واذا بها ترى ، في أشعة الغروب الحمراء ، القاطرة الهائلة تقف وادعة على الرصيف ، وترى «جاك» يشق غمار جمهور المسافرين المزدحمين سراعاً الى العربات فنظر اليها بذلك الفرح المكفهرّ القوي الذي تعرفه ، وقال :

ـ أهذه أنت أخيراً!... لقد كنت أخشى أن أموت قبل أن أعود فأراك . إنك لا تعرفين ، وأنا نفسي لم أكن أعرف ، أي عذاب هو عذاب العيش أسبوعاً في بعادك! ولقد عاودت زيارة بيت شارع الفييري الصغير ، وهناك ؛ في الغرفة الصغيرة المعهودة ، أذرفت دموع الجوى وصحت من لوعتي وصرخت كمداً!...

فنظرت إليه وملء نفسها الغبطة وقالت :

ـ وأنا ، أفلا تحسبني ناديتك ، وأردتك ، وإنني حتى في وحدتي قد مددت ذراعيَّ نحوك ؟... ولقد أخفيت رسائلك حيث أحفظ من الفطنة حليي ، وأخذت على نفسي إعادة تلاوتها كل ليلة . فما أطيب ذلك لولا خلوه من الفطنة! . إن رسائلك هي مثلك وحذوك ، ومع ذلك فليس فيها غناء!

●

قطعا ساحة المحطة بين العربات المكدسة بالأمتعة ، فسألته ألا يركبان عربة . فلم يجب ، لاح عليه كأنه لا يسمع . فعادت تقول :

ـ ذهبت أرى بيتك ، فلم أجرؤ على الدخول . فنظرت من خلال السياج ، ورأيت في آخر ساحة الدار إزاء شجرة دلب نوافذ ذات عوارض تتسلق حولها شجيرات الورد . فقلت لنفسي : «أنْ هناك...!» . فشعرت باضطراب غريب .

وكان قد كفَّ عن الاصغاء لها ، أو النظر اليها . فاجتازا الرصيف مسرعين ، وخرجا من سلم ضيقة الى شارع مقفر يتاخم فناء المحطة وينخفض عنه . وكان بين أكواخ خشبية ومخازن للفحم الحجري نُزل قاعته الارضية مطعم صُفّفت موائده على الرصيف ، وعلى نوافذه ستائر بيضاء . فوقف «دي شارتر» عند بابه الصغير ، ودفع تريز الى الدهليز المظلم ، فسألته :

ـ إلى أين تسوقني ؟ كم الساعة الآن ؟ يجب ان أعود الى البيت في منتصف الثامنة!... ويحنا من مجنونين!...

وهناك في غرفة بلاطها احمر اللون ، وأثاثها سرير من خشب الجوز وسجادة عليها صورة سبع ، ذاقا لحظة نسيان ربَّانية .

قالت وهما ينزلان الدرج :

ـ جاك! يا حبيبي! إننا سعيدان جَهْدَ السعادة!... لنحن نختلس الحياة!...

٢٦

وفي اليوم التالي ، استقلت مركبة درجت بها في طريق آهل ، عليه من سيما الفرح وكآبة الترح معا ، وان كان وقتئذ مقفرا . وكانت أسوار حدائقه الغناء تتخلل بيوته الحديثة البناء . فوقفت عند الرصيف الذي يعلوه طنف نزل على طراز العهد «الريجنسي» ، يعترض الطريق زينة ناشزة ، وقد علاه التراب وعفت عليه يدا الحدثان والنسيان... وفيما بين ههنا وههنا تمتد الأغصان الخضراء بين الأحجار فتبعث البهجة في هذا الركن من المدينة .

وبينما كانت «تريز» تدق جرس الباب الصغير ، درات ببصرها فيما حولها ، واستوعبت المحيط المحدود من البيوت ، ورأت فيما رأت بكرة معلقة في طاق ومفتاحا كبيراً مذهبا هما شارة صانع اقفال . فامتلأ ناظراها بهذه الأشياء التي كانت جديدة عليها ثم ألفتها . وحلق الحمام فوق رأسها ، وسمعت نقنقة الدجاج . ففتح لها الباب خادم عظيم الشاربين كأنه جندي فلاح . فألقت نفسها في فناء رملي تظلله شجرة دُلْب . وكان مسكن البواب الى اليسارعلى مستوى الطريق ، معلقة في نوافذه أقفاص الكنار . والى هذا الجانب كان برج الدار المجاورة مغطى بتعريشة خضراء يستند اليها مشغل مثّال تظهر من وراء زجاجه أشكال الجصّ مغطاة بطبقة من الغبار . وفي آخر الفناء ، قام ذلك البيت المتوسط الحجم ، وكان لواجهته ست نوافذ ذات قضبان يحجبها الورد واللبلاب قليلا . وكان لهذا البيت بتهدمه وستاره

السندسي قدر من جمال . ومالبثت «تريز» أن تبينت فيه حسن الانسجام ، وتوسمت في هذا الاهمال الممتد من الجُدر المكسوة لبلابا الى زجاج المشغل المعتم وشجرة الجنّار المنحنية تنثر قشورها على عشب الفناء ـ روح الأستاذ ، المتهاون ، غير الحريص ، الذي يحمل بين جنبيه كآبة المتذمرين ذوي النزوات والبدوات...

وفي سرورها انقبض صدرها لحظة إذ تحققت من عدم الاكتراث الذي يترك به محبها محيطه ، وعلى ما كان في ذلك من الظرف والنبل كان فيه كذلك روح انفصال لا يتفق وطبعها الخاص ، إذ كان على النقيض من نفسية «آل مونتسوي» النفعية ذات العناية . ثم تمنت على دهرها لو تدخل الى هذا المكان الموحش روح النظام من دون ان تتلف ملاحته الشعرية . إذاً لفرشت الممشى بالرمل ، وغرست في الركن الذي تسقط عليه الشمس بهجة الأزهار! ونظرت بعطف الى دمية تمثل (فلورا) ملكة الربيع راقدة على الأرض ويداها الى جانبها . وعنَّ لها أن ترفعها وتضعها على قاعدة منقوشة بالأكاليل كانت قد رأتها في متجر عاديات .

وكان «دي شارتر» يرقب منذ ساعة محضرها ، فاستخفَّه الفرح وإن كان القلق ما برح يسومه سوء العذاب . فنزل الدرج ليلقاها . فوقفت في ظل الدهليز الرطب حيث كان يحسّ من يقربه مافي داخله من فاخر تماثيل البرنز والمرمر ، ووقفت متصدعة من ضربات قلبها التي تدق سراعاً في صدرها . فضمها اليه ، وقبلها قبلات طويلة . فسمعته في تأثرها وطنين أذنيها يذكرّها متع اليوم الماضي ولذاته الباغتة ، فعادت فقامت أمام ناظريها صورة السبع الأفريقي المرسومة على سجادة غرفة السرير ، وردّت الى «جاك» قبلاته بأناة لذيذة...

فصعد بها من سلم خشبية الى حجرة كبيرة كانت فيما مضى مشغل أبيه ، وأتخذها هو للرسم وصنع المُثُل ، وللقراءة بخاصة ، فقدكانت القراءة عنده بمثابة الأفيون ، توحي اليه الصفحة المفتوحة الأحلام . فقادها الى

أريكة واسعة واطئة على وسائدها أغطية أندلسية فاخرة وحلل استانبولية ، لكنها جلست في مقعد مريح ، فقال :

ـ أهي أنت!... أنت هنا!... أنت حسبي!... فليأت الموت اذاً!!

فأجابت :

ـ لقد استعرض فكري فيما مضى فناء الكون ، ولم أخش ذلك الفناء ، الذي وعدني بها المسيو «لاجرانج» متطرفاً! فبقيت في انتظاره... يالله! لشدّ ما كنت قبل أن أعرفك ملولا نافدة الصبر ضائقة الصدر!

ونظرت حولها الى المناضد المحملة أوعية زهر ، ودمى ، والى الديباج الموشّى ، والى مجموعة الأسلحة الفخمة اللامعة ، والى الزخارف ، والمرمريات ، والصور ، والكتب القديمة ، وقالت :

ـ ان لديك أشياء جميلة .

ـ جُلها لأبي ، الدي عاش في عصر جمع التحف الذهبي .

ـ على أنهاكانت متلهفة إلى شيء لم تجده فأسقط في يدها ، فقالت :

اني لا أرى هنا شيئا من صنعك ، فلا تمثالا ولانقشا ، ولا شكلا من أشكال الشمع المرغوب فيه كثيرا في بلاد الانكليز ، ولا دمية رقيقة ، ولا لوحا أو مسكوكة واحدة!

ـ وكيف يخطر لك أنني أحتمل العيش وسط ما صنعت يداي ؟! ؟ إني أعرف أشكالي حق المعرفة ، وهي تضايقني . ومالا سرّ فيه يخفيه فلا جمال له بيديه!

فنظرت اليه متظاهرة بالكيد منه ،وقالت :

ـ انك لم تذكر لي قط ان الشيء يفقد جماله عندك إذا لم يعد له سر يكتمه عنك .

فأخذها بخصريها ، قائلاً :

ـ إن لكل حي سراً معمّى! وأنت عندي ياحبيبتي لغز غير محلول ، فيه لذات الحياة وأهوال المنون ، فلا تخشي أن تكوني لي . فسأظلّ أتشهّاك

أبداً ، وسأظل أجهلك أبد الدهر . وهل نال أحد يوماً من يحبه ؟ ؟ هل القبلات والملاطفات والمعانقات غير جهد يأس لذيذ ؟ ؟ إنني إذ آخذك بين ذراعيّ لا أفتأ باحثا عنك مشوقاً اليك . ولن أنالك أصلا ، مادمت أريدك ومادام مرادي منك هو المستحيل استحالة مطلقة... أما ماأنت فعلمه عند ربي .

أفتحسبين أنني أعد مثّالا لأنني صنعت بضعة أشكال عادية ؟ أولى أن أكون حزباً من شاعر أو فيلسوف يبحث في الطبيعة عن مسائل ستبقى حيرته وعذابه . ان الشعور بالأشكال لا يكفيني ، ورفقتي المثّالون يضحكون مني لأنني لا أقدر أن أكون بسيطاً مثلهم وهم محقون . وذلك الحيوان «شولت» محق أيضاً . وصاحبنا إسكاف «سانتا ماريا نوفلاّ» الذي لا يعرف شيئا من كل ماقد يجعله طغى أو يشقى هو استاذ في فن الحياة . فينبغي لي أن أحبك بالبساطة المطلقة البرئية من تلك النظريات الغرامية التي تحيلني باطلا وتجعلني سخيفاً . وليس خيراً للانسان من الجهل والنسيان . فتعالي ، إلي ، فلشد ما فكرت فيك قاسي الفِكَر في عذاب بعادنا... فإليّ يا حبيبتي ففيك وحدك أستطيع أن أنسى نفسي وأنساك! وأخذها في حضنه ، ورفع حجابها ، وقبل ثغرها ، فجزعت قليلا من خشية هذا البهو الكبير الغريب عنها ، كأنما ضايقتها الكائنات الأجنبية منها . فأسدلت على وجهها حتى ذقنها خمارها التُّل الاسود ، وقالت :

ـ هنا ؟ إنك لا ريب ساه!

فقال لها إنهما وحدهما ولا ثالث لهما . فقالت :

ـ وحدنا!... وذلك الرجل ذو الشوراب المخيفة الذي فتح لي الباب ؟ ؟

فابتسم قائلا :

ـ ذلك «فوزلييه» خادم أبي القديم . ومنه ومن زوجه يقوم بيتي فاطمئني . إنهما في مسكنهما ، مخلصان على سوء خلقهما ، وسترين «مدام فوزلييه» ، وهي مقرَّبة... فاحذري!...

- لكن يا صديقي كيف تكون شوارب هذا المسيو «فوزلييه» وهو بواب ووصيف مائدة ، كشوارب التتر ؟!!

- لقدنفحته الطبيعة إياها يا حبيبتي ، فتركتها له عن طيب خاطر واني ممتن لما هو عليه من منظر (باشجاويش) على المعاش عاد شتّالا... لأنه يلقي في روعي أحياناً أنه جاري الريفي!...

وجلسا في ركن من الإيوان ، فجذبها على ركبتيه ، وراح يقبلها قبلات ردّتها اليه...

ثم نهضت بسرعة ، قائلة :

- أرني بقية الغرف ، فأني متشوقة! أريد رؤية كل شيء! فسار بها الى الدور الثاني ، وكانت تغطي حائط الممشى ألواح مصورة بالألوان بريشة «فيلب دي شارتر» . ففتح باباً وأدخلها حجرة أثاثها من خشب الورد . وتلك كانت حجرة امه . وقد احتفظ بها أشد احتفاظ كما كانت في أمسها الغابر ، الماضي هو الذي يؤثر فينا وحده حقاً ويحزننا... وعلى أنه مضت عليها تسع سنين وهي غير آهلة لم يكن يبدو عليها أنها استسلمت بعد الى الوحشة... فمرآة المشجب كانت ترقب نظرة السيدة العجوز والقنوط لأنها لم تعد تسمع حركة رقّاص الساعة... وكان على الحائط صورتان احداهما «لفيليب دي شارتر» ، شديد شحوب الوجه ، أشعث شعر الرأس ، زائغ البصر في حلم روائي ، وملء فمه البيان والسحر ودماثة الأخلاق . والأخرى لسيدة مشتبهة العمر ، تكاد تكون جميلة في هزالها . وهي مدام «فيليب دي شارتر» . قال جاك :

- إن حجرة امي المسكينة هي مثلي ، تتذكرّ...

فقالت تريز :

- ما أشبهك بأمك . فإن لك عينيها . وقد أخبرني «بول فانس» أنها كانت تعبدك...

فأجاب مبتسماً :

ـ أجل ، كانت أمي شائقة ، زكية سليمة الذوق ،.ولكن غير ذات رأي راجح . فان حبها الأموي كثيراً ما بلغ حدّ الجنون . فلم تكن تدعني لحظة واحدة مستريحاً . لقد نغَّصت عيشها ونغَّصتني .

فنظرت « تريز » الى دمية من البرنز موضوعة على المشجب ، فقال «دي شارتر» :

ـ هذا التمثال هدية من نابليون الثالث ، وكان من عادة والديّ زيارة « كومبين » وبينا كان البلاط في «فونتنبلو» رسم أبي القصر ، فأتى الامبرطور في الصباح مرتدياً بذلته «الردينجوت» وفي فمه غليونه ، ووقف بالقرب منه ، كأنه الطائر الأكتع حطّ على صخر... وكنت حينذاك تلميذاً بمدرسة بونابرت . وكنت أصغي الى تلك القصص على المائدة فلم أنسها قط . وكان الامبراطور يقف هناك هادئا وادعا ، ربما قطع سكوته الطويل ببضع كلمات تختنق تحت شاربه الثقيل . ثم يتحمس قليلا...ويبسط آراءه في الآلات لأنه كان ميكانيكياً مبتدعاً . ثم يخرج قلمه الرصاص من جيبه وينشىء يرسم أشكالا على الرسوم أبي اليائس المغموم... فكان يتلف على هذه الطريقة رسمين أو ثلاثة في كل أسبوع... وكان يحب أبي كثيراً ووعده بوظائف ورتب غير أنه لم ينجز منها عدة ، وكان الامبرطور رضيَّ الخلق ، وإن لم يكن ذا نفوذ ، كما كانت امي تقول . وفي ذلك العهد كنت صبيّاً ، وما زال في نفسي من حينها شعور عطف مبهم على ذلك الرجل الذي كان قلبه الرحيم الكريم يعوزه النبوغ . وقد سلك إبّان تقلبات الدهر وصروف الزمان مسلك الشجاعة الساذجة ، ومع الإيمان الظريف بأن المكتوب على الجبين تراه العيون...

وكذلك أثار عطفي عليه ما قام ضده من المعارضة ومارُمي به من سباب مصدرهما أولئك الذين كانوا يريدون أن يشغلوا مكانه وليس لهم حتى ولا حبه الشعب . ورأيناهم مذ ذاك قابضين على زمام السلطة ، فأف لهم! ما أخستهم!... خذي مثلا ذلك العضو في مجلس الشيوخ «لوييه» فقد كان وهو

في قاعة التدخين بمنزلك يحشو جيوبه باللفائف ويدعوني لأفعل فعله (لندخن في الطريق)! و«لوبيه» هذا الرجل خبث وشر ، قاس على التعساء والضعفاء والفقراء . ثم «جران» ؟ أفلا يستثير نفورك ، لعلك تذكرين يوم تناولت الطعام في بيتك أوّل مرة ودار الحديث حول نابليون . وكان شعرك معقوصا بشكل بديع ، وفوق منبت الشعر من نحرك ، عقصة واحدة مغروسة بسهم من الماس... وتكلم «بول فانس» بلباقة وحذق . فلم يفهم «جران»... وسألتني أنت عن رأيي...

ـ ذلك أنني أردت لك الظهور ، فقد كنت أتسلّف الفخر بك! ؛

ـ أوه!... ما كنت لأستطيع أن أقول جملة واحدة في حضرة مثل أولئك القوم الجادين . ومع ذلك كنت أود لو أقول أن نابليون الثالث يروقني اكثر مما يروقني نابليون الأول ، لأنه كان أقل هياجاً ، وبالحري اكثر إنسانية... لكن لعل تلك الكلمة كانت تحدث أثراً سيئاً . على أنني لست محروماً كل موهبة وأعني بالسياسة!

وكان يدور في الحجرة ناظراً الى الأثاث بميل وعطف . ثم فتح درجا في المكتب وقال :

ـ دونك عوينات أمي . إليكها . ما أكثر ما كانت تبحث عن هذه العوينات!... والآن سأريك حجرتي ، واذا لم تكن مرتَّبة فاعذري «مدام فوزليه» التي أمرتها أن تحترم إهمالي!

●

كانت ستائر النوافذ مرخاة ، فتركها كذلك . وبعد ساعة ، أزاحت هي ثنيات الحرير الأحمر فبهرت عينيها أشعة الضوء التي سطعت على شعرها المنفوش... فبحثت عن المرآة ، فلم تجد غير مرآة فينسية ، كابية في إطارها الاسود الكبير ، فوقفت على أخمص قدميها لترى نفسها ، وتساءلت :

ـ أهذه أنا ، ذلك الطيف المظلم البعيد ؟ ان اللواتي وقفن أمام هذه

المرآة رأين أنفسهن فيها كما أرى نفسي . فما أبشع إرضاءك من تنالهن بتحويلهن على نحوي إلى ظلال كئيبة!

ثم اعتراها هاجس فجأة فصاحت :

ـ ربّاه! ماذا يظن فيّ مسيو «فوزلييه» وزوجته ؟

وبصرت على الحائط بدمية من صنع «دي شارتر» تمثل صبية من بنات الشوارع لعوب فاجرة ، فسألت :

ـ ما تكون هذه ؟

ـ هذه «كلارا» الصغيرة بائعة الجرائد بشارع دمورس .

وكانت تحضر لي صحفية «الفيغارو» لمطلع كل صباح . وكان على خديها طابعا حسن خُلقا عُشّين للقبل...

فقلت لها يوماً : «أريد رسم صورتك» . فجاءت صبيحة يوم من أيام الصيف ، مزيّنة بالاقراط والخواتم المشتراة في سوق «نوابي» . ثم اختفت فلم أعد أراها . ولا أدري ما جرى لها . لقد خلقت مسوقة بفطرتها لتكون فاجرة كبيرة... أفتريدين أن أرفعها ؟

ـ كلا ، فدعها ! إنها حسنة المنظر في هذا الركن ، ولست غيورا من كلارا!

حان وقت عودتها الى بيتها ، لكن لم يكن قد استقرّ بعد عزمها على فراقه ، فطوّقت بذراعيها عنق حبيبها ، وقالت :

ـ آه! أحبك! انك كنت اليوم ضاحك السنّ منشرح الصدر... والله ما أبهى سرورك! إنه متألق... رشيق... فليتك تكون دائما مسروراً! فان حاجتي الى الفرح تكادتَعدل حاجتي الى الحب... ومنذا الذي يمنحني الفرح إن لم تمنحني أنت إيّاه ؟!

٢٧

مضت على «تريز» ستة أسابيع منذ عودتها الي باريس ، وكأنها كانت تعيش في غفوة حارّة من الهناء ، وحلت عندها الأحلام السعيدة محل الفِكَر . وكانت تلقى «جاك» كل يوم في بيته الصغير . فاذا جاء المساء ، وانتزع كل منهما نفسه من صاحبه آخر الأمر ، ذهبت حاملة في قلبها تذكارات غرامها المعبودة . اما تعسها اللذيذ واشتهاؤها المتجدد فقد ربطا ساعات الهوى بعضها ببعض . وكانا في الأذواق صنوين . تتملكهما مشاعر واحدة وتصورات واحدة ، وتحملهما معاً أجنحة الزهواء الواحدة . وكان يسرها أن يجوسا خلال الأصقاع الخلوية البهيجة الخفية في ظاهر المدينة ، وأن يغشيا الشوراع بأشجار الملّونة حيطانها بلون عكازة النبيذ ، المظللة بأشجار الطلح . والطرقات الحجرية التي ينمو العوسج فيها على سفل الجدران . والغابات الصغيرة ، والحقول التي تمتد فوقها سماء شفّافة يخططها الدخان المتصاعد من مداخن المصانع كانت «تريز» سعيدة بأحساسها إياه قريباً منها في هذا الريف حيث أنكرت ذاتها وأطلقت خيالها فأحست أنها فقدت مع صاحبها نفسها...

في ذلك اليوم بدا لهما أن يركبا الزورق طالما رأته يمر تحت نوافذها . ولم تخف أن تعرف . فلم يكن الخطر كبيراً ، فقد أغفلت كل محذور مذ عرفت الهوى... «وصريع كل هوى صريع هوان»!... ورأيا الشواطئ تضحك

هاربة من قحولة الضواحي المتربة . وجانبا الجزائر ذات الغياض التي تظلل أشجارها حانات الأطراف ، والتي عداد الحصى مربوطة تحت الصفصاف . فنزلا عند «ميدون» السفلي . وإذ قالت إنها ظمآنة حرَّى أدخلها من باب جانبي حانة فيها غرف مفروشة . وكانت بناء ينوء بالشرفات الخشبية ، جعله الفراغ يبدو أكبر مما هو ، وكأنه نائم في سلام الريف منتظرا يوم الأحد أن تملأه ضحكات الصبايا ، وصيحات المتنزهين ، ومجذفي القوراب ، ورائحة الطهي ، ونَشْنَشَة السمك المقلي .

فرقيا درجات على شكل سلم طقطقت تحت أقدامهما ، وخلصا الى حجرة في الدور الأول حيث وافتهما خادم بنبيذ وبسكويت .

وكانت ستر من الصوف تغطي سريراً من خشب «الأكاجو» . وفوق المصطلى الذي يشغل ركنا من الحجرة علّقت مرآة بيضاوية الشكل في إطار برسم الزهر . وكان يرى من الشباك المفتوح نهر السين بشاطئيه الأخضرين ، وثلج الربى البعيدة كأنها تسبح في الجو الدافئ ، والشمس تجنح إذ ذاك الى قمم أشجار الحور ، والبعوض يرقص جماعات على ضفة النهر . وكان سلام المساء الصيفي الراجف قد شمل السماء والأرض والماء جميعاً .

فنظرت «تريز» طويلاً الى النهر يعب عبابه ، وقد مخر الفلك يدق رفاصه الماء دقاً ويشقه شقاً ، والأخير يترامى على الساحل فيهزّ البيت القائم على الضفة هزّاً كما لو كان زورقا... فالتفتت الى حبيبها وقالت :

- إني أحب الماء... يا فرحاً بسعادة حالي وهناء بالي!

وتلاقت شفاههما .

ثم غاصا في لجة من يأس الغرام المسحور . فلم يلحظا مرور الوقت عليهما ، الاّ من صوت تكسر الأمواج تحت الشباك الموارَب ، عقب مرور الزورق في كل عشر دقائق . وكانت ثيابها المنزوعة بنافد الصبر ملقاة بلا مبالاة على أرض الغرفة الخشبية . فرفعت رأسها عن الوسادة ، ورأت في

المرآة جسمها الغضّ العاري ينازع الزهر بهاءه والبدر سناءه . فأجابت عن عبارات الثناء التي نثرها عليها صاحبها بلسان غرامه قائلة :

ـ ومع كل... فحقاً انني قد خُلقت للحب!...

وفي حسّ صادق بسلطان جمالها ، تأملت شكل قدّها ، وصورة وجهها ، على النور الأرجواني الذي زاد الورد الشاحب أو القرمزي ـ ورد خديها وشفتيها ونهديها ـ زهوة ونضرة... وقالت :

ـ أهوى نفسي لأنك تهواني!

انه قد هويها بيقين . ولم يكن في وسعه أن يفسر لنفسه لمَ كانت محبته لها شفقة لاعجة وضرباً من الهيام المقدس... إن محبته لم تكن بسبب جمالها ، وإن كان مع ذلك أندر وأثمن ما يكون عليه الجمال الأنثوي . لقد كان لوجهها أساريره . بيد أن الأسارير تتبع الحركة وهي دائماً في هروب ، تغيب وتبدو . تُفتقد ثم توجد... مدعاة لفرح عالم الجمال تارة أو قنوط فلسفة الفن تارة أخرى... إن الأسارير الجميلة هي البرق الذي يشغل العين بالنار الآكلة اللذيذة . فأنت ترغبها... وأنت ترهبها... لأنها داعية الاعجاب ودعوة العذاب .وإن ما يحتثّ قوادم الاشتهاء والحب انما هو قوة حلوة مروعة ، أقوى من الجمال وأشد بأساً وبطشاً . فقد تجد امرأة واحدة من بين ألف امرأة اذا نلتها مرة لا تستطيع قط أن تتركها... فتشتهيها دائما ، وتريدها أبدا . إنه زهر لحمها سبب هذا الداء ، داء الحب ، الذي ليس له دواء . وهناك سبب آخر لا تفسير له ، وهو روح جسمها . إنها كانت المرأة التي لا يمكن هجرها ولا خيانتها في غيرها .

صاحت هذه اللعوب وهي طروب :

ـ قل! أليس هجري غير ميسور ؟

ثم سألته ، ما باله لا يصنع تمثالها النصفي مادام حسنها يروقه .

ـ لماذا ؟ لأنني لست إلاّ مثّالا متوسطا ، كما أعرف ، وليست معرفتي بهذا من عقل متوسط! على أنك إذا أصررت على اعتباري مثّالا عظيما فلدي

أسباب أخر . فلكيما يخلق شكل فيه نسمة الحياة يجب معاملة المثّال باعتباره مادة دنيئة تُسحق وتُسبك حتى يُستخرج منها أو في معاني جمالها . وليس في شكلك ولا في جسمك ولا في كيانك كله إلا ما هو عزيز عليّ . فاذا أخذت في صنع مثالك ، أتنبه انتباهاً خسيساً الى هذه التوافه ، التي هي عندي كل شيء ، لأنها شيء منك . لا طاقة لي بذلك ، ولا حيلة لي في الوصول الى استكمال التناسب ، وهو قوام العمل .

فنظرت اليه بشيء من الدهشة ، فاستطرد قائلا :

ـ ولا أقول إن الحال يكون كذلك إذا كان النقل عن الذاكرة ولقد حاولت الرسم بالقلم الرصاص محاولة أحملها معي على الدوام...

فلما أصرَّت على رؤيتها ، أراها إيّاها . وكانت على ورقة من «ألبوم» تخطيطاً بسيطاً جريئاً . فلم تعرف فيه صورتها أصلا ، ووجدته خشناً ، ذا ملامح غريبة عنها... فأنكرتها :

ـ آه! أهكذا تراني ؟ أهذا مبلغ تأثيري فيك ومبلغ إيحائي ؟ فأطبق «الألبوم» قائلاً :

ـ كلا ، ان هذه محض تذكرة ، إنها سمة ،ليس إلآ... بيد أني أظن السِمَة صادقة .ومن المحتمل انك لا ترين نفسك مثلما أراها تماماً . فلكل كائن ذاتية تختلف باختلاف من ينظرون اليه .

وأردف بضرب من الابتهاج :

ـ ويمكن القول ، من وجهة النظر هذه ، بأن المرأة ذاتها لا تكون قط خليلة رجلين . وهذا رأي بول فانس .

فقالت «تريز» :

ـ هذا صحيح!

ثم سألت :

ـ ماالساعة الآن ؟

كانت السابعة ، فاستعجلته في الخروج فهي في كل مساء يزداد

تأخيرها في عودتها الى البيت . ولاحظ ذلك زوجها ، فقال :

«إننا دوماً في كل عشاء آخر من يصل... وهذا كتابٌ محتوم! » لكنه هو نفسه كان كثيراً ما يتأخر ، لما يعوقه في قصر البوربون (مجلس النواب) حيث كانت الميزانية . وقد شغله عمل اللجنة الفرعية التي عُيِّن مقرراً لها . وهكذا غطت الاسباب الحكومية على عدم مواظبة «تريز» . وتذكرت مبتسمة مساء وصولها الى دار «مدام جران» في منتصف الساعة التاسعة ، وكانت تخشى حدوث مالا تحمد عقباه ، على أن ذلك اليوم كان يوم الاستجواب العظيم في البرلمان . فعاد زوجها من المجلس في الساعة التاسعة بصحبة «سجزان» . وتعشيا دون أن يغيرا ملابسهما . وقد أنقذا الوزارة ! ثم راحت تفكر وتقول :

لن أجد يا حبيبي عذراً انتحله للبقاء في باريس اثناء العطلة البرلمانية ، فأن أبي لا يفهم الآن الولع الذي يستبقيني هنا ، ولا مفرَّ من اللحاق به في «دينار» في خلال ثمانية أيام . فما عسى أن يكون حالي بدونك ؟

وشبكت يديها نظرت اليه بخزن لاحدَّ لحنانه ، لكنه كان أشد اكتئابا بل كان من أمره في غُمَّة لامتجه للرأي فيها ، فقال : إنه أنا ياتريز ، أنا الذي يجب أن أسال نفسي ما يكون مصيري من غيابك... إنك عندما تتركيني وحدي ، تحاصرني الخواطر المحزنة ، وتزورني الأفكار السود فتحف من حولي .

فسألته ، وما هذه الأفكار ؟ فأجاب :

انني يا حبيبتي قدقلت لك ذلك من قبل ، إنه يجب أن أنساك فيك ، فاذا ذهبت عني ، جاءت ذكراك تعذبني ، وعليَّ عدلاً أن أؤدي ثمن ما تمنحينني من سعادة .

٢٨

كان البحر الأزرق ، الذي تتخلّله شعب وردية اللون ، يصب لجته الفضية برفق على رمال الساحل الناعمة الممتدة على طول الجون المنتهي بشبه قرنين من ذهب...

وكان اليوم صحواً ، حَسَرت فيه الشمس قناعها وذكت ذكاء... وفي حجرة تعطرها الزهور ،ذات شرفة مطلة على حديقة يفح منها أريج الإثل والآس ، ووراءها المحيط بشاطئه وجزره وخلجانه جلست «تريز» تقرأ الرسائل التي ذهبت في طلبها في الصباح من مكتب بريد «سان مالو» ولم تشأ أن تفتحها في المعدّية الغاصة بالركاب...

وقامت بعد الغذاء من فورها فأوصدت حجرتها على نفسها ، ثم نشرت رسائلها على ركبتيها وقرأت متلفهة ، متذوقة بسرعة شرهة فرحها المختلس المنهوب... وكان عليها في الساعة الثانية أن تخرج للنزهة في عربة البريد مع أبيها وزوجها والأميرة «سينافين» «ومدام برتيه ديزل» زوج النائب المعروف ، «مدام رايمون» زوج عضو الأكاديمي ، وكانت قدتلقت في ذلك النهار خطابين ، تلت أولهما فكان يتضوّع منه عبير فرح الهوى ، ولم يلح لها «جاك» قط أشد مما لاح منه فَرَحا وبساطة وهناء وفتنة...

فقال انه مذ أحبها وهو يسير بخفة ورفعة الى حد أن قدميه تكادان لا تمسان الأرض... وماكان جزعه إلا لشيء واحد ، هو أن يكون حالماً ، فإذا

استيقظ ألفى نفسه مجهولا منها... أجل! أنه لابد حالم! وأي حلم! بيت شارع الفييريا الصغير ، وحانة ميدون ، والقبلات ، وذانك الكتفان الآلهيان ، وكل ذلك الجلد الذي يضحك فوقه «طابع الحسن» ، وذلك البدن الرَّخص الرطب المعطَّر كجدول يسيل بين الأزاهير . فاذا لم يكن حالما ، فهو النؤوم المستيقظ... السكران الذي يغني...

ولقد خرج لحسن الحظ من عقله ، وكانت على غيابها لا تفارق بصره : «أجل ، إنني أراك بقلبي ، وأرى أهدابك مرسلة على عينيك أشد بهاءً من كل زرقة في الزهر أو في السماء... وشفتيك اللتين لهما لحم وطعم أشهى من الفاكهة العجيبة ، وخديك اللذين وضع الضحك فيها غمَّازتين معبودتين . أراك جميلة ، مشتهاة ، لكنك هاربة مختفية ، فاذا فتحت ذراعيّ ، وجدتك قد ذهبت ، وتبينتك بعيداً ، بعيداً جداً على الضفة الصفراء الطويلة ، لا تزيدين وأنت في ثوبك الوردي وتحت مظلتك على برعم مزهر من الخَلَنج . أوَاه!... صغيرة ، كما رأيتك يوماً من قمة برج الناقوس المشرفة على ساحة القبة بفلورنسا : وأقول كما قلت يومها لنفسي : «ان قشّة من العشب تكفي لحجبها عني تماماً ، ومع ذلك فهي عندي أبدع الفرح والترح» .

وكان كل ما يشكو منه عذاب البعاد ، وكذلك مزج بشكواه بسمات الحب الهنيء . .وهددها ممازحا بالذهاب لمباغتتها في «دينار»...

«لا تخافي!... فلن يعرفوني... فسأتنكر في زي بائع تماثيل جص . وليس في هذا افتآت . وسأرتدي سترة رمادية وسروالا من الكتان ، يغطي لحيتي ووجهي عثير أبيض ، وسأقرع جرس الباب الخارجي لفيلا مونتسوي . فتعرفينني يا تريز من التماثيل الصغيرة التي تملأ لوحا أحمله على رأسي . وستكون كلها تماثيل«الحب» . فيكون فيها الحب الوفي ، والحب الغيور ، والحب العطوف ، والحب المتيم . وسيكون معي الكثير من تماثيل الحب المتيَّم . وسأصيح بلهجة فناني «بيزا» أو «فلورنسا» قائلاً :

« كل حبي للسنيوره تريزه »

وكانت آخر صحف هذا الكتاب رقيقة جامعة ، وقد فاضت بالتعبدات الحارة التي أذكرت « تريز » كتب الصلوات التي طالعتها وهي طفلة .

« أحبك ، وأحب كل شيء فيك : الافاريز التي تحملك ، وتجملك . والنور الذي عليه أتبينك : أحب شجرة الجنّار المنحنية في ساحة بيتي ، لأنك قد رأيتها... وليلة تنزهت في الطريق الذي لقيتك فيه مساء يوم من أيام الشتاء ، قطفت غصناً من البقس الذي كنت قد نظرت اليه... اني في هذه المدينة التي لا تحتويك لا أرى سواك . فلم يَحْلُ للعينين بعدك منظرًا! » .

وقال لها ختاماً ، إنه سيذهب للغداء خارجا فان الحَلّة قد كُفنت في غياب مدام « فوزليه » التي ذهبت الى « نيفير » مسقط رأسها ، وسيذهب الى حان في شارع رويّال اعتاد التردد عليه . وهناك ، وسط لجب الجمهور ، سيكون وإياها على انفراد!... » .

فذهب فؤاد « تريز » في أثناء هذه الملاطفات الخفية ، فأغمضت عينيها ونكست رأسها على مضطجعها .

وإذ سمعت دوي عربة البريد وهي آتية تقف بالباب ، فتحت الخطاب الثاني ، فقلقت لما رأت من تغير الخط ، وطلوع السطور ونزولها ، وأبصرت الصفحة تشف عن حزن وعنف . وكانت الفاتحة الغامضة تنمّ عن غصة باغتة ، وشكوك مظلمة... « تريز! تريز! تريز! لماذا كنت لي مادمت غير قادرة على موهبة نفسك كلها بأسرها ؟ ماذا يكون أمري وقد خدعتني ، الآن إذ أعرف مالم أكن أشاء معرفته ؟ » .

فتوقفت .وضربت على بصرها غشاوة ، وقالت في نفسها : لقد كنا الآن سعداء حقَّ السعادة! ربّاه ماذا جرى ؟ كنت أنعم بفرحه فاذا به أثر بعدعين! فالأولى عدم الكتابة ، مادامت الرسائل لا تعبر الآ عن مشاعر زائلة وخواطر حائلة .

ثم قرأت . ورأت أنياب الغيرة تمزقه شر ممزق . فقنطت وقالت :

ـ اذا لم أكن قد برهنت له بكل قواي على محبتي وعلى انني أحبه بكل نفسي ، فكيف الى إقناعه يوما ؟

وخفّت الى استجلاء سبب هذه الحماقة الداهمة... فأخبرها بها «جاك» :

«بينا كان يتغذى في حان بشارع رويال التقى صاحبا قديماً ماراً بباريس فبدآ يتحادثان ، وشاءت المصادفة ان هذا الرجل الواقف على دخائل الناس ، يذكر الكونتس مارتن التي يعرفها ، وقطع جاك حديثه فجأة بقوله : تريز! تريز! فيم الكذب علي مادمت سأعرف حتما يوماً ما كنت أجهله وحدي! على أن الذنب ذنبي اكثر مما هو ذنبك...خطابك الذي وضعته في صندوق بريد سان ميكيل ، وموعدك في محطة فلورنسا قد أنذراني بما فيه الكفاية ،لو اني لم استسلم استسلاماً أعمى الى أوهامي ، مع جلاء البينة ونصاعة البرهان... فقد أبيت ، نعم قد أبيت معرفة أنك كنت لرجل آخر في اللحظة التي تعطينني فيها نفسك بذلك اللطف الجسور ، ذلك الاشتهاء الكامل الذي سألقى منه حتفي... لقد آثرت التجاهل... ولم أسألك تفسيراً خشية الا تجدي سبيلا الى الكذب . وكنت فطنا حتى جاء أحمق على حين غفلة ، وفي غلظة ، وأمام خوان مطعم ففتح عيني وعرفني به وأنفي راغم ! أواه! الآن إذ أعرف ، الآن إذ لا أجد بعد محلا للشك يخيل الي أن الشك كان لذيذاً! وقد فاه بالاسم ، الاسم الذي سبق أن طرق سمعي في فييزول ، على لسان «مس بل» ، وأردف قائلا :

«تلك حكاية معروفة» .

«أكذا أحببته ، ومازلت على حبه! وفي حين أني وحدي ؛ أعض الوسادة التي توسَّدها رأسك ، قد يكون هو بقربك! ليس ريب في أنه بقربك! فهو يذهب دائما الى سباق الخيل في دينار ، كما قيل لي . اني أرى كل شيء! ولو عرفت التصورات التي تلازمني لرميتني بالجنون ، ولأشفقت علي ورثيت لحالي ، أواه!الشد ماأتمنى نسيانك ، أنت ،نسيان كل شيء! لكنني لا أستطيع . وأنت تعرفين انني لا أستطيع أن أنساك الا بك... اني أراك ملازمة له

كظله... فيا للعذاب! حسبت نفسي تعساً في تلك الليلة ، التي تعرفين ، على شاطىء الأرنو... لكني حينذاك لم أكن عرفت بعد معنى الألم» .

ولما فرغت «تريز» من قراءة هذه الرسالة ، ناجت نفسها قائلة : «إنها كلمة ألقيت اتفاقاً فأدّت به الى هذه الحال . إنها كلمة رمت به في ظلمات القنوط ومهاوي الجنون...» .

وتساءلت عمن يكون ذلك الشقي الذي ذكرها بمثل ذلك السوء . واشتبهت في شابين أو ثلاثة كان قد قدمهم لومنيل اليها فيما مضى محذرا أياها منهم... وأصابتها نوبة غضب قارصة من تلك النوبات التي ورثتها عن أبيها ، وقالت لنفسها «سأعرف!» لكن ماذا تفعل في فترة الانتظار ؟ إن صاحبها كان آيسا مهووساً مريضاً وليست تستطيع الاسراع اليه ، ، ومعانقته ، وإلقاء نفسها بين ذراعيه تاركة جسمها وروحها له باستسلام تام الى حد يشعر معه أنها كانت له بأسرها ،إلى حدّ أن تكرهه على الوثوق بها...

تكتب!... لكن ما أفضل الذهاب اليه ، والسكون الى فؤاده في صمت ، وبعد ذلك تقول له : أتجرؤ على الظن بأني لست لك وحدك!

بيد أنها لا تستطيع غير الكتابة اليه ، وما بدأت رسالتها حتى سمعت أصواتا وضحكات في الحديقة وكانت الأميرة سينافين تصعد عربة البريد ، فنزلت تريز ، وظهرت على الدرج هادئة باسمة . وكانت قبعتها المتخذة من القش متوجة بالاقاحيّ ، تلقي على محياها ظلا شفافا تتألق فيه عيناها الرماديتان...

فصاحت الاميرة سينافين :

ـ الله ما أبدعها! ويا أسفا لي أننا قلما نراها! ففي الصباح تعبر النهر وتقفز الى شوراع «سان مالو» الضيقة... وفي الأصيل تقصر نفسها في حجرتها ، فهي تتجنبنا .

●

درات العربة حول دائرة الساحل الكبرى أمام الفيلات والحدائق المصفوة على سفح الأكمة ، وكان الى اليسار أسوار «سان مالو» ومنار كنيستها كأنه ناتيء من البحر الأزرق . ثم مرت العربة بطريق موشى بالشجر النضر كانت تسير فيه نساء من «دينار» على رؤوسهن قلانسهن الكبيرة ذوات الأجنحة المهفهفة من «الباتيستة»

فقالت مدام ريمون ديزل :

ـ لقد ذهبت الأزياء القديمة ، والذنب ذنب سكة الحديد!...

فقالت مونتسوي :

ـ حقا ، فلولا سكة الحديد لظل الفلاحون يرتدون ملابسهم القديمة البديعة... لكننا ماكنا لنراهم...

فأجابت مدام ريمون :

ـ وأي ضير في ذلك! انّا كن نتخيلهم!

فسألت الأميرة سينافين :

ـ أرأيت مرة ما يدعو الاهتمام ؟ أما أنا فما رأيت قط!

وكانت مدام رايمون قد اكتسبت من مؤلفات زوجها لمحات فلسفية ، فأكّدت أن ما من شيء له وزن الاّ الفكر .

فتمتمت الكونتس مارتن قائلة :

ـ نعم! ان الناس لا يرون الاّ رأيهم ولا يتبعون إلا فكرهم... ويمضون عمياً وكأن في آذانهم وقرا ، فهم لا ينظرون ولا يسمعون ، وليس من يستطيع أن يوقفهم .

فقال الكونت مارتن ، الجالس قبالتها الى جانب الاميرة :

ـ لكن المرء يا عزيزتي ، بغير الافكار المرشدة ، يخبط في حياته خبط عشواء...

●

وقطعت العربة المروج المحفوفة بالصفصاف ودرجت صعداً في الآجام... ثم عادت بهم الى القصر . فاعتذرت تريز بأنها تشعر بصداع فلا تستطيع تناول الغذاء . وذهبت فاحتجزت نفسها في غرفتها ، وأخرجت من صندوق حليها الخطاب المحزن وأعادت تلاوة الصفحة الاخيرة :

«ان فكرة أنك كنت لغيري تحرقني وتمزقني . وكذلك لا أحتمل أن يكون الغير هو ذاك!...» .

تلك كانت فكرة ثابتة تلازمه . وقد كرر ثلاثا ، في الصفحة الواحدة ، هذه الكلمات .

«ـ لا أحتمل أن يكون هو ذاك!» .

وكانت تريز ايضاً مأخوذة بفكرة واحدة : هي أن عليها الاّ تضيعه . وأن تقول كل شيء وتفعل كل شيء حتى لا تفقده . فجلست الى المنضدة وكتبت في سورة عاطفة مشبوبة ملؤها الشجون ، رسالة كررت فيها القول كالنواح :

« إني أحبك ، أحبك ، ولم أحب أصلا سواك . انك وحيد وحيد ، أفاهم انت ؟ وحيد في فؤادي ، وحيد فيّ! فلا تستمع قول ذلك الشقي واستمع قولي . واقسم لك انني لم أحب إنساناً قبلك» .

وبينا هي تكتب ، كانت زفرات البحر المهولة تصاحب تنهدات صدرها . وقد أرادت أن تكتب الحقيقة ، واعتقدت انها تكتبها ، وكان كل ما قالته صادقاً بصدق حبها . وسمعت وقع اقدام أبيها الثقيلة الثابتة على السلم . فأخفت رسالتها وفتحت الباب . فسألها مونتسوي وهو يدللها ويملقها ، أليست أحسن حالا . وأردف قائلا :

ـ أتيت أمسيّك بالخير وأسألك شيئا . يحتمل أن ألقى غداً «لومنيل» في سباق الخيل لأنه يذهب هناك دوماً ، فهو رجل صارت عاداته طبائع ثابتة . أفترين إذا لقيته يابنيتي الحبيبة أن أدعوه الى المجيء ليقضي بضعة ايام هنا ؟ فزوجك يظن انك تسرين برؤيته .

ونستطيع أن نعد له الحجرة الزرقاء .

ـ كما تشاء . غير أنني أؤثر أن نحتفظ بالحجرة الزرقاء «لبول فانس» ، الشديد الرغبة في الحضور . كما يحتمل أن يأتي شولت دون سبق اعلان ، فتلك من عاداته . فلا نلبث أن نراه ذات صباح يدق جرس الباب الخارجي كأنه شحاث . وزوجي مخطئ في زعمه انني أستطيب عشرة لومنيل . دع أن لديّ في الاسبوع القادم ما يستدعي ذهابي الى باريس لقضاء بضعة ايام .

٢٩

بعد أربع وعشرين ساعة من تحبير تريز خطابها الى «دي شارتر» ، وصلت من «دينار» الى بيت «دي شارتر» الصغير في حي «لوترن» . ولم تجد عناء في اختلاق عذر لذهابها الى باريس وسافرت بصحبة زوجها الذي أراد زيارة ناخبيه بولاية «الاين» . فبغتت جاك في مشغله صباحاً ، بينا كان يصور صورة كبيرة لفلورنسا على شاطئ الارنو تبكي مجدها القديم . وكان المِثال فتاة طويلة سمراء ، متخذة مكانها على كرسي مرتفع كثيراً بلا مسند وكان الضوء الساقط من النافذة على جسمها العاري قد زاد جلاء تقاطيعها وخشونة بشرتها وشحوب جلدها وعروق صدرها...

فاستقبل «دي شارتر» الزائرة بنظرة ملؤها الغبطة الحزينة ، ووضع أداء الرسم جانباً ، وغطى الصورة بنسيج مبلل ، وقال للفتاة المثَال وهو يغسل يديه في آنية خزفية :

ـ حسبنا اليوم يا ابنتي .

فوثبت الى الارض ، وجمعت في قبضة ثيابها القذرة ، وقامت وراء الستر ترتديها .

ثم خرج «دي شارتر» و«تريز» من المشغل ، فقالت :

ـ انك لم تعد عند ظنك ، أليس كذلك ؟

فسار بها الى حجرته . وكان خطابها الذي ارسلته من «دينار» قد

خفف نوعاً من وساوسه الأليمة . وقد أتاه في عين اللحظة التي نهكته فيها الأوجاع المضنية ، فكان محتاجاً إلى الهدوء والحنان . فكتابة بضعة سطور قد سكّنت فائرة وأخمدت ثائرة... ولكن مازال في قلبه لوعة وفي جسمه ضنى .

وفي الحجرة ، حيث يحادثها كل شيء ، وحيث الأثاث والستائر والبسط تبوح بجبها ، همست بألفاظ حلوة معسولة :

ـ إنك قدرت على الظن . فلست إذاً عارفاً قدر نفسك ؟... انها حماقة! كيف يسع امرأة عرفتك احتمال رجل بعدك ؟

ـ وقبل ذلك ؟

ـ كنت من قبل في انتظارك!

ـ أو لم يكن في سباق «دينار» ؟

فقالت إنها لا تظن ذلك . ولكن المؤكد انها لم تكن هي هناك... فما أثقل ما تجد الخيل ورجل الخيل!

ـ جاك! لا تخش انسانا في العالمين فما لك من قرين! أما هو ، فعلى الضد من ذلك ، قد تصاغرت عنده نفسه ، وتضاءل في نظره شأن الانسان في هذه الدنيا حيث الخلائق تضطرب كأنها الحبوب والتبن في المنسف ، تتصل أو تنفصل بهزة من فلاح أو من إله... وبدا أن الناس كالحبوب في حوض طاحون البن وقد خطر له ذلك أول من أمس حيال رؤيته مدام فوزلييه تطحن بنّها فقالت تريز :

ـ لم حُرمتَ الكبرياء ؟

وأردفت كلمات قليلة ، لكنها تكلمت بلحظات عينيها ، بذراعيها ، بالأنفاس التي يعلو وينخفض بها صدرها...

وفي غمرة الدهشة السارة من رؤيته إياها ، وسماعه صوتها استسلم اليها وخفض جناح المحبة . فسألته عمن قال ذلك القول الحقود . فلم يجد داعياً لأخفائه عنها ، فذكر «دانيل سلمون» فلم تدهش لأن دانيل سلمون

هذا الذي أخفق في أن يكون محبوب أية امرأة أراد على الأقل أن يحظى بمودة جميع النساء وأن يعرف اسرارهن . فحزرت السر في كلامه عنها ، فقالت :

ـ جاك! لا يغضبنك ما سأقوله لك ، انك لست ماهراً في اخفاء عواطفك أنك تهواني ، وأراد أن يتحقق . واني واثقة من أنه الآن لا يخالجة أي شك في علائقنا ، لكن سيان عندي ، فلست ألقي الى ذلك بالاً ، على الضد لو أنك كنت أمهر في الخديعة لكنت أقل اطمئنانا ، ولظننت أنك لا تحبني كفاء حبي .

ثم أسرعت فغيرت الموضوع خشية أن تساوره الشجون فقالت :

ـ لم أحدثك عن مبلغ اعجابي بصورتك... انها فلورنسا على ضفة الارنو ، فهي أنت وأنا!

ـ نعم ، لقد وضعت في هذه الصورة لوعة غرامي . انها حزينة ، وأردت أن تكون جميلة ، فتأملي يا تريز أن الجمال حزين . وهذا هو السر في انني مذ صارت حياتي جميلة ، جعلت أتألم .

وبحث في جيب سترته الفلانلا وأخرج علبة سجائره . لكنها استحثته على ارتداء ملابسه ، على أن تأخذه الى بيتها ليتغدى عندها . فلا يفترقان سحابة نهارهما وفي هنائهما . ونظرت اليه بفرح الطفلة . ثم مرت بها غمة ، إذ تذكرت أن عليها الرجوع الى «دينار» بعد اسبوع ثم الذهاب الى جوانفيل ، وأنهما في خلال هذا الزمن يضرب الفراق بينهما . وستسأل والدها أن يدعو صاحبها الى جوانفيل لتمضية بضعة ايام فيها لكنهما لن يجدا هناك المجال لحريتهما وانفرادهما كما يجدانه في باريس . فقال :

ـ صدقت ان باريس بلا نهايتها المبهمة خير لنا .

وأضاف :

ـ حتى في غيابك ، لا أستطيع مغادرة باريس . فأمقت السكنى في بلاد لا تعرفك . فأن سماء وجبالاً وأشجاراً وجداول وعيونا وأنصابا لا تقدر على التحدث اليَّ عنك ليس لديها ما تقوله لي!

وبينا كان يرتدي ثيابه ، قلبت صفحات كتاب وجدته على المنضدة ، وكان «الف ليلة وليلة» ، مزينا بصور خيالية لمن جاء ذكرهم في أثنائه من وزراء وسلطانات وخصيان سود وأسواق وقوافل . فسألته :

ـ أيروقك «الف ليلة وليلة» هذا ؟

ـ كثيراً ، فاني اذا شئت اعتقدت بأولئك الامراء العرب الذين حالت سيقانهم رخاماً أسود ؛ وبنساء الحريم اللواتي يجسن دوماً خلال المقابر في دجى الليل... هذه القصص تلقي إلي أحلاماً سائغة تنسيني عبء الحياة... ولقد ذهبت مساء أمس لأنام وبي حزن شديد ، فقرأت في فراشي حكاية القلندريات الثلاث العور .

فعتبت عليه بقولها :

ـ أنت تنشد النسيان! أما أنا فوالله ماتطيب نفسي بشيء في الدينا عن ذكر ألم أصابني منك...

ونزلا الى الشارع ،على أن تركب عربة بعدقليل فتصل بها الى بيتها قبيلة بضع دقائق . قالت :

ـ إن زوجي ينتظرك على الغداء .

وتكلما في الطريق عن أمور توافه ، بدت لهما على نور حبهما عظيمة القدر لذيذة الأثر . وربّما أصيل يومهما بحيث يقضيانه مستسلمين الى الأفراح الفائقة والمسرات الحاذقة . واستشارته في ثيابها وزينتها . ولم تعزم بعد على فراقه ، سعيدة بسيرها معه في الطريق التي ملأتها الشمس بنورها في الظهر البهيج .

ولما بلغا شارع لوتيرن وجدا أمامهما صفاً من الحوانيت العارضة بضائعها بوفرة... فكنت ترى سبح الطيور بباب بائع الكباب كما تجد صناديق المشمش والخوخ وسلال العنب وأكوام الكمثرى عند بائع الفاكهة . وكانت عربات الفاكهة والأزهار تحف بالرصيف . وفي مطعم زجاجي الصدر كان رجال ونساء جالسين يتناولون طعام الغداء ، فعرفت تريز بينهم «شولت»بمعزل عن الناس الى خوان صغير ، يشعل غليونه...

فلما رآها ألقى على الخوان في خيلاء قطعة ذات مائة دانق ، ثم نهض مسلماً وكان شديد الرازنة وأظهرته بذلته الرادينجوت الطويلة مظهر الحشمة والتقوى . فقال إنه يود أن يزور الكونتس مارتن في دينار لولا أن استبقته المركيزه دي ريو في فانديه وأعاد في تلك الأثناء طبع كتابه «البستان المغلق» مضيفاً اليه «روضة القديسة كلير» ، فأثر في القلوب التي كان يظن فيها الصلابة ، وفجّر الصخر عيوناً... وقال :

ـ وبذلك كنت من أحزاب موسى!

ثم ضرب في جيبه وأخرج من محفظته خطاباً قذراً وقال :

ـ هذا ما كتبت إليّ به مدام رايمون قرينة عضو الأكاديمي واني أنشر كلامها لأنه ثناء عليها!

ثم فضّ الوريقات الرفيعة ، وقرأ :

«ـ لفتُّ نظر زوجي الى كتابك فصاح : «هذا تصوّف خالص!وهذي حديقة مسوّرة ، في رأيي أنه يجب أن يكون بين زنابقها وورودها البيض باب صغير يؤدي الى الأكاديمي»!

ولما تذوق شولت طعم هذه الأقوال في فمه ممزوجاً بطعم الرحيق ، طوى الخطاب بعناية وأودعه محفظته .

فهنأت الكونتس مارتن الشاعر على أنه مرشح مدام رايمون ، وقالت :

ـ ستكون مرشحي يا مسيو شولت اذا عنيتُ بانتخابات الأكاديمية . لكن أترغب حقاً في عضوية المجمع العلمي ؟

فلزم الصمت بضع لحظات بوقار ثم قال :

ـ اني ذاهب يا سيدتي لأتباحث في هذا الصدد مع أعيان السياسة الذين يقطنون «نوايي» . والمركيزه دي ريوتحيثن على الاسراع الى الوقوف بجانبها كمرشح لعضوية مجلس الشيوخ في مقعد خلا بوفاة شيخ هرم قيل أنه كان قائداً بينا يحيا حياة الوهم تلك... وأنا ذاهب الى بوليفار «بنوه» لأستشير القسوس والنساء والأولاد في هذا الخصوص... أيتها الحكمة الأزلية!

وأشار بعصاه صوب « نوايي » قائلا :

ـ دي شارترا يا صديقي! أفليس ذاك « بوليفار بنوه » الذي يثور منه التراب الى اليمين ؟

فقالت تريز :

ـ الى الملتقى « يا مسيو شولت » ، لا تنسني اذا ما صرت عضو مجلس الشيوخ!

ـ أي سيدتي! انني أذكرك في صلواتي ، سواء التي منها بالعشيّ أو الأبكار... وأقول لله تعالى : « سبحانك رب إذ وهبتها في سخطك وغضبك المال والجمال ، فاكلأها بعين رأفتك ، واشملها برحمتك في كل حال » .

ثم مضى على وجهه وهو يعرج بصلابة في الشارع المزدحم .

٣٠

نزلت تريز الدرج مع دي شارتر وهي متدثرة بدثار ورديّ اللون ، وكان قد وصلا إلى جوانفيل في ذلك الصباح ، لأنها عملت على إلحاقه بجماعة الأصدقاء الأخصاء قبل حلول موسم الصيد خشية أن يُدعى «لومني» الذي غابت أخباره عنها ، كما جرت العادة بدعوته كل عام ، وهبَّ نسيم سبتمبر العليل فداعب خُصل شعرها ، وجعلت الشمس الجانحة الى المغيب عينيها العسليتين تألقان ببريق من ذهب...

فأشارت تريز الى نصب في الحديقة يمثل عذراء من عذارى الغاب ، وقالت :

ـ لقد راقبْتني إذ كنت طفلة وتقت الى الموت... وكنت نهباً مقسما بين الخوف والشهوة . وكنت في انتظارك . لكن ما كان أبعدك عني!

ثم أشارت الى ممشى يبدأ من البحيرة حتى يغيب في الريف من ناحية المشرق . وقالت :

ـ هذا ممشاي ، ما أكثر ماسرت فيه حزينة الفؤاد ، فاني كنت قبلما عرفتك حزينة...

وساقتهما الحاجة الى الظل والعزلة إلى مسلك من الخمائل والأدغال... لكن وقع خطى آتية من الممشى المغطَّى وقفهما لحظة . فرأيا من خلال ورق الشجر« مونتسوي» مطوقا بذراعه خصر الأميرة «سينافين» وهما يسيران

بهدوء تام نحو القصر . فاختفى جاك وتريز وراء تمثال ضخم حتى مرا... ثم قالت لدي شارتر الذي كان ينظر اليها صامتاً :

ـ فهمت الآن لم كانت الأميرة سينافين في هذاالشتاء تستشير أبي في شراء الخيل...

ومع هذا فلم تستطع إخفاء أعجابها بأبيها لنيله هذه المرأة الجميلة المشهورة بالغنى على الأزمات العارضة نتيجة سرفها الجنوني .

وسارت وجاك في روضة القصر الغناء ، ببحيرتها المصقولة المياه وسمائها المجلوّة كالمرآة ، ، وممشيها المنمقة ، وتماثيلها المرمرية ، وأشجارها الباسقة ، ثم اجتازاها إلى الغابة ، في صمت وسكون ، يسودهما حفيف ورق الشجر الخفيف وأسبلت الأشجار الزمرد ، وامتدت أدغال الحور ، تضيء لحاءَها الشاحب أشعة الشمس الأخيرة .

فضغطها بين ذراعيه . وأمطر جفنيها قبلات . وانحدر الليل من السماء فارتجفت الدراري الأولى متألقة بين الأغصان ، ونقيق الضفادع يصعد من العشب المبلول... فوقفا ولما عادت أدراجها بصحبته الى القصر ، في دجى الظلام ، كان لا يزال على شفتيها طعم القبل ، وفي عينيها صورة حبيبها الذي استند الى جذع صفصافه ، فكان كإله الحقول عند القدماء ، بينا حملها بين ذراعيه ، ويداها تطوقان عنقه ، وقد أغمي عليها غلمة واشتهاء...

وابتسمت تحت ظلال الزيزفون لعذارى الغاب اللواتي رأين دموع طفولتها ، والقمر يذر قرنه الفضي في حوض البحيرة ، والهوام تغني في الكلأ أغاني الحب... واستبان جاك وتريز كتلة القصر السوداء تبدو من خلال نوافذ دوره الأرضي ، على النور الأحمر ، أشكال تتحرك... وقرع الجرس مؤذناً بميقات العشاء . فصاحت تريز :

ـ ليس لي من الوقت الا ما يكاد يكفي لتغيير ثوبي .

وهربت من حبيبها ، أمام الأُسود الحجرية ، وسرعان ما اختفت عنه

وخلّفت له رؤيا «عروس الماء» أو «عذراء المغاور والجبال» في أساطير القدماء .

●

جلس مسيو «برتييه ديزل» في البهو بعد العشاء يطالع جريدة ، وأقبلت الأميرة سينافين على منضدة اللعب تستنبئ الورق عن بختها ، وأغمضت تريز على كتاب عينيها بعض إغماض... وهي مابرحت شاعرة نخسات في كعبيها من الأشواك التي خدشتها في الأدغال... وتذكرت في رجفة صاحبها الذي أخذها في الغابة كإله الحقول يلاعب البتول . فسألتها الأميرة سينافين أيروقها كتابها الذي تطالعه... ؟

ـ ما أدري ؟ اني كنت أحلم بينا أقرأ ، وقد أصاب بول فانس كبد الحقيقة بقوله «إنَّا لا نجد في الكتب غير أنفسنا» .

وكانت تسمع من وراء السجوف أصوات اللاعبين وصدمات الكرات آتية من قاعة البلياردو .

ثم قالت تريز إنها تلقت رسالة من فييزل أعلنت اليها فيها «مس بل» زواجها من الأمير أيوزبيو البرتنلي دلاسيينا! فجعلت الأميرة سينافين تضحك وتقول «ذلك رجل سيسدي إليها خدمة عظمى» فسألتها تريز :

ـ وما هذه الخدمة ؟

ـ هي أن تنبو عنها وايم الحق أنظار الرجال!

ودخل مونتسوي البهو وبه مراح شديد . فقد رجحت في اللعب كفته . واقترب من ابنته قائلا :

ـ جاءني خطاب غريب من لومنيل .

فذهبت تريز فأقفلت الباب الفاصل البهو عن قاعة البلياردو قائلة إنها تخشى تيار الهواء...

فاستطرد مونتسوي قوله :

ـ خطاب غريب ، ومحصّله أن لومنيل لن يحضر الصيد في جوانفيل ، وقد اشترى يختاً حمولته ثمانون طناً اسمه «زر الورد» وهو يمخر به عباب البحر الأبيض المتوسط ، ولا يريد بعد العيش على غير سطح اليم . وهذا من دواعي الأسف ، فانه الرجل الوحيد الذي يعرف كيف يقود الصيد...

وفي تلك اللحظة دخل دي شارتر البهو مع الكونت مارتن الذي بعد أن غلبه في البلياردو عدّه صاحباً ، وجعل يشرح له خطر فرض الضرائب على مصروف البيت وعدد الخدم!

٣١

سطعت شمس الشتاء من خلال ضباب نهر السين على باب غرفة المائدة في قصر الكونتس مارتن... وجلس الى يمين الكونت النائب جران حامل الأختام السابق ورئيس الوزراء كان ، والى يسارها مسيو لوبيه عضو مجلس الشيوخ ، وجلس عن يمين الكونت مارتن بليم مسيو برتيبيه ديزل . وكان غداء خاصاً سياسياً جاداً فان الوزارة كانت قد سقطت منذ أربعة أيام ، فدعي أصحابنا هؤلاء الى قصر رياسة الجمهورية «الأليزيه» في صبيحة ذلك اليوم نفسه ، وقبل «جران» القيام بتأليف وزارة . وكان اثناء تناول الطعام يعد قائمة بالاسماء ليقدمها مساء الى رئيس الجمهورية . وبينا كانوا يتناقشون في الأسماء كانت «تريز» تتذكر صور حياتها القلبية الخاصة .

فقد عادت الى باريس مع قرينها الكونت في وقت اجتماع البرلمان ، ومذ ذاك وهي تحيا حياة مسحورة...

فجاك يهواها ، وهو يهواها بمزيج مرح من الشهوة والحنان ، ومن المعرفة والفضول... وكان عصبي المزاج شديد القلق والهياج ، لكن تفاوت طبعه جعلها تقدر كثيرا حالات مرحه وفرحه ، ذلك المرح الفنان الذي يتقد فجأة كالشعلة ، يزيد في الحب دون أن يسيئه . ولم يبد لها أول عهده بها الا شغفا كئيبا مطردا لا تغيير فيه فنال ذلك وحده منها واستمالها . لكن

تكشف لها بعد ذلك عن روح مرح موفور مختلف اشكالا ، وعن رقة نادرة في التلذذ ، وعن موهبة الامتاع وإرضاء القس والجسم معا!

ثم نهضت تريز ، وتركت رجال السياسة في ثوي الأضياف وخفت الى لقاء حبيبها دي شارتر...

●

غطت الأنوار الشقراء نهر السين والأرصفة الحجرية واشجار الجنار الذهبية . وإذ خرجت تريز من قصرها تذوقت بالتذاذ عصف الريح وتمتعت مبتهجة بجلال الغروب . وهي مذ عودتها الى باريس والسعد ملازمها ، فتفرح كل صباح بتغير الطقس وترى بشعور أناني ودود حبها في كل شيء :

«في خرير الماء ، في قصف الرعود في هدير البحر ، في مر الغمام»كما تراه :

«في صهاريج البراري ، في الزهورفي الكلأ ، في التبر ، في رمل القفار» .

وكان كل نهار يطلع عليها محبباً اليها ، لأنه يحملها الى ذراعي محبها...

في ذلك اليوم ، كما في كل يوم ، إذ أخذت طريقها الى البيت الصغير في حي «لوتيرن» ، كانت تفكر في سعادتها الكاملة غير المنتظرة ، التي هي في عرفها مضمونة آمنة... وسارت في شعاع الشمس الاخير المنيف الذي لمسه الشتاء وفروعه ، تقول لنفسها :

« ـ انه يحبني ، وفي ظني أنه يحبني بمجامع فؤاده ، فإن الحب عنده أسهل واقرب الى طبيعته مما هو الى غيره من الرجال . ففي حياة هؤلاء أفكار اسمى منهم ، عقيدة أو عادات ، أو مصالح وهم يؤمنون بالله أو الواجب أو بأنفسهم ، أما هو فيؤمن بي . فأنا إلهه ، وواجبه وحياته جميعاً . ثم فكرت :

«وهو في الواقع كذلك في غير حاجة الى إنسان ، حتى ولا اليّ : فأفكاره عالم عظيم يستطيع أن يحيا فيه بسهولة حياة موفورة . لكني أنا لا

أستطيع العيش من دونه . فماذا يجري عليَّ لو أنه لم يعد لي » .

ثم سكن روعها لتذكرها إعجابه الشهواني بها ، والسحر الذي طلسمته به ونفثته فيه... وذكرت أنها قالت له يوما : «انك لا تحبني الآ حبا شهوانيا ، ولست أشكو من ذلك ، لأنه قد يكون هو وحده الحب الصادق » فأجابها بقوله : «إنه كذلك هو وحده الحب القوي والحب العظيم ، وله مقاييسه وله أسلحته . وملؤه الحس والخيال . وهو شديد وخفيّ . ومرامه الاتصال بالجسم وروح الجسم معا! وأما ما بقي فليس الأ وهماً وكذبا » .

فأهدأتها غبطتها . واستخفي ما ساورها من الوساوس والهواجس كأنه سحاب صيف تقشع... وكانت أسوأ فترة مرت بهما في حبهما عندما ضرب الدهر بينهما بسهم الفراق... وفي العشق الفراق محرم!

وفي زاوية شارع مارسو وجليليه ، تكهنت ، أكثر مما تكون قد عرفت ، بشبح ـ شبح شكل منسي ، مرَّ على مقربة منها... فظنت نفسها ، وأرادت أن تكون ، واهمة... فالذي تصورت أنها قد رأته لم يعد له وجود . ولم يكن له وجودأصلا! لقد كان شبحا لُمِحَ بمعزل ممن عالم سابق ، في ظلمات وجودوهمي... وبينا هي تطوي الشارع طيّاً ، رأت باعة الصحف يجرون نحوها جرائد المساء برؤوس عناوين ضخمة إعلانا عن الوزارة الجديدة . فاجتازت «ساحة الإيتوال» ، تحث خطاها رغبتها الملول . ورأت بعين قلبها جاك ينتظرها في صحن الدرج بين تماثيل المرمر والبرنز العارية... وقد أخذها بين ذراعيه وحملها ، بعد إذ هي مرتجفة مضناة من أثر العناق والقبلات ، الى تلك الغرفة التي ملؤها الظل واللذات وحيث رخاء الحياة أنساها الحياة!

ولكن ، في وحدة شارع مكماهون ، اقترب الشبح الذي سبق أن رأته في زواية شاع جليليه ، وظهر بقربها بوضوح شديد مؤلم : فعرفت فيه «روبير لومنيل» بعد ما اقتفى أثرها من رصفة «دوبيلي» أتى فالتقى وإياها في أهدأ وأسلم بقعة من الطريق . وانجلى شكله وحاله عن شفوف روحه الذي

راق تريز يوما من الايام... ولوح الشرد والبحر وجهه الخشن بطبيعته فكسواه سمرة ونحفا قليلا ، وعليه هدوء يُخفي ويبدي علامات الالم العميق...

ـ لي كلام معك .

فأبطات في سيرها ، فمشى الى جانبها ، وقال :

ـ حاولت أن أسلوك وأنساك ، وهو أمر طبيعي بعد الذي كان... أليس كذلك ؟ ولم أدخر جهداً في هذا السبيل لي الحق فلم يكن خيرا من نسيانك . بيد أنني لم أستطع... فاشتريت يختا وأبحرت به ستة اشهر . ولعلك تعرفين ؟ فأشارت بأنها عرفت . فاستطرد :

ـ إن « زر الورد » يخت جميل ، حمولته ثمانون طنا ، وكان عندي من الملاحين ستة رجال ، فاشتغلت معهم ، وهذا ألهاني .

ثم سكت ، وكانت تسير الهوينا ، محزونة ضجرة . فقد كان عندها سخافة من كل وجه ومدعاة للألم أن تصغي الى هذا الحديث العَجَب . واستطرد :

ـ غير أنني أخجل من إخبارك بالعذاب الذي لقيته على ظهر هذا اليخت...

فأحست أنه يقول حقاً ، وأشاحت عنه بوجهها .

ـ أوه ؛ اني أسامحك ، فقد فكرت طويلا ، في وحدتي ، وقضيت الليالي والايام مضطجعا على إيوان فوق ظهر اليخت . وأعدت الأفكار نفسها على ذهني بلا انقطاع . وفكرت في خلال ستة الأشهر تلك اكثر مما فكرت طول حياتي . لا تضحكي فلا شيء أفتق للذهن من الحزن .

وأدركت أنني إذا كنت قد خسرتك فالذنب ذنبي ، وكان علي أن أعرف كيف احتفظ بحبك . وبينا « زر الورد » يمخر عباب البحر كنت ممدداً أقول لنفسي . « لم أعرف كيف أحتفظ بها . أواه لو قيض لي أن أعود فأبدأ! » ثم اني بقوة التفكر والتألم قد فهمت . فهمت انني لم أقاسمك أذواقك وأفكارك حق المقاسمة . فأنت امرأة نابهة وثابة الذكاء ، فلم أفطن الى ذلك ، لأنني لم أحبك من أجله . وقد أسأت اليك وأثقلت عليك من حيث لم أقدِّر...

فهزت رأسها ، فأصرَّ :

ـ نعم! نعم! لقد كنت أخجلك دوماً... ولم أرع واجب الرعاية طبعك الحسَّاس ، فوقع بيننا سوء التفاهم ، وهذا ناشئ من تغاير طبيعتينا تغايراً تاماً... ثم إني فوق هذا ما عرفت كيف ألهيك وأسليك ، وما عرفت بتة كيف أجدُ لك ضروب المسرات التي تعوز امرأة ذكية فهمة مثلك...

وكان بسيطاً مخلصاً في أسفه وفي ألمه الى أن أستثار عطفها عليه وميلها إليه... فقالت له برقة :

ـ أي صديقي ، ليس لدي ما يدعو الى شكايتي منك...

فاستطرد :

ـ كل ما قلته لك الآن حق . وقد أدركته في وحدتي ، وأنا على يختي ، في عرض البحر... إذ قضيت عليه ساعات لست أتمناها لأعدى أعدائي . واعتزمت غير مرة أن ألقي بنفسي في اليم فلم أفعل . أفكان ذلك لاعتبارات دينية أم عواطف عائلية أم لأنه لم تكن عندي الشجاعة ؟ ما أدري . وربما لأنك كنت ، على ما بيننا من البعد ، تعلقينني بأسباب الحياة . وقد جذبت اليك ، فها أنت ذي تجدينني أمامك... وحدث أنني راقبتك مدى يومين ، ولم أرد أن أزور بيتك ، فما كنت لأقدر على لقائك على حدة وما كنت لأقدر على محادثتك ، ثم انك كنت تضطرين الى استقبالي اضطراراً ، فآثرت مخاطبتك في الطريق ، وهذه فكرة عنت لي أيضاً على ظهر اليخت ، فقلت لنفسي : « إنها إذ أصغت إلي في الطريق فذلك لأنها تريد الاصغاء ، كما كانت تفعل منذ أربع سنوات في حديقة قصر « جوانفيل » تحت التماثيل ، على ضفاف البحيرة ، أفلا تذكرين ؟

ثم استطرد ، متنفساً الصعداء :

ـ أجل ، كما في جوانفيل ، مادام علينا أن نعود فنبدأ من جديد . قلت انني راقبتك يومين ، وكان المطر أمس يهطل ، فخرجت في عربة ، ولم أقدر على اقتفاء أثرك ، لأعرف الى أين كنت ذاهبة ، وهو ماأردته ، ولم أفعله ، فإني لا أريد فعل ما قد يسوءك .

فمدت اليه يدها قائلة :

ـ شكراً لك . لقد عرفت أنني لن أندم على ثقتي بك . وكانت منزعجة ، جزعة ، وقد عيل صبرها ، وهاجت أعصابها ، فحاولت أن تقطع عليه الحديث ، وتفلت منه فقالت :

ـ وداعاً! إن الحياة مبسوطة أمامك ، وأنت سعيد . فتحقق من هذا ، وخَّفف عليك عناء الاهتمام بما لا يساوي قلامة ظفر... ولكنه قطع عليها الكلام بنظرة ، وبدت على أساريره دلالة قوة المراس وشدة الشكيمة التي تعرفها...

ـ قلت لك إن عندي كلاماً لك ، فاصغي اليَّ دقيقة واحدة . فذكرت جاك الذي هو الآن في انتظارها ، ومرَّ بعض عابري السبيل فنظروا اليها ثم مضوا في طريقهم . فوقفت تحت أغصان شجرة وانتظرت في حنو وإشفاق...

فقال :

ـ إني أغتفر لك وأنسى كل شيء . فاستعيديني! وأعدك ألا أشير أمامك الى الماضي بكلمة!...

فارتجفت ، وبدت منها حركة دهش وكدر طبيعية ، حتى توقف . وبعد لحظة تفكير ، قال :

ـ أعلم ان ما أعرضه عليك غير مألوف ،لكنني تأملت فيه وفكرت في كل شيء ، وهو الشيء الواحد الذي يمكن عمله ، ففكري فيه ملياً يا تريز ، ولا تجيبيني من فورك .

ـ عبثاً أخدعك ، فلا أستطيع ولا أريد قبول ما ذكرت ، وأنت تعرف السبب .

ومرت بهما عربة تسير على مهل ، فأشارت الى الحوذي فوقف ، فاستبقاها لحظة أخرى وقال :

ـ لقد توقعت أن تقولي لي ذلك ، ولهذا أعيد عليك القول الا تعطيني جواباً لساعتك .

وما إن دخلت العربة ، حتى ألقت عليه نظرة من عينيها ، فكانت عنده لحظة حزينة ، وتذكر الأوقات التي كانت إذاحان انفصالهما فيها ، تنظر اليه بتينك العينين الرماديتين الساجيتين المعبودتين... فكظم زفرة حرّى ، وتمتم بصوت أجش :

ـ اسمعي ، اني لا أستطيع العيش من غيرك ، اني أحبك ، الآن حقاً أحبك ، أما قبل الآن... فلا أدري!

وبينا هي تعطي الحوذي عنوان خياطة كيفما اتفق ، ابتعد عنها بمشيته الرخوة المرحة ، التي كانت في هذه المرة مرتجّة هوناً...

وأورثها هذا اللقاء توعكاً قلقاً . وإذ لم يكن بد من لقائه ثانية تمنت ان تجده فظّاً كما كان في فلورنسا .

وعند زواية الشارع أهابت بالسائق :

ـ الى شارع «دمور» في «لوترن» .

٣٢

كانت رواية «فوست» ستمثل في دار الاوبرا يوم الجمعة . فبدأت الموسيقى تعزف والنظّارات المقرِّبة تنفض بهو الأرجوان والذهب على الأنوار الاخّادة بالأبصار . وكانت رؤوس النساء المزينة بالجوهر وأذرعهن العارية تضيء في المقاصير المظلمة كأنها الأحجار الكريمة في صناديق الحلي . وأشرف النظارة على القاعة في سمط طويل من الماس البرّاق والزهر النضر والشعر الجيل والقدود الخوطية والثياب الشفافة والأنسجة الهفافة .

وكانت ترى في الصفوف الأمامية سفيرة النمسا والدوقة دي جلادوين . وفي المدرّج «برت ديزيني» و«جان تول» التي اشتهرت بانتحار عشيق لها بالأمس ، في المقصورات ، مدام «برار دي لامال» مسبلة الجفون ، تلقي أهدابها الطويلة ظلّها على خديها الناعمين ، والأميرة «سينافين» أنيقة فاخرة تخفي تشاؤمها خلف مروحتها . ومدام «دي مولين» جالسة بين صبيتين ، كانت تلقنهما فن التجمّل . ومدام «ملان» آمنة على جمالها الذي لم يبزّه لثلاثين عاماً جمال . ومدام «بربيه ديزل» متصلبة ، بشعرها الرمادي المثقل بالماس ، وزادت بثور وجهها وجاهة شكلها ، وكانت محط الأنظار ، فقد ذاع في ذلك الصباح نبأ إخفاق «جران» في تأليف وزارة وقبول المسيو برتييه ديزل تأليفها . وكادت

مهمته تنجز ، ونشرت الصحف قائمة اسماء الوزراء ، ومن بينهم الكونت مارتن بليم وزيراً للمالية . فجعلت النظارات المكبرة تتوجه عبثاً الى مقصورة الكونتس مارتن التي كانت لا تزال خالية .

وانتشرت في المكان غمغمة الأصوات . وكنت ترى في الصف الثالث الجنرال لاريفيير يتحدث الى الجنرال ديلابرش . فمرَّ بهما «مونتسوي» في طريقه الى مقعده . فمدَّ اليه لاريفيير يده قائلاً : «لقد بلغني يانك أنت يا مونتسوي الذي أسقطت «جران» . فهنيئا لك ذلك فاحتج مونتسوي قائلاً إنه لا يخوض في السياسة ، ولا هو شيخ ولانائب بل ولا هو عضو حتى في مجلس مقاطعة «الواز»...

ومسح البهو بعوينته وقال :

ـ انظر يا لاريفيير! هناك في تلك المقصورة اليمنى امرأة فتانة حقاً ، سمراء ، مرسلة سوالفها على الخدين...

ثم استقر في مجلسه هادئاً ، متذوقاً حقائق السلطة والنفوذ . وفي خلال ذلك كانت تتردد على ألسنة الناس أسماء الوزراء الجديدين : فبرتييه ديزل رئيسا لمجلس الوزراء ووزيراً للداخلية ، ولوبيه وزيراً للحقانية ، مارتن بليم وزيراً للمالية ، كما أن التعيينات الأخرى عُرفت ما خلا وزارة التجارة والحربية والبحرية فلم تكن قد عُيّنت بعد...

وارتفع ستار المسرح عن حانة الإله «باخوس» ، وكان الطلاب ينشدون ترنيمتهم الثانية ، عند ماظهرت الكونتس مارتن في مقصورتها ، وقد رجلّت شعرها عالياً ، وكانت لابسة ثوباً أبيض ذا كمين منتشرين كجناحين ، وعلى مشد وسطها ، عند نهدها الأيسر ، كانت تزهر زنبقة كبيرة من الياقوت .

وجلست بقربها «مس بل» في ثوبها من المخمل الأخضر ، وكانت قد أتت الى باريس لتوصي على جهازها وملابسها بعد أن خطبت للأمير أيوزبيو البرتنلي دلاّ سبينا .

قالت مس بل :

ـ عزيزة! إنك قد تركت في فلورنسا صديقاً يعتزكثيراً بجمال ذكرك وهو الاستاذ الريغي . وهو يغدق عليك الثناء الذي هو عنده أزكى الثناء فيقول عنك أنك إنسانة موسيقية . وأنىّ للاستاذ الريغي أن ينساك في حين انه حتى الخزامى في البستان تذكرك ؟ ؟ وتنوح أغصانها المجردة على غيابك ـ انها تأسف عليك وتحن اليك يا عزيزة!

فاجابت تريز :

ـ قولي لها انني قد حملت من «فييزول» تذكاراً هو بُلالة أوامي وعُلالة أيامي...

فقالت مس بل :

ـ أي واللّه ياعزيزة ؟ سأقول لُخزّامى فييزول إنك تحنين اليها ، وانك لن تلبثي أن تعودي فتزوريها على أكمتها ، لكنني أسألك ، أتلقين مسيو دي شارتر في باريس ؟ فإني أريد أن أراه من كل نفسي ، لأني أحبه إذ كان ذا نفس رقيقة حساسة نابهة . أجل يا عزيزة ، ان روح المسيو دي شارتر تفيض رقة وحساسية ونباهة...

فأجابت تريز ، إن مسيو دي شارتر في دار التمثيل لا محالة فلن يقصر في الحضور للسلام على مس بل .

وهصر الستار . فأسرع الناس الى الممشى ، وفي لحظة ازدحم البهو الصغير المتصل بالمقصورة بالماليين والفنانين والنواب ، وأحاطوا بالكونت مارتن بليم يهنئونه متزاحمين بالمناكب على مد أيديهم فوق رؤوس بعضهم بعضاً لمصافحة بالأيدي . وأقبل جوزيف شمل يسعل وله زنّة وأنّة ، وكان أعمش العنيين ، أصم الأذنين ، يشق لنفسه باحتقار في الزحام طريقاً . حتى وصل الى الكونتس مارتن فأخذ بيدها ، وغطّاها بالأنفاس الثقيلة والقبل الرنّانة ، قائلاً :

ـ يقال إن قرينك عُين وزيراً . أفهذا صحيح ؟

فقالت ان هذا ماأُشيع ، لكنها تعتقد ان شيئا لم يقرر بعد . على أن زوجها هنا فلمَ لا يسأله ؟ . فقال :

ـ آه! إذاً فلم يعين زوجك وزيراً بعد ؟ ففي حالة تعيينه سأسألك لحظة محادثة لمسألة من الشأن بأعظم مكان! ثم سكت ، وهو يرسل من وراء عويناته الذهبية تلك النظرات التي تكون عادة للأعمى... وبدهها بالسؤال :

ـ أذهبت الى ايطاليا هذا العام يا سيدتي ؟

ثم قال بغير أن يدع لها وقتاً للرد :

ـ أنا عارف! عارف! لقد ذهبت الى رومه . ورأيت قوس الملك « تيتوس » المرذول . ذلك النصب الرخامي البغيض حاملاً بين أسلاب اليهود الشمعدان ذا الشعب السبع .لابأس فدعيني أقول لك يا سيدتي انه عار على العالم سماجة بقاء هذا النصب قائماً في مدينة رومه ، حيث لم يجد البابا‌وات القوت إلا بفضل فن اليهود من صاغة وصيارفة نقد . فقد أدخل اليهود الى ايطاليا علوم الإغريق والشرق . وما الرنيسانس « عصر النهضة » إلا من عمل اسرائيل . ذلك هو الحق الأبلج المشهود ولكنه متناكر مجحود .

ثم خرج ، وفي تلك الأثناء كانت الأميرة سينافين على طرف مقصورتها تنظر بعويناتها الى صاحبتهابفضول ثم أشارت الى بول فانس الذي كان بقربها ، قائلة :

ـ أما تجد الكونتس مارتن في هذه السنة ذات جمال فائق ؟ وسأل الجنرال ديلاريش صاحبه لاريفيير .

ـ أرأيت ابن أخي ؟

ـ ابن أخيك ؟ « لومنيل » ؟

ـ نعم . روبير . فقدكان الآن في القاعة .

ففكر دي لاريفيير لحظة ثم قال :

ـلقد أتى هذا الصيف الى « سيمنفيل » . فتبيّنت فيه شذوذ المأخوذ . إنه ولد لطيف نبيه ، حر كالذهب ، لكن تعوزه مهنة وغرض يقصده في الحياة .

ورفع الستار . ولما انتهى الغناء ، خاطبت مس بل الكونتس مارتن بقولها :

ـ لقد كتب إليّ المسيو شولت يا عزيزة خطاباً جميلاً للغاية . قال لي فيه أن اسمه رُفع مع جميع الأسماء ، ونشر الله نوره في كافة الأرجاء... ففرحت بذلك فرحاً شديداً . أو كما قال : «ان مجد غيري من الشعراء مستكن في المُرّ والعطر ، أما مجدي فيئن ويدمي تحت شؤبوب من الحجارة وصيب من قذائف المحار» أحق يا عزيزة ان الفرنسيين قد رجموا الرجل الطيب مسيو شولت ؟ ؟

وبينا تريز تسكن روع مس بل فتح «لوبيه» باب المقصورة وعليه مظهر الصلف ، وكان مبللاً موحلاً ، وقال :

ـ اني آت من رياسة الجمهورية .

فقد كان من الشهامة بحيث يعلن الأنباء السارة الى الكونتس مارتن أولاً :

ـ لقد أُقرت التعيينات . فصار قرينك وزيراً للمالية . وهي ادارة بديعة...

فسأل الكونت مارتن بليم :

ـ أوَ لم يبد رئيس الجمهورية اعتراضاً عند ذكر اسمي أمامه ؟

ـ بتاتاً . فان «برتييه» أذكره ارث الاستقامة المجيدالذي لآل مارتن ، كما أذكره ثروتك ، وبخاصة صلتك المعلومة ببعض رجال المال المعروفين الذين تعد معونتهم للحكومة ذات قيمة . وأدرك الرئيس ضرورات الساعة . فأمضى .

فتغضن وجه الكونت مارتن المصفر ، وابتسم ، فاستمر «لوبيه» يقول :

ـ سيظهر المرسوم غداً في الجريدة الرسمية . وقد صحبت بنفسي في عربة أجرة موظف مجلس الوزراء الذي حمله الى المطبعة ، وهذا الاحتياط ضربة لازب ، ففي أيام «جريفي» الذي لم يكن مع ذلك أبله ، كانت المراسيم توقف في الطريق من قصر «الاليزيه» الى رصفة «فولتير»!

وألقى «لوبيه» بنفسه على مقعد . وهناك ذاق بعينيه ومنخريه كتفي الكونتس مارتن ، وقال :

ـ لم يعد يقال ، كما في أيام صديقي المسكين «غمبتا» ، إن الجمهورية مفتقرة الى نساء . فانك يا سيدتي ستقيمين الأفراح الجميلة في أبهاء الوزارة :

ثم نهض وانحنى للكونتس قائلا :

ـ أتسمحين أيتها الكونتس أن أصحب قرينك ؟

وما إن خرجا حتى دخل «جاك دي شارتر» و «بول فانس» الى المقصورة : فقال الأخير :

ـ أهنئك يا سيدتي

لكنها التفتت الى «دي شارتر» قائلة :

ـ آمل ألاّ تكون قد أتيت لتهنئتي ، أنت...

فاستفهم منها «بولفانس» عما اذا كانت ستقطن في دور الوزارة . فأجابته بالسلب . فاستطرد بول فانس في الكلام :

ـ انك على الأقل ستغشين الحفلات الراقصة التي تقيمها رياسة الجمهورية وحكومة البلاد ، حيث نعجب بالفن الذي تحفظين به جلالة سحرك الخفي وخلابة حسنك البهي . حيث تبقين أيضاً لنا مهبط الوحي ومبعث الأحلام...

فقالت الكونتس مارتن :

ـ كأنما التغيرات الوزارية «يا مسيو فانس» تلهمك أتفه التصورات...

فقال «بول فانس» :

ـ انني يا سيدتي لا أقول لك مع «رينان» أستاذي الحبيب : «وما شأن ذلك والشّعْري» لأنك ستجيبين بحق :

«وما تفعل الشّعري بالأرض الصغرى» على أن ما كان مثار دهشي هو رؤية الأيفاع بَلْه الشيوخ يغترون بوهم السلطة ، ناسين أن الجوع والحب

الموت كما ان كل ضرورات الحياة الخسيسة أو الرفيعة لها كذلك على البشر سلطان ، بحيث لا تترك لسادة الأبدان غير سلطة على الورق ودولة من الكلام... أما ما هو أحرى بالعجب فاعتقاد الناس أن عليهم حكاماً ووزراء غيّر بؤسهم وشهواتهم وغفلتهم . وكان حكيما ذلك الذي قال :

« فلنعين السخرية والشفقة شهوداً للبشر وقضاة! » .

فضحكت الكونتس مارتن وقالت :

ـ لكنك أنت الذي كتبت هذا « يامسيو فانس »! فاني أقرأكتبك .

وبدأ الفصل الأخير . فلم يبق في مقصورة الكونتس غيرها و « دي شارتر » و« مس بل » .

وكانت الأخيرة تقول :

ـ عزيزة! اني مغتبطة ـ كيف تقولين بالفرنسية ؟ اني متحمسة فخور برؤيتك تضعين على موضع قلبك زنبقة فلورنسا الحمراء . ولابد أن يكون المسيو « دي شارتر » ، وله روح فنّان ، فرحاً مثلي برؤية هذه الحلية الغالية على ثوبك... آه! أما لاحظت يا هواي ان على الحلي الجميلة مسحة القسوة الفاخرة ؟

فقالت « تريز » :

ـ إن جوهريي ههنا ، وقد أسميته : فهو مسيو «دي شارتر» الذي تفضل برسم هذه الحلية .

وفتحت المقصورة ، فالتفتت «تريز» ، فرأت في الظل «لومنيل» ، الذي حيّاها قائلاً :

ـ أرجو يا سيدتي أن تزفي تهانئي الى قرينك .

ثم أطرى في شيء من الجفوة أدلة حسنها البادية ، ووجه الى مس بل بضع كلمات تناسب المقام .

وكانت «تريز» مصغية ، قلقة ، ساهمة ، تجهد جهدها المؤلم في الرد بأجوبة غير ذات معنى .

فسألها أأمضت الفصل في رغد بجونفيل . وقال انه كان يود الذهاب الى

هناك في موسم الصيد . فلم تسنح له الفرصة . لأنه كان مسافراً في البحر الأبيض المتوسط على يخته . ثم ذهب للصيد في سمينفيل .

فقالت مس بل :

ـ آه يا مسيو «لومنيل»! لقد مخرت عباب البحر الأزرق ، فهل رأيت عرائس الماء ؟

لا انه ما رأى عرائس الماء ، لكن «درفيلاً»عام في مياه اليخت ثلاثة أيام .

فسألته «مس بل» وهل يحب الدرفيل الموسيقى .

فقال انه لا يظن ذلك :

ـ ان الدرافيل هي بكل بساطة « القروش» الصغيرة التي يسميها البحارة أوز المحيط لمشابه معينة بينهما في شكل الرأس .

فقالت «مس بل» :

ـ إذا جاء يا «مسيو لومنيل» في العام القادم «درفيل» يعوم مرة أخرى حول يختك ، فرجائي اليك أن تضرب له على الناي . وبعد ، فهل تحب البحر «يامسيو لومنيل» ؟

ـ اني أوثر الغاب .

وكان كابحاً جماح نفسه ، يتكلم ببساطة وهدوء .

فشحب لون «دي شارتر» وقام وخرج .فلم تسمع تريز كلام صاحبتها «مس بل» الذي وجهته اليها عن التمثيل والغناء ، لأن روحها كانت قد طارت من باب المقصورة الصغير .

وسمع في المخدع المتصل بالمقصورة دوي المقاعد المقلوبة . وعاد « شمل» . فقد سمع أن الكونت «مارتن بليم» عين وزيراً . فرجع أدراجه من فوره يسأله وسام الصليب من طبقة «كوماندور» ومسكناً أكثر اتساعاً في دور المعهد العلمي ، لأن مسكنه الحالي مظلم يضيق بزوجه وبناته الخمس ، حتى انه اضطر ان يجعل غرفة مطالعته في (طقيسي) وشكا

شكوى طويلة مرة ، وأبى أن ينصرف قبلما تعده «الكونتس مارتن» بالكلام في شأنه .

وسألت مس بل :

ـ أتبحر يا مسيو لومنيل على ظهر يختك في العام المقبل ؟ فقال إنه لا يظن ذلك . فلم تعد له رغبة في الاحتفاظ بزّر الورد . فقد كان البحر يقبض الرجاء . ونظر الى تريز بهدوء وحزم وعناد .

وكانت على المرسح «مرغريت» في السجن و «مفيستوفل» يغني : «تبلّج فجر النهار» ، والموسيقى تقلد عَدْو الخيل المرعب .

فتمتمت تريز :

ـ أريد أن أقول لك يا عزيزة ان «مرغريت» هذه المسكينة لم ترد الخلاص بالجسد ، ولهذا السبب بعينه خلصت بالعقل والحق ، واني موقنة أشد اليقين بأننا جميعاً سيكون نصيبنا النجاة . أجل اني أؤمن بتطهير الآثمين آخراً .

فنهضت تريز ، طويلة ، بيضاء خالصة ، على صدرها الزهرة الدامية . وكانت مس بل تصغي الى الموسيقى كأن على رأسها الطير . وتناول «لومنيل» في المخدع معطف الكونتس مارتن ، وبينما هو يمسكه منشوراً مرت تريز من المقصورة الى المخدع ، ووقفت أمام المرآة ، بقرب الباب الموروب . فوضع المعطف الكبير من المخمل الأحمر الموشى بالذهب المخطط بالفرو على كتفيها العاريين ولمسهما بأصبعه خفيفاً ، وقال بصوت خافت بكل اختصار وجلاء :

ـ تريز ، اني احبك . فاذكري ما سألتك أول من أمس ـ سأكون كل يوم ، كل يوم ، من الساعة الثالثة ، في بيتنا بشارع سيونتيني .

وفي تلك اللحظة ، بينا هي تحني رأسها له ليصلح من وضع معطفها ، رأت «دي شارتر» ويده على مقبض الباب . فنظر إليها بكل ما يمكن العين البشرية أن تفصح عنه من عتب وحزن . ثم تحول واختفى في غياهب

المـمـشى . فكأنـمـا شـعـرت بمطارق من النار تضـرب قلبـهـا وتـهـد جـوانب صدرها . فلبثت على العتبة جامدة لا حراك بها .

قال « مونتسي » وكان قد جاء ليأخذها :

ـ أكنت بانتظاري ؟ سآخذك ومس بـل الى البيـت ، فإنا جـعلناك اليـوم ظهرياً فكنت نسياً منسياً .

٣٣

لازمتها في عربتها وفي غرفتها نظرة صاحبها ، تلك النظرة القاسية الحزينة... وكانت تعرف مبلغ ما هو هدّف لليأس وعرضة لفقد زمام أمره . وقد رأته على هذه الحال مولّياً الأدبار على شاطئ الأرنو . فحثت إذ ذاك السعادة خطاها ، في حال غمه وهمه ، بحيث جرت اليه وصاحت به « تعال! » .

وفي هذه المرة أيضاً ، على ما كانت محاطة ومحفوفة به ، كان ينبغي لها أن تجد شيئاً تقوله له ، فلا تدعه يذهب عنها صامتاً متألماً لكنها أخذت أخذاً في سكرات الدهشة وغمرات الحيرة والحسرة...

فقد وقعت الواقعة السخيفة بسرعة فائقة! فأحست مقدار اتساع الهوة التي بينها وبين « لومنيل » فلم تسقه في غضبها بل استبعدته من فكرها .

وبينا وصيفتها تنتظر لتنضو عنها ثيابها ، مشت جيئة وذهاباً من نفاد صبرها . ثم وقفت بغتة . فقد رأت في المرايا المظلمة التي تسبح فيها أضواء الشموع : ممشى التياترو ينسرب فيه لغير عودة أو رجوع .

أين تراه الآن ؟ وماذا يقول لنفسه وهو وحده ؟ لقد كان عذاباً لها ان كانت عاجزة عن اللحاق به للقائه في الحال .

وظلت طويلاً ويداها على قلبها ، زهوقاً .

فصرخت الوصيفة جزعاً ، لأنها رأت على ثوب مولاتها الناصع قطرات

من الدم . فان دبوس الزنبقة الحمراء قد خدش يدها ولم تنتبه له . فنزعت الحلية الرمزية ، التي حملتها أمام الجميع كسّر قلبها المأثور . وأمسكتها بين أصابعها وتأملتها طويلاً . وعندئذ قامت ثانية فتمثلت لها أيام فلورنسا ، وصومعة« سان مارك » حيث طبعت قبلة حبيبها الحلوة على شفتيها ، على حين أنها رأت مرة أخرى ، في غموض ، من خلال أهداب جفونها المنكسرة : رسوم الملائكة والسماء الزرقاء مصورة بالألوان على الحيطان ، ونصب « لانزي » ، والنبع اللامع لبائع الحلوى المثلجة الموضوع على غطاء من النسيج القرمزي ، ثم بيت شارع «الفييري» الصغير ، بما رسم على وجهته من بنات الغاب والعز ، والغرفة التي سمعت فيها الرعاة والمتنكرة المرسومة على «البرافانات» صيحاتها... وصمتها الطويل...

كلا ، فما كان هذا كله ظلال الماضي ، أو أشباح أوقات غابرة ، بل كان حقيقة حبها الحاضرة .

أهي كلمة ، كلمة ألقيت بغباء من أحبني فأبادت هذه الأشياء الجميلة!... إن هذا السعد الطالع ليس في الامكان ، فإن حبها وحبيبها ليسا متكئين على تكأة واهنة من الرمال الخائنة ، فلو قيض لها فقط أن تجري الى بيته ، كما هي الآن ، مجردة من نصف ثيابها ، تحت جنح الظلام ، وتدخل غرفته... إذاً لوجدته جالساً الى النار ، ومرفقاه على فخذيه ، وعندها تتخلل بأنملها شعره ، فتجعله يرفع اليها البصر ، ويرى أنها قد أحبته حقاً ، وأنها كانت له ، كنزه الحي من الفرح والحب .

وصرفت وصيفتها . وشغلت في فراشها ، والمصباح مضيء ، بفكر واحد : إنه كان حادثاً ، حادثاً سخيفاً ، فهو لا ريب قد أدرك أنه لا شأن لحبهما بتلك الحماقة . يا للجنون! أن يتخالجه الشك من إنسان غيره!... كأنما تحس لسواه من الرجال في الدنيا وجوداً!...

●

فتح الكونت مارتن بليم باب الغرفة قليلاً ، فلما رأى النور ، دخل سائلاً :

ـ ألست نائمة يا تريز ؟

وكان عائداً من اجتماع عند «« برتييه ويزل » مع زملائه الوزراء . فأراد مشورة زوجه في أمور معينة ، لما يعلمه من رجاحة رأيها . وكان أشد ما يعوزه الإخلاص في القول . فقال :

ـ قضي الأمر ، وإني موقن بمعونتك يا صديقتي العزيزة في مركز هو مطمح الأنظار ، وإن كان محفوفاً بالمصاعب ، بل بالمخاطر . وأنا مدين به لك الى حد ما ، لأنه يكاد يكون نفوذ أبيك العظيم هو الذي وضعني فيه .

واستشارها فيمن يكون زعيماً للمجلس . فأشارت عليه بخير ماتراه . وألفته لبيباً متزناً ، وإن لم يكن أشد من غيره غباوة . ثم تعمق في التأمل :

ـ يجب أن أدافع أمام مجلس الشيوخ عن الميزانية كما صوت لها مجلس النواب ، وفي هذه الميزانية بدع لا أوافق عليها ، وقد عارضتها نائباً وسأعضدها وزيراً ، فحينذاك كنت أنظر الى ظاهر الاشياء أما الآن وأنا أراها من الباطن فإني أجدها مختلفة كل الاختلاف . وفضلاً عن هذا ، فإني لم أعد حراً .

ثم تنهد قائلاً :

ـ أواه لو عرف قلة جَدّاء ما يستطيعه المرء وهو في دست الحكم!

واندفع يفضي اليها بتأثراته ، فسمعته صابرة ، لكن غير واعية . وكان وجهه الشاحب وصوته الخافت كساعة الحائط ترقم لها مرور الدقائق البطيء واحدة واحدة...

فأذكرها أن عليها الدخول في غمار بيئة لم تكن بيئتها ، وسوف تصدمها تلك البيئة ولا شك بخشونتها . لكن مركزها يقضي عليهما الا يحتقرا أحداً . ومع ذلك فهو يعتمد على لباقتها وإخلاصها .

فنظرت اليه فزعة وقالت :

ـ ليس ما يدعو الآن الى العجلة يا صاحبي ، فسننظر في الأمر فيما بعد...

ولما كان متعباً منهوكاً ، مسّاها بالخير ، وأشار عليها بالنوم لأنها ستسيء صحتها بتمضية سواد ليلها في القراءة وانصرف .

فسمعت وقع خطاه ، أثقل من العادة قليلاً ، وهو يجتاز غرفة مكتبه الغاصة بأكوام الكتب الزرقاء والصحف ، في طريقه الى مخدعه حيث ربما . . ينام...

وعندئذ ضاق صدرها بسكون الليل ، فنظرت الى ساعتها . فوجدت أن الثانية صباحاً قد تنصّفت . فقالت في نفسها : « إنه يتألم كما أتألم . . . فلشدّ ما نظر اليّ بقنوط وغضب(...) » .

وكانت محتفظة بشجاعتها وحمايتها ، أما ما أنفذ صبرها وأنقض ظهرها ، فهو وجودها ههنا ، سجينة مغلوبة على أمرها ، كأنها رهينة المحبسين... لكنها ستكون مطلقة السراح عند وضح الصبح . فتذهب اليه ، وتراه ، وتبسط له كل شيء . لأن الامر كان جلياً . وصغت وهي في سياق أفكارها الحزينة الى قعقعة العربات ، على الرصفة ، الحين بعد الحين . هذا الدوري الذي رقم لها مرور الساعات قد شغل انتباهها بل كاد يكون استمالها . فبذلت جهدها في تبين الضوضاء الضئيلة على مسافة بعيدة وهي تتضخم شيئاً فشيئا وتزداد جلاءً . حتى أمكنها أن تميز قعقعة العجلات ، ودورة عمود الدولاب ، وصدمات الحوافر ذات الحدوات ، التي تزداد ضعفاً على ضعف وتنتهي بأن تتلاشى بعيداً في دمدمة لا تدرك... فإذا عاد السكون فساد تابعت أفكارها .

سيفهم انها أحبته ، وانها لم تحب سواه البتة ، لكن ساء الحظ بأن كان الليل شديد التثاقل في مروره . فلم تجرؤ على النظر الى ساعتها ، خشية تحققها جمود الزمن المضني .

فنهضت ، وذهبت الى الشباك ، وحسرت الستائر . فرأت في السماء

ذات السحب ضياء يَنْساح شاحباً فظنته بزوغ النهار . فنظرت الي ساعتها ، فإذا بها الثالثة والنصف .

فعادت الى النافذة ، وقد جذبها ظلمات الخارج اللانهاية لها فنظرت . وكان الرصيف يضيء على نور مصابيح الغاز . وكان يهطل من السماء القاتمة مطر صامت غير منظور . بغتةً ، مزّق حجب السكون صوت كان عالياً ثم انخفض ، وفيه اهتزاز واختلاط حتى كأنه أصوات عدة تجادل وتضارب بعضها بعضاً ، وهو صوت نشوان كان يقارع الرصيف ويصادم الشجر . وكان مشغولاً بحوار طويل مع كائنات أحلامه ، سامحاً لها كرماً منه بالكلام ، لكيما يسود عليها بعد ذلك بالحركات المفخمة والكلمات المفحمة . فرأت «تريز» السكران المسكين يتمايل على طول السور في جلبابه الابيض كأنه خرقة في مهب ريح اليل ، من وقت لآخر يردد دوماً قولاً بعينه : «هذا بلاغي لها ، للحكومة!» .

وأخذتها قشعريرة البرد ، فعادت الى فراشها ، فراودها فكر مرهق : «انه غيور ، غيور ، كأنّ ثمّ جنّاً تسوّل له الغيرة . وتلك مسألة أعصاب ودم . فغرامه وغيرته سواء . إن سواه قد يفهم . ويكفيه إرضاء كرامته أما هو فغيور غيرة شهوانية عجيبة» .

وقد عرفت ان الغيرة فيه كانت عذاباً بدنياً ، قرحة دامية ، تزيدها كلأبات المخيلة اتساعاً . كما عرفت مبلغ تأصلّ الداء وعمق غوره ، وحدث أن رأته أمام التمثال البرنزي لسان مارك يشحب لونه عندما ألقت خطاباً في صندوق البريد ، ولم يكن إذ ذاك قد قضى منها وطراً في غير اشتهائه وأحلامه... وتذكرت شكاته المكتّمة ، وأحزانه الباغتة ، فيما بعد ، بعد القبلات الطويلة ، وخفية الكلمات الأسيفة التي يرددها بلا انقطاع : «يجب أن أسلوك فيك ؟» . وشاهدت الخطاب الذي تلقته في «دينار» ويأسه المفزع لكلمة سمعها على خوان حانة . فشعرت ان الضربة قد وقعت مصادفة على الموضع الحسّاس ، على القرحة الدامية... لكن نفسها الجميع لم تذهب

شعاعاً . فستقول كل شيء ، تبوح بكل شيء . وإن اعترافاتها كلها لصارخة : «أحبك! ولم أحب يوماً سواك!» .

وهي لم تخدعه أصلاً فإنها لن تخبره بشيء لم يكن سبقها الى حزره . فقليلاً ما كذبت ، أقل مافي الامكان ، وكيما تتجنّب إيلامه فحسب . فكيف لم يفهم ؟ . الأجدى أن يعرف كل شيء ، مادام كل شيء ليس شيئاً . وظلّت تتمثل لمخيلتها الخواطر ذاتها ، فتكرر ذات الأقوال .

وأخذ مصباحها يخبو فلم يعد غير ذبالة مدخنة . فأشعلت الشموع وكانت الساعة السادسة والنصف . فاستبانت أنها نامت فهرعت الى النافذة . وكان الجو القاتم يبدو بلمسه الأرض كأنه وإيّاها سيكونان بحراً واحداً من الظلمات الكثيفة...

وعندئذ عنَّ لها أن تعرف ساعة شروق الشمس . ولم تكن تعلم عن ذلك قليلاً أو كثيراً . وكان ما يدور بخلدها أن ليلة ديسمبر طويلة أي طول . فحاولت أن تتذكر دون جدوى . ولم يخطر لها بتاتاً النظر الى التقويم المنسي على المنضدة . وكان وقع خطا العمال الثقيلة وهم يسيرون جماعات ،ودوي عجلات اللبن وعربات الخضر قد طرق سمعها كبشير بالخير ، فانتفضت لهذه العلامات الأولى المنبئة باستيقاظ المدينة كما انتفض العصفور بلله القطْر .

٣٤

في الساعة التاسعة ، وجدت مسيو «فوزلييه» في رحبة الدار الصغيرة ، يجرف مياه المطر ، وغليونه في فمه . فخرجت مدام «فوزلييه» من مسكنها . وكان كلاهما يبدو عليه علائم الارتباك . فبدأت مدام فوزلييه الكلام بقولها :

ـ إن مسيو جاك غير موجود .

ولما لم تنبس تريز بكلمة ولم تأت بحركة ، دنا منها فوزلييه وفي يده مكنسته ، مخبئاً في يسراه غليونه وراء ظهره ، وقال :

ـ لم يعد مسيو جاك الى البيت بعد...

فقالت تريز

ـ سأنتظره .

فسارت بها مدام فوزلييه الى بهو الاستقبال ، حيث أوقدت نار الاصطلاء ، ولما دخن الخشب ولم يلتهب بقيت منحنية عليه ، ويداها على فخذيها... وقالت :

ـ انه المطر الذي ينزل الدخان...

فغمغمت الكوتس مارتن ألا تتكلّف عناء إيقاد النار ، فلسيت تحسّ بالبرد .

وطالعت وجهها في المرآة .

وكا ن ذابلا على اشتعال خديه . وعندئذٍ فقط تحققت من برودة قدميها كالجليد . فقاربت النار . ولما رأتهامدام فوزلييه قلقة حاولت ان تروح عنها بكلمة ، فقالت :

ـ لن يطول غياب مسيوجاك . فهل لسيدتي أن تصطلى في انتظاره...

كان المطر يُلحُّ على السقف الزجاجي ، وللنهار غُبْسة كلون الرماد... وتريز تردد لنفسها هذه الكلمات التي فقدت عندها معناها لشدة تكرارها إياها : «لم يعد الى البيت بعد» . وجعلت ترقب الباب بعينين مشتعلتين .

وظلت هكذا بلاحراك ولاتفكير أمداً لم تعرف مداه : ربما كان نصف الساعة .فاذا بوقع خطا ، وفتح الباب ، ودخل . فرأته مبللا موحلا ملتهباً بالحمى...

فنظرت اليه نظرة فيها من الاخلاص والصراحة ما أدهشه . غير أنه ما عتم أن تنبهت فيه كل أوجاعه...

فقال لها :

ـ ماذا تبغين مني أيضاً بعد ما بغيت عليّ! انك ألحقت بي كل ضررّ فبوسعك أن تلحقيه...

وكَسَبَهُ التعب لطفاً . فانزعجت :

ـ جاك ، اسمعني...

فأشار ان ليس هناك ما يسمعه منها...

ـ جاك ، اصغ اليّ... إنني ما خدعتك... أي والحق أنني ما خدعتك . وهل كان ذلك في الامكان ؟... وهل كان...

فقاطعها :

ـ رحمة بي! ولا تزيدي في إيذائي... دعيني ، أتوسل أن تدعيني . فلو أنك عرفت كيف قضيت ليلتي لما جرؤت على الاستمرار في تعذيبي...

وسقط على أريكة حيث كان قد قبّلها تحت خمارها ، منذ ستة شهور...

وكان قد سرى سواد ليله حيثما ساقته قدماه . سار ونهر السين حتى

وجد ضفتيه مزدهرتين بشجر الصفصاف والحور... وحاول التلهي بالمرئيات ليسكن أوجاعه فشاهد على رصفة «برسي» القمر وهو يجري في السحاب، وظلّ يرقبه ساعة فرآه يتقنّع ثم يُسفر ويختفي ثم يظهر...

وبعدذلك راح يشتغل باحصاء نوافذ البيوت إحصاءً دقيقاً. بدأ المطر يهطل، فيمم سوق الخضر وشرب خمراً في حانة. فقالت له امرأة بدينة ضخمة، في عينها حَوَل: «لا أراك رخيَّ البال!».

ومرت أمام عينيه رؤى تلك الليلة الحزينة، فقال:

- تذكرت ليلة «الأرنو»... يا ويلك إنك أفسدت عليّ كل فرح في الدنيا وكل جمال.

وتوسل إليها أن تتركه وحده. لأنه يود أن ينام... لا أن يموت... فالموت يخيفه ويرعبه... لكنه يود أن ينام ولا يستيقظ أبداً!...

ورآها أثناء ذلك أمامه، مشتهاة أشد اشتهاء، ومرغوبة كماكانت من قبل... فنظر إليها، وبحث فيها بالنظر الشزر عن آثار الملاطفات التي لم يغدقها عليها...

- جاك! اسمعني!

فأشار ان كلامها من عَبَث الأمور...

ومع ذلك فقد أراد أن يسمعها، وكان مصغياً بتلهف، وكان ما ستقوله موضع رفضه سلفاً... لكنه كان وحده كل ما يهمه في الوجود... فقالت:

- إنك استطعت الظن بأني خدعتك، بأني لم أعش فيك وحدك ولك وحدك. ولكنك لا تفهم إذاً شيئاً؟ أفلا ترى أنه لو كان هذا الرجل عشيقي لما احتاج أن يكلمني في دار التمثيل، في تلك المقصورة، كان عنده ألف وسيلة أخرى ليعطيني موعداً. يا ويحي! . هذا محال يا حبيبي، فأوكد لك أنني مذ حظيت بسعادة - وحتى اليوم وأنا منبوذة معذبة مازلت أقول بسعادة - إنه فظيع. فظيع هذا الذي تتخيّله... لكنني أحبك، أحبك! ولا أحب غيرك. ولم أحب أبداً سواك.

فأجابها متأنياً ، بتمعّن قاس :

ـ سأكون في الساعة الثالثة من كل يوم في بيتنا بشارع «سبونتيني» . أليس هوعشيقك ، عشيقك الذي قال هذا! لا! إنه كان أجنبياً عنك ورجلاً مجهولاً منك .

فنهضت واقفة ، وقالت برزانة ووجوم :

ـ بلى ، لقدكنت له ، وأنت تعرف ذلك . وقد أنكرته ، وقدكذبت ، إبقاءً من الألم والضيق ، لكن ما أقل ما كذبت وما أضره! فقد عرفته فلا تلمني عليه . فقد عرفته ، وكنت تكلمني دوماً عن الماضي ، ثم انه قيل لك ذات يوم في مطعم... فتصورت أكثر مما كان . ولم أخدعك بكذبي ، فلو علمت تفاهة شأنه في حياتي! ذلك انني لم اكن أعرفك . ولا أعرف أن سوف تأتي ، وكنت مرهقة بالضجر .

وجثت على ركبتيها قائلة :

ـ أخطات ، وكان عليَّ أن انتظرك . لكن لو عرفت كيف أن كل ما كان لم يعد كائنا ، وكأنه لم يكن قط!

وكان صوتها شجياً بحلاوة الشكاة ورخامة الغناء في قولها :

ـ فلمَ لم تأت قبل ذلك ؟لماذا ؟

وزحفت إليه ، وحاولت أن تتناول يديه وتلثم ركبتيه ، فدفعها عنه قائلاً :

ـ كنت غبيّاً . فلم أعتقد ، ولم أعرف وكنت معتزماً ألاّ أعرف .

ونهض ، وفي سخطه قال :

ـ إنني لا أحتمل ، كلا لا أستطيع احتمال أن يكون هو ذاك الرجل .

فجلست على الأريكة التي تركها ، ثم جعلت وهي تئن وتتكلم في انخفاض صوت ، تفسر الماضي . ففي ذلك الزمن كانت وحيدة ملقاة في بيئة مبتذلة فارغة الى حد مروع . فحدث ذلك... فأذعنت لكنها مالبثت ان قرعت سنَّ الندم . أوّاه! فلو عرف مبلغ ماأمضّها ذلك

وأرمضها ، وما كانت قد وصلت إليه حياتها من كمد وكدر ، لما كان غيوراً ، بل لرثى لها .

وهزّت رأسها ، ونظرت اليه من خلال ضفائر شعرها المنفوش :

ـ لكنني أحدثك عن امرأة أخرى ، ولا شأن لي بتلك المرأة ، فانني لم أوجد الا منذ عرفتك ، منذما كنت لك...

فطفق يسير في الحجرة بخطا واسعة غير منتظمة ،كما سار منذ قليل على شاطئ السين . ثم انفجر ضاحكا ضحكة صفراء...

ـ أجل ، ولكن في حين كنت تحبينني ، ماذا جرى لتلك المرأة التي لم تكونيها ؟

فنظرت إليه منفعلة :

ـ أفيمكن أن تظن... ؟

ـ أو لم تريه ثانية في «فلورنسا» ؟ أو لم توصليه الى المحطة ؟

فأخبرته كيف تعقبها الى ايطاليا جاداً في طلبها ، وكيف قابلته ، ثم قطعته ، وأنه سافر غضبان أسفاً ، وأنه من ذلك الحين حاول استردادها ، ولكنها لم تعره حتى التفاتة :

ـ أي حبيبي ، إني لا أرى ، إني لا أعرف إنساناً في الوجود خلاك...!

فهزّ رأسه :

ـ إني لا أصدقك .

فهاج هائجها :

ـ لقد أخبرتك بكل شيء ، فاتهمني ، وأدنّي ، ولكن لا تسبّني في حبي لك . فهذا ما أدفعه وأمنعه .

فحجب عينيه بيسراه :

ـ دعيني . لقد أسأت إليّ وآذيتنني كثيراً . فلشدّ ما أحببتك حتى أن كل الآلام التي قد تصيبني بها كنت لأتقبلها ، وأحفظها ، وأحبها... لكن هذا فظيع . وإني أمقته . فدعيني . ان عذابي لشديد . وداعاً .

فوقفت ، مستقيمة العود ، وقدماها الصغيرتان مسمرتان في البساط :

ـ لقدأتيت وإنها سعادتي . إنها حياتي التي أنازع فيها ، وأجاهد في سبيلها... وإني كما تعرف عزيمة الرأي . فلست ذاهبة!

وأعادت كل ما قالته ، مشددة ، مخلصة ، واثقة من نفسها ، وحقها ، موضحة كيف قطعت ذلك القيد الذي كان من قبل رخواً وقدعقرها وضيق أنفاسها ، وكيف انها من يوم وهبته نفسها في بيت شارع«الفييري» الصغير لم تكن إلاّ له ، من دون أسف ، وبأكيد من دون نظرة ضالة أوفكرة حائرة في أي سواه... ولكنها بمخاطبتها إيّاه عن رجل غيره أمضته وأغضبته ، فصرخ فيها قائلاً :

ـ لا أصدقك!

عندئذ بدأت ثانية تكرر ما قالته .

وبغتة ، نظرت بداهةً الى ساعتها ، وصاحت :

ـ ربّاه! قد انتصف النهار!

ما أكثر ما كانت تصيح هذه الصيحة عندما تروعهما ساعة الفراق . فارتجف جاك لسماعه هذه الكلمات المعهودة التي أصبحت الآن محزنة موئسة تبالغ فيها الهمُّ وتناهى... ومكثت بضع دقائق أخرى تبتهل اليه بعبراتها وكلماتها الحارة . ثم اضطرت للرواح وخرجت صفر اليدين بصفقة المغبون .

●

وجدت في البيت بعض نساء السوق ينتظرنها في البهو ليقدمن إليها طاقة زهر ، فذكرت أن زوجها صار وزيراً وكانت هناك أكوام البرقيات والبطاقات والخطابات والتهاني والمطالب ، وكتبت اليها «مدام مارميه» تسألها توصية بابن أختها الكابتن بالمدفعية الى الجنرال «لاريفيير» الذي أصبح وزير للحربية .

فدخلت قاعة الطعام ، وسقطت إعياءعلى مقعد ، كان الكونت «مارتن بليم» يتابع غداءه . وكان عليه العود لساعته الى مجلس الوزراءالى بيت وزيرالمالية المعتزل لزيارته ، وذكر أن فرط خضوع موظفيه له ومبالغتهم في التأدب قدضايقته وأزعجته وأملته ، وقال :

ـ لا تغفلي يا صديقتي العزيزة عن زيارة مدام «برتييه ديزل» فأنت تعرفين سرعة تأثرها .

فلم تجب . وبينما كان يغمس أصابعه الصفراء في الإناء البلوري ، رفع رأسه فرآها منهوكة القوى مشوشة الهيئة بحيث لم يجرؤ على أن يزيد على ماقاله كلمة .

ألفى نفسه مواجهاً سرآً آثر أن يجهله ، أمام حزن قد يثيره لفظ واحد ويفجره . فخامره من ذلك قلق وخوف وضرب من الاحترام .

فألقى منشفته قائلاً :

ـ ارجوك المعذرة يا صديقتي العزيزة .

ثم خرج . فحاولت أن تأكل . فلم تقدر أن تزدرد شيئاً وشعرت بأن كل شيء يقزز نفسها فلا يذاق ولا يطاق .

وفي نحو الساعة الثانية عادت الى البيت الصغير بحي «لوترن» فوجدت جاك في غرفته ، يدخن غليونه الخشبي ، وأمامه على المنضدة فنجان قهوة كاد يفرغ .

فنظر اليها بجفاء أثلج الدم في عروقها . فلم تجرؤ على الكلام شاعرة بأن كل ما ستقوله سيصدعه ويزهقه ، فإن مجرد ظهورها في رزانة وصمت قد أحفظه وأضرم سخيمته . وقد عرف أنها ستعود ، فانتظرها بفروغ صبر الحقد ، وبقلب صاد مشوق كالذي انتظرها به من قبل في بيت شارع «الفييري» . فرأت بلمحة أنها أخطأت بقدومها ، فأنها كانت بغيابها عنه تجعله يشتهيها ويحن صبابة اليها وقد يدعوها . لكن كان قد سبق السيف العذل . وفضلاً عن ذلك ، لم يخطر لها ان تكون حصيفة حذوراً .

فقالت له :

ـ ها أنت ذا ترى أنني قدرجعت ، ولم يكن يسعني غير ذلك . ثم أن هذا طبيعي ما دمت أهواك . وأنت تعرف .

فشعرت أن كل ما في وسعها أن تقوله لن يزيده الا سخطاً . فسألها أضربت كثيراً على هذه النغمة في بيت شارع سبونتيني ؟

فنظرت إليه بألم مبرح :

جاك ، انك كثيرا ماقلت لي إنك تحتفظ في صميم قلبك بالحقد والكدر . وأرى أنك تحب إيلامي .

وبصبر حبها عادت فروت له تفصيلاً لحياتها كلها ، وفراغ ماضيها وكآبته ، وانه مذ جعلها له لم تعد تعيش إلا به ، و فيه . وكانت أقوالها تخرج صافية كنظراتها . وكانت جالسة بقربه ، فيشعر ، الفينة ، بلمسة أناملها التي صارت الآن خجلة ، وبشدة حرارة أنفاسها . فصغى بشراهة قاسية . بل كان قاسياً على ذات نفسه ، فأراد أن يعرف كل شيء عن مقابلاتها الأخيرة مع ذلك الرجل ، والقطيعة . فروت له صادقة كل مما حدث في فندق «لاجراند بريطانيا» . لكنها نقلت المنظر خارجاً ، الى إحدى الطرقات ، خشية أن تؤلم حبيبها أيضاً صورة ذلك اللقاء المحزن بين أربعة جدران . ثم فسرت لقاء المحطة . فانها لم ترد أن تلقى في مهاوي اليأس والتهور رجلاً مولعاً مقهوراً . وهي من ذلك العهد لم تسمع به حتى يوم مخاطبته إياها بشارع مكماهون . وأعادت ما قاله تحت ظل الشجرة . وكيف أنها رأته بعد يومين في مقصورته بالأوبرا . وهي بالتأكيد لم تشجعه على الحضور . وهذه هي الحقيقة .

كانت هي الحقيقة . بيدأن السم القديم الذي تراكم فيه قليلاً قليلاً كان يفعل فعله ويفري لحمه . فالماضي ، الماضي الذي يستحيل إصلاحه ، قد جعلته حاضراً باقراراتها ، فشبِهُ له وعذَّبه .

فقال لها :

ـ انني لا أصدقك ،على أنني لو صدقتك فلا أقدر أن أعود فأراك لمجرد فكرة أنك كنت يوماً لذاك الرجل! وقد قلت كل ذلك ، وكتبته لك ، وأنت تذكرين حين كنت في « دينار » ، لا أريد أن يكون هو ذاك... وأما عبد...

ثم توقف ، فقالت :

ـ أنت تعلم حق العلم أنه لم يكن ثمة شيء بعد .

ـ أما بعد ، فقدرأيته .

وبقيا طويلا صامتين . وأخيراً قالت بنغمة نائحة غريبة :

ـ ولكن يا حبيبي كان حقاً عليك أن ترى ان امرأة مثلي ، متزوجة على نحوي... ففي كل يوم يحمل النساء الى أحبابهن مواضي مثقلة بأكثر من ماضٍ... ومع ذلك يُعشقن... وآهٍ لو عرفت كم كان ماضيّ لا وزن له!

ـ أعرف ما أعطيتِه ، ولا يمكن للمرء أن يغتفر لك أنت ما يغتفره لسواك .

ـ لكني يا حبيبي كسواي من النساء .

ـ كلا ، لست كغيرك من النساء . فلا شيء فيك يمكن التجاوز عنه...

وتكلم مقفل الفم وأسنانه تصرّ... وعيناه ، تانك العينان اللتان قد رأتهما كبيرتين مضيئتين بلهيب الحب اللذيذ ، قد حالتا الآن جافتين ، جافتين ، غائرتين جفونهما المتكسرة ، ولهما نظرة غريبة فأخافها .

فذهبت الى آخر الغرفة ، واتخذت مجلساً وهناك ، والقلب ضائق والرموش مختلجة عجباً ، كطفلة ، ظلت طويلا ترتعش وهي مختنقة بالزفرات . ثم انفجرت باكية .

فتنهد قائلاً :

ـ لماذا قدِّر عليَّ أن أعرفك ؟

فأجابته غاصة بدموعها :

ـ أما أنا فما أندم على أني عرفتك . إني أقضي من ذلك نحبي وألقى حتفي ولست نادمة . فقد أحببت .

فأصرّ جائرا على أن يؤلم قلبها ويقصم صلبها ، وقد عرف شناعة فعله ولم يستطع له دفعاً .

ـ قد يجوز أنك بعد هذا كله أحببتني أنا أيضاً...

فأجابته ، شرقة الجفنين بالدمع :

ـ لكنني لم أحب سواك ، قد شغفتني حباً وهذا الذي من أجله تقتصّ مني الآن... يا ويلتا ، كيف يعلق بوهمك أنني كنت يوما لغيرك وما كنت لك! ولم لا ؟

فنظرت اليه بلا حزم ولا عزم :

ـ بالله قل لي ، أحقاً إنك لا تصدقني ؟

وأردفت برقة فائقة :

ـ أفتصدقني إذ قتلت نفسي ؟

ـ كلا ، فلا أصدقك .

فمسحت وجنتيها بمنديلها ، ثم رفعت عينيها اللامعتين من خلال دموعها :

ـ إذاً قضي الأمر!

ونهضت ، ونظرت ثانية الى ما في الغرفة من آلاف الأشياء التي في ألفة شهوانية ضاحكة ، وجعلتها لها واتخذتها ولية حميمة ، والتي لم تعدبالنسبة اليها الآن شيئا مذكوراً ، فنظرت اليها هذه الأشياء كأنها غريبة وأجنبية عنها وعدوة لدود لها : فرأت المسكوكات الفلورنسية التي أذكرتها فييزول وأوقات ايطاليا المسحورة... والصورة الجانبية التي عملها «دي شارتر» لفتاة ارتسمت ضحكة على محياها البديع النحيف المضي . ثم وقفت لحظة ، عاطفةً ، زمام دمية تلك البنية الصغيرة «كلارا» بائعة الجرائد التي قد أتت هي أيضاً الى هذا المكان ، ثم اختفت ، محمولة في اللانهاية المروعة ، لا نهاية الحياة والكائنات...

وكررت :

ـ اذاً قضي الأمر!

فلم ينبس .

وآذن الشفق بالفراق ، وطمس معالم الأشكال .

فقالت :

ـ ترى ما يكون مصيري ؟

فأجاب :

ـ وأنا ، فما يكون مصيري ؟

ثم نظر كلاهما الى صاحبه مشفقاً لأن كلاً منهما كان مملوءاً شفقة على نفسه .

فقالت تريز أيضاً :

ـ وأنا التي كنت أخشى من الكبر لأجلك ، ولأجل نفسي ولكي لا ينتهي حبنا الجميل! فليت القدر لم يتمخض به! أجل ، كان الأولى ألا أولد . فيا لسبق الشعور عندما حننت الى الموت ، وأنا بنت صغيرة ، في قصر « جوانفيل » على شاطئ البحيرة ، تحت ظلال الزيزفون ، أمام عذراى الغاب المرمرية .

وسقط ذراعاها ، واشتبكت يداها ، ورفعت بصرها ، وأرسلت عيناها المغرورقتان شعاعاً في الظلمة المحيطة :

ـ وما من وسيلة لأجعلك تشعر بأن ما أخبرك به هو الصدق وأنه أصلاً مذ كنت لك... أصلاً! لكن أنّى لي! إن الفكرة المجردة تبدو لي فظيعة منكرة . أتكون معرفتك بي إذاً قليلة الى هذا الحد ؟

فهز رأسه بحزن :

ـ كلا! فلا أعرفك!

فنظرت متسائلة مرة أخرى الى ما حولها من الأشياء التي في الحجرة ، شهود غرامها :

ـ ولكن كان إذاً عبثاً أن كان كل منا لصاحبه... كان نافلة... وما هو إلا محض لقاء عرضي ولم نجتمع فنكون شخصاً واحداً .

فتميزت من الغيظ . ولم يكن جائزاً أنه لا يعرف مكاناً شغله من نفسها .

وفي حميا هواها المغلوب ، ألقت بنفسها بين ذراعيه ، وغطته بالقبل والدموع والصيحات والنهشات...

فنسي كل شيء ، وأخذها بين ذراعيه ، متوجعة منكسرة ، ولكن سعيدة ، وضمها إليه ، عنيف الشهوة ثائرها ، ليقضي لُبَانات الفؤادِ المعذبِ... وكانت منكسة الرأس على الوسادة ، تبسم له من خلال الدموع .

فانتزع نفسه منها بغتة ، قائلاً :

ـ اني لم أعد أراك وحدك ، إني أرى الآخر معك ، دائماً... فنظرت إليه ، صامتة ، حانقة ، قانطة . ونهضت ، وأصلحت من ثوبها وشعرها ، باستحياء غريب . ثم إذ تحققت أن قد قُضي الأمر ، وحُمَّ الهجر . قلبت فيما حولها ، بنظرة دهشة ، عينيها اللتين ابيضّتا من الحزن ، فما عادتا تريان شيئاً ، وخرجت متثاقلة .



أناتول فرانس

نوبل ١٩٢١

■ ولد في ١٦ ابريل ١٨٤٤ .

■ نشأ محباً للكتاب ، شغوفاً بالقراءة .

■ بدأ الكتابة في سن مبكرة ، حيث نشر مجموعات شعرية عديدة وقصصاً نالت تقديراً من النقاد ورواجاً من القراء .

■ حقق شهرة واسعة بعد نشر « جريمة سلفستر بونار » .

■ كان هذا الكتاب الذي وصفه أناتول فرانس مازحاً لبعض أصدقائه بأنه « كتاب تافه » من بين الأسباب التي اختير على أساسها عضواً في الأكاديمية الفرنسية (مجمع الخالدين) .

■ من بين أهم إبداعاته :

● تاييس

● مطبخ الملكة بيروك

● حديقة ابيقور

● آبار سنت كلير

● ثورة الملائكة

● الآلهة عطشى

■ والكتب الثلاثة التي تصف طفولته ونشأته : « كتاب صديقي » ، « بيير الصغير » ، « ازدهار الحياة » .

● توفي في ١٢ اكتوبر ١٩٢٤ .

ISBN => 2-84305-093-6
EAN => 9782843050930